في علم النفس

محاضرات تمهيدية جديدة

في التحليل النفسي

تأليف

سيجمند فرويد

ترجمة

عزت راجح

مراجعة

محمد فتحي



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

محاضرات تمهيدية جديدة

في التحليل النفسي

تأليف

سيجمند فرويد

ترجمة

عزت راجح

مراجعة

محمد فتحي

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

تصدير المؤلف

لقد ألقيت « محاضراتى التمهيدية فى التحليل النفسى »[1] فى موسمى الشتاء من عامى ١٩١٥ ـــ ١٦ و١٩١٦ ـــ ١٧ ، بإحدى قاعات المحاضرات لعيادة الطب العقلى بفيينا ، أمام جمهور ينتمون إلى جميع الكليات . فأما النصف الأول من تلك المحاضرات فكان مرتجلا ثم كتب على الفور بعد إلقائه ، وأما النصف الثانى فألفته خلال عطلة صيفية فى سالزبرج ، ثم ألقيته بنصه وفصه فى الشتاء التالى ، فقد كانت ذاكرتى لا تزال تحتفظ إذ ذاك بقدرتها على ترجيع الأصوات .

أما هذه المحاضرات الجديدة فلم ألقها قط. فقد أعفانى تقدم السن فى هذه الفترة من التزاماتى نحو الجامعة . والحق أنها كانت التزامات سطحية ، لكنها كانت تضطرنى إلى إلقاء بضع محاضرات . يضاف إلى هذا أنى لم أعد أستطيع أن أحاضر جمهورا من الناس ، من جراء عملية جراحية استهدفت لها . على أنى سأتصور نفسى فى قاعة المحاضرات وأنا أكتب ما يلى ، فربما كان فى هذا ما يعيننى على ألا أنسى القارئ وعلى أن أحسب له حسابا وأنا أتعمق الموضوع .

وهذه المحاضرات الجديدة ليس من شأنها إطلاقا أن تحل محل المحاضرات الأولى ، إذ هى ليست منفصلة عنها بحال ، ولا تؤلف كلا مستقلا يرجو أن يجد له طائفة معينة من القراء ، فما هى إلا امتداد للمحاضرات الأولى وإضافات إليها تقع ، من حيث صلتها بالأولى ، فى مجموعات ثلاث . فأما المجموعة الأولى فتنتظم التعديلات الجديدة للموضوعات التى سبق أن عالجناها منذ خمسة عشر عاما ، والتى يجب أن تعرض اليوم فى ثوب جديد نتيجة لتعمق معلوماتنا ولما طرأ على وجهات نظرنا من تغيير ، أى أن هذه المجموعة تحتوى على مراجعات ناقدة . وأما المجموعتان الأخريان فتشتملان على ما ظفر به التحليل النفسى من تقدم فعلى . فهى تتناول موضوعات لم يكن لها وجود فى نطاق

(١) قام مترجم هذه المحاضرات بتعريب « المحاضرات التمهيدية » على طلب وزارة التربية والتعليم ويجدر بالقارئ أن يبدأ بقراءتها حتى لا يشق عليه فهم هذه المحاضرات الجديدة .

التحليل إبان محاضراتنا الأولى ، أولم تكن معروفة فى ذلك العهد إلا على قلة وندور ، فلم يكن هناك ما يدعو إلى معالجتها فى فصول خاصة . ونذكر أن بعض هذه المحاضرات الجديدة تجمع بين خصائص هاتين المجموعتين ، فهذا شىء لا محيص عنه لكنه ليس مما يؤسف له أيضا .

يضاف إلى هذا أنى أكدت ارتباط هذه المحاضرات الجديدة بالمحاضرات التمهيدية ، بأن جعلتها تتبعها من حيث ترقيمها . فالمحاضرة الأولى من هذا الكتاب هى المحاضرة التاسعة والعشرون . وأقولها مرة أخرى إن هذه المحاضرات لا تعلم المحلل النفسى شيئا جديدا ، وأنها موجهة إلى ذلك الجمهور الكبير من المثقفين الذين نرجو أن يكون اهتمامهم بالطبيعة الخاصة لهذا العلم الناشئ وكشوفه اهتماما سمحا وإن لم يخل من الحرص والحذر . وقد كان رائدى فى هذه المرة أيضا ألا أضحى بشىء من أجل المظهر ، وأن أتحاشى عرض التحليل النفسى كعلم بسيط مكتمل ختم عليه : فلم أحاول أن أخفى مشاكله ، أو أن أتجاهل ما به من ثغرات ومواطن شك . ومثل هذا التواضع لا يتعين الجهر به فى أى ميدان علمى آخر غير ميدان علم النفس ، إذ هو أمر مسلم لا تنتظر جمهرة الناس شيئا غيره من العالم . من ذلك أن أحدا ممن يقرءون كتابا فى الفلك لا يشعر بخلف ظنه أو باحتقاره هذا العلم ، حين تتضح له الحدود التى تصبح عندها معلوماتنا عن الكون عماء مطويا . لكن الشأن غير هذا فى علم النفس وحده ، فهنا يتجلى ما جبل عليه الناس من عجز عن البحث العلمى ويتضح كل الوضوح . فكأن الناس لا ترجو من علم النفس أن يستهدف تقدم المعرفة بل نوعا آخر من الإرضاء . فكل مشكلة غير محلولة وكل موطن للشك ينقلب مثارا للشكوى منه .

وعلى أن كل من يحب علم النفس حقا ، ينبغى له أن يتقبل هذا العنت والعناء أيضا .

فيينا — صيف ١٩٣٢ فرويد

المحاضرة التاسعة والعشرون

« إعادة النظر فى نظرية الأحلام »

سيداتى وسادتى : بعد فترة من الزمن تجاوزت الخمسة عشر عاما ، ها أنا ذا أدعوكم مرة أخرى لنتباحث فيما عرض لنظرية التحليل النفسى ، خلال هذه الفترة ، من تطورات جديدة ربما كانت ضروبا من التهذيب والتصويب ، وإنه لأولى وأجدر أن نوجه اهتمامنا ، بادئ ذى بدء ، إلى نظرية الأحلام ، وذلك لاعتبارات عدة . فهذه النظرية تشغل مكانا خاصا فى تاريخ التحليل النفسى ، بل هى نقطة تحول فيه . فقد انتقل التحليل بفضل نظرية الأحلام من مجرد طريقة للعلاج النفسى إلى علم نفس يتناول الأعماق من الطبيعة البشرية . وقد ظلت هذه النظرية منذ ذلك الحين أظهر ما يتميز به هذا العلم الناشئ ، وكانت شيئا لا نظير له فى سائر ميادين العلم ، إذ أضحت فتحا جديدا انتزعه التحليل من يد « الأدب الشعبى » و « التصوف » . على أن غرابة الأفكار التى تتضمنها بالضرورة هذه النظرية جعلتها بمثابة شعار و « كلمة سر » يتميز بها من قد يؤمنون بالتحليل النفسى عمن لا يقدرون على فهمه واستيعابه . أما فيما يختص بى ، فقد كنت أجدها على الدوام شيئا أستطيع أن أستمسك به خلال الأوقات العصيبة التى كانت فيها المشكلات المستعصية للأمراض النفسية مصدر حيرة لى وأنا ما أزال قليل الخبرة بها . فكنت كلما خامرنى الشك فى صحة ما أصل إليه من نتائج اجتهادية ، وعملت على أن أترجم حلما معقدا لغوا إلى عملية نفسية واضحة مفهومة عند صاحب الحلم ، شعرت بمزيد من الثقة أنى أسلك النهج الصحيح .

لذا فمما يهمنا بوجه خاص أن نتتبع ما أصابه التحليل النفسى من تغييرات خلال تلك الفترة التى ذكرت ، وما ظفر به من تقدم جعله يحظى بتقدير المفكرين المعاصرين وفهمهم إياه ، وذلك من ناحية الموضوع الخاص وهو نظرية الأحلام . بيد أنى أستطيع أن أخبركم على التو أن ما سترونه فى هذين الاتجاهين سوف يكون مخلفا لظنكم .

فلننظر فى مجلدات المجلة الدولية للتحليل النفسى (الطبية) التى تظهر فيها منذ عام ١٩١٣ أهم البحوث فى هذا الموضوع . أما المجلدات الأولى فسترون فيها عنوانا يتكرر

بعينه هو « فى تأويل الأحلام » يتناول عددا من الإضافات تتصل بنواح شتى من نظرية الأحلام . وكلما مضينا فى تأثر تلك المقالات ، قلت هذه الإضافات حتى يختفى العنوان بتة آخر الأمر . فكأن المحللين لم يجدوا شيئا جديدا يقولونه عن الأحلام ، وكأن موضوع نظرية الأحلام قد انتهى وطويت صفحته . أما إن تساءلتم عن مبلغ ما تقبله الغرباء عن التحليل من نظرية الأحلام : ومن هؤلاء كثير من أطباء العقول والمعالجين النفسيين الذين يطهون طعامهم على مواقدنا دون حمد أو اعتراف بالجميل ، وكذلك من يسمون بالمثقفين الذين ألفوا أن يستملكوا أروع ما يصل إليه العلم من نتائج ، هذا إلى فئة الأدباء وسواد الناس — فالجواب عن هذا لا يبعث على كثير من الرضا . فقد ذاعت عن الأحلام بضع عبارات بينها كثير مما لم نقله إطلاقا : من تلك قولهم إن الأحلام بأسرها ذات طبيعة جنسية . بل يبدو أن كثيرا من الحقائق الهامة ما تزال بعيدة عن أذهان أكثر الناس بعدها عنهم منذ ثلاثين عاما : كالتمييز الأساسى بين المحتوى الظاهر والأفكار الكامنة للحلم ، وأن أحلام الحصر(١) لا تتعارض مع وظيفة الحلم التى تتلخص فى تحقيق رغبة ، وكاستحالة تأويل الحلم دون العلم بمستدعيات(٢) الحلم التى لها صلة بالحلم ، وفوق هذا كله التسليم بأن أهم شطر فى الحلم هو عملية إخراجه(٣) ، ولست أجانب الحق إن قلت ذلك ، فقد تسلمت خلال هذه الفترة عددا ضخما من الرسائل يطلب مرسلوها تأويل أحلام لهم ، أو يتساءلون عن طبيعة الأحلام ، ويصرحون بأنهم قرأوا كتابى فى تأويل الأحلام ، ومع هذا تشهد كل عبارة من عباراتهم بأنهم أقصروا عن فهم نظريتنا فى الأحلام . وهذا يخول لنا أن نعيد الكرة فنقدم بيانا عما نعرفه عن الأحلام مرة أخرى . ولعلكم تذكرون أننا كرسنا مجموعة بأسرها من المحاضرات لنبين للناس كيف وصلنا إلى فهم هذه الظاهرة النفسية التى كانت غفلا من التفسير حتى ذلك الحين .

لنتصور مريضا قيد العلاج قص علينا أحد أحلامه . فنحن نفترض عندئذ أنه أفضى إلينا بسر من الأسرار التى أخذ على نفسه أن يدلى إلينا بها حين بدء علاجه . بيد أن البوح بالسر على هذه الصورة لا يكفى للتفاهم ، لأن الحلم فى ذاته ليس حديثا مكيفا

---

(١) Anxiety – dreams

(٢) Associations

(٣) Dream – work

للمجتمع ، وليس وسيلة يفصح بها المرء عن نفسه ليفهمه غيره . والحق أنه ليست لدينا أدنى فكرة عما يريد أن يقوله الحالم ، وأن الحالم نفسه ليس أكثر منا حظا فى معرفة حلمه . غير أنه يتعين علينا أن نحسم هذا الموضوع سريعا من أول الأمر . فقد يكون الحلم — كما يؤكد الأطباء الذين لا يؤمنون بالتحليل — شاهدا على أن الحالم لم ينم نوما حسنا ، فلم تنعم أجزاء مخه بنسبة واحدة من الاستجمام ، بل حاولت بضع مناطق منه أن تستمر فى نشاطها بفعل منبهات مجهولة ، ولم يتسن لها أن تقوم بهذا إلا على نحو أبتر منقوص جدا . فإن كان الأمر كذلك ، حق لنا ألا نشغل أنفسنا بهذا النتاج الذى لا قيمة له من الناحية النفسية ، فهو وليد اضطراب مخى يقع أثناء النوم . إذ كيف لنا أن نظفر من بحث أمثال هذه الأشياء بشىء ننتفع به فيما نهدف إليه ؟ . غير أنه من الواضح أننا لم نتخذ هذا القرار من أول الأمر ، بل سلمنا — وربما كان تسليما تعسفيا — بأن الحلم حتى إن كان يستغلق على الفهم ، لا بد أن يكون فعلا نفسيا أصيلا ينطوى على معنى ، وأنه شىء ذو قيمة نستطيع أن ننتفع به فى التحليل كما ننتفع بأى سر آخر يدلى به المريض . والخبرة هى وحدها ما يبين لنا إن كنا على حق فيما ذهبنا إليه . فإن استطعنا أن نحول الحلم إلى قول مفهوم ذى قيمة ، فمن الجلى أن يتيح لنا ذلك فرصة نتعلم منها شيئا جديدا ، وأن نظفر بمعلومات يعز علينا أن نظفر بها بغير هذه الطريقة .

هنا تبرز الصعوبات التى تعترض عملنا هذا وما ينطوى عليه هذا الموضوع من أشياء تبعث على الحيرة والارتباك . كيف السبيل إذن إلى تحويل الحلم إلى صيغة إخبارية عادية ، وأنى لنا أن نفسر أن جزءا مما يرويه المريض قد اتخذ شكلا يستعصى على فهمه وعلى فهمنا أيضا ؟

ولعلكم تلاحظون أنى لا أشرح الموضوع هذه المرة من ناحية نشأته وتكوينه بل إنى أتكلم بصورة جازمة باتة . وأول ما ينبغى لنا أن نعمله هو أن نضع أسس موقفنا الجديد من مسألة الأحلام بأن ندخل فى اعتبارنا مفهومين جديدين واسمين جديدين . فنحن نطلق على ما يسميه الناس فى العادة بالحلم « نص الحلم » أو الحلم الظاهر ، كما نطلق على ما نفتش عنه ونشتبه فى وجوده وراء الحلم « الأفكار الكامنة للحلم » . ومن ثم يتسنى لنا أن نعبر عن المشكلتين اللتين نواجههما على النحو الآتى : تحويل الحلم الظاهر إلى الحلم الكامن ، وبيان الكيفية التى استحال بها الحلم الكامن فى الحياة النفسية للحالم حتى أصبح الحلم الظاهر : فأما الشطر الأول فمشكلة عملية تدخل فى نطاق ما نسميه

تأويل الحلم ، وتتطلب خطة خاصة ، وأما الثانى فمشكلة نظرية يجب أن يقوم حلها على تفسير تلك العملية الافتراضية التى تسمى إخراج الحلم ، أى أن حلها لا يمكن أن يكون نظريا . فيتعين علينا الآن أن نتحدث عن بناء خطة التأويل ونظرية إخراج الحلم من بدء كل منهما .

فبأيهما نبدأ ؟ أعتقد أنه ينبغى لنا أن نبدأ بخطة التأويل إذ أن حدودها أظهر وأوضح ، وسيكون تأثيرها أوقع فى نفوسكم .

ها هو ذا مريض قد روى لنا حلما لنؤوله . وقد استمعنا له فى هدوء دون أن نصدر حكما على ما سمعناه . فما الخطوة التالية بعد هذا ؟ نحن نعقد العزم على ألا تضيق نفوسنا بما نسمع ، أى بالحلم الظاهر الذى يوسم ، بطبيعة الحال ، بسمات مختلفة شتى لا نسقطها من اعتبارنا إسقاطا تاما . فقد يكون حلما ملتئما ممهد الصيغة حتى كأنه قطعة أدبية ، أو يكون ملتبسا مستغلقا حتى كأنه نوع من الهتر . وقد يحتوى على عناصر سخيفة متناقضة ، أو على نكات واستنتاجات رائعة فى ظاهرها . وقد يبدو للحالم واضحا محدود المعالم ، أو غامضا غير محدد ، وربما كانت صورة ناصعة قوية كأنها ترى رأى العين ، أو كانت شاحبة مبهمة كأنها السديم والضباب . وقد نجد أنواعا شتى من السمات موزعة على الأجزاء المختلفة من الحلم نفسه . وأخيرا قد يكون الحلم مصطبغا بمسحة وجدانية قوية من اللذة أو الألم ، أو بمسحة شاحبة فاترة . فلا تحسبوا أننا ننظر إلى هذه السمات الكثيرة المنوعة على أنها شىء غير ذى بال ، وسنرى فيما بعد أنها تنطوى على كثير مما يمكن أن ينتفع به التأويل ، على أننا سنتركها الآن لنمضى فى الطريق الرئيسى الذى يفضى إلى تأويل الحلم . وهذا يعنى أننا نطلب إلى صاحب الحلم أن يحرر نفسه كذلك من الانطباع الذى خرج به من الحلم الظاهر ، وأن يحيد بانتباهه من الحلم فى جملته إلى الأجزاء الفردية لمحتواه ، ثم يخبرنا عن الأشياء التى تتوارد على خاطره بصدد هذه الأجزاء واحدا بعد آخر ، وعن المستدعيات التى تبدر إلى ذهنه حينما يتمثل بعين العقل كل واحد من هذه الأجزاء على حدة .

إنها خطة عجيبة ، أليس كذلك ؟ فهى ليست الطريقة المعهودة التى نعالج بها سرا من الأسرار أو رواية من الروايات . ومن الطبيعى أن تحدسوا أن هذه الخطة تخفى وراءها فروضا لم نذكرها بعد . لكن لندع هذا ونمضى فى سبيلنا فنتساءل : بأى ترتيب نطلب إلى المريض أن يتناول أجزاء حلمه ؟ هنالك طرق عدة لذلك . منها أن نتأثر

الترتيب الزمنى لعناصر الحلم كما يسردها لنا المريض . هذه هى الطريقة التى يمكن أن نسميها الطريقة المأثورة — أدق الطرق جميعا . كذلك نستطيع أن نطلب إلى الحالم أن يفتش فى حلمه عن بقايا اليوم السابق ، فقد علمتنا الخبرة أنه لا يكاد يخلو حلم من أثر لذكرى أو من إشارة إلى حادثة (أو عدة حوادث) وقعت للحالم فى اليوم السابق لحلمه ، وأننا إذا تتبعنا هذه الحلقات تسنى لنا غالبا أن نكشف على حين فجأة عن الطريق الذى يصل بين عالم الحلم البعيد فى ظاهره وبين الحياة الواقعية للمريض . كما نستطيع أيضا أن نطلب إليه أن يبدأ بعناصر الحلم التى راعته لوضوحها وما لها من قوة حسية . ولقد تأكد لنا أن من الأيسر له بوجه خاص أن يظفر بمستدعيات تتصل بأمثال هذه العناصر . على أن الأمر سواء أية طريقة نختار للوصول إلى المستدعيات التى نبحث عنها .

ولننظر الآن فى هذه المستدعيات . إنها تحتوى على مواد مختلفة شتى : على ذكريات من اليوم السابق للحلم ، « يوم الحلم » ، وذكريات من أيام مضت منذ عهد طويل ، كما تحتوى على اعترافات ، وتصميمات وتساؤلات ومجادلات إلى غير تلك . وإن كثيرا منها ليدلى به المريض فى سهولة ويسر ، على حين نراه يتردد متى وصل إلى مستدعيات أخرى . كذلك يكون لأغلبها صلة واضحة بأحد عناصر الحلم . ولا غرابة فى هذا لأنها تنبعث بالفعل من هذه العناصر ، لكنه قد يحدث أيضا أن يمهد لها المريض بقوله : « لا يبدو أن لما أقول أية صلة بالحلم ، فأنا أذكره لأنه يبدر إلى ذهنى » .

ونحن حين نستمع إلى هذا الفيض من الخواطر ، فسرعان ما نلحظ أن صلتها بالحلم لا تقتصر على أنها صادرة من محتواه ، بل نرى إلى ذلك أنها تلقى ضوءا ناصعا على أجزاء الحلم جميعا ، وأنها تسد ما بين هذه الأجزاء من ثغرات ، وتجعل من اختلاطها الغريب شيئا واضحا مفهوما . ويتعين علينا آخر الأمر أن نجلو العلاقة بين هذه المستدعيات ومحتوى الحلم . إذ ذاك يبدو أن الحلم ملخص موجز للمستدعيات صيغ وفق قوانين لم نعرض لها بعد ، وأن عناصره شبيهة بنفر اختيروا عن طريق الاقتراع ليمثلوا جمعا من الناس . وليس من شك فى أن الخطة التى نسير عليها قد مكنتنا من أن نكشف عما يقوم الحلم مقامه ،وفيما تتلخص قيمته السيكولوجية . وأن ما نكشف عنه لا تعود تبدو فيه تلك السمات المربكة للحلم وما يتميز به من غرابة وطبيعة ملتبسة .

ونسارع إلى إيضاح ناحية قد تكون مثارا لسوء الفهم ، إن المستدعيات التى تتوارد

بصدد الحلم ليست الأفكار الكامنة للحلم ، فهذه الأفكار متضمنة فى المستدعيات ، لكنه تضمين غير تام . فالمستدعيات ، من ناحية ، تزودنا بأكثر مما نتطلبه لصوغ الأفكار الكامنة للحلم ، وهو كل التعديلات والتغييرات والحلقات الرابطة التى يجب أن تصدر عن عقل المريض وهو يقترب من أفكار الحلم . ومن ناحية أخرى فالمستدعيات غالبا ما تنضب على التو قبيل وصولها إلى أفكار الحلم نفسها فلا تمسها إلا إشارة وتلميحا . هنا يتعين علينا أن نتدخل من جانبنا : فنتأثر الشواهد والإشارات ، ونستخلص نتائج لا مندوحة عنها ، ونميط اللثام عما لم تزد خواطر المريض على أن تمسه مسا . وقد يبدو من هذا أننا نبيح لذكائنا ولخيالنا المتعسف أن يعبثا بما يقدمه لنا المريض من مواد ، وأننا نسيء استعمالها حتى لنقرأ فيما يقوله المريض أشياء لا ينطوى عليها . والحق أنه ليشق على أن أبين لكم ملاءمة هذه الخطة فى استعراض مجرد كذلك الذى أقدمه لكم . غير أنكم إن حاولتم تحليل حلم بأنفسكم ، أو أحطتم بمثال جيد الوصف مما يوجد فى نشراتنا ، لم تلبثوا أن تقتنعوا إذ ترون كيف يتكشف التأويل ، كما نصفه ، بصورة تفرض نفسها فرضا .

وبالرغم من أننا نعتمد فى تأويل الأحلام ، عادة وفى المقام الأول ، على مستدعيات الحالم ، إلا أننا نعالج عناصر معينة من محتوى الحلم دون الاستعانة بها ، وذلك حين تأبى المستدعيات أن ترد إلى ذهن الحالم . وقد لاحظنا منذ عهد باكر أن هذه الظاهرة يطرد حدوثها متى كنا بصدد عناصر بعينها ، وهى عناصر ليست كثيرة جدا . كما علمتنا الخبرة الطويلة أن هذه العناصر يجب أن تؤخذ على أنها رموز إلى أشياء أخرى ، ويجب أن تؤول من حيث هى . ولو قيست هذه العناصر إلى العناصر الأخرى فى الحلم ، جاز لنا أن نخلع عليها معانى ثابتة لا يشترط أن تكون خالية من اللبس ، ولرأينا أن مدى هذه المعانى يخضع لقوانين خاصة من نوع غير مألوف . وبما أننا نعرف كيف نترجم هذه الرموز — وهذا ما يعجز عنه الحالم بالرغم من أنه استخدمها نفسه — فلا يعز علينا أن نستشف معنى الحلم فور استماعنا إلى نصه ، حتى قبل أن نبدأ عملية التأويل ، على حين يبقى الحالم فى حيرة من أمره . وقد أشبعت القول فى محاضراتى السابقة عن الرمزية وما نعرفه عنها وعن المشكلات الخاصة التى تثيرها ، فلست بحاجة أن أعيد اليوم ما أسلفت .

هذه خطتنا فى تأويل الأحلام . أما السؤال الذى يعرض لنا الآن ، وهو سؤال بليغ

من دون شك فهو : وهل يتسنى لنا أن نؤول كل حلم بهذه الخطة ؟ . والجواب عنه : لا ، ليس كل حلم . ومع هذا نستطيع أن نؤكد فائدة هذه الخطة ودقتها فى كثير من الحالات . ترى لمَ يتعذر تطبيقها فى جميع الأحلام ؟ لهذا السؤال جواب حديث يعلمنا شيئا هاما له صلة بالشروط السيكولوجية لانصياغ الحلم . ذلك أن إجراءات التأويل تعترضها مقاومة يتفاوت مقدارها ، فقد تكون طفيفة يسيرة ، أو بالغة الشدة حتى ليتعذر الظهور عليها بالوسائل التى نملكها اليوم على الأقل . وهى مقاومة لا يسعنا أن نغفل عن مظاهرها أثناء التأويل . فقد تنطلق المستدعيات رخية من دون تردد فى مواضع كثيرة ، يزودنا أول واحد منها أو الثانى بالتفسير . وفى مواضع أخرى يتوقف المريض ويتردد قبل أن يفوه بالخاطر الذى يعتلج فى نفسه . وفى هذه الحال يتعين علينا غالبا أن نستمع إلى سلسلة طويلة من الخواطر قبل أن نظفر بشىء ننتفع به فى فهم الحلم . ولا نعدو الصواب إذا افترضنا أن سلسلة المستدعيات كلما كانت أطول وأكثر التواء ، كانت المقاومة أقوى وأشد . كذلك تلمس أثر هذه المقاومة حين ينسى الحالم أحلامه . فمما يحدث كثيرا أن يعجز عن تذكر حلم من أحلامه مهما حاول . لكنا حين نوفق إلى أن نزيل بالتحليل صعوبة كانت تقلق المريض إزاء موقف التحليل ، فسرعان ما يثب الحلم المنسى إلى ذهنه على حين فجأة . ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى ملاحظتين أخريين . فمما يحدث فى الكثير الغالب من الأحيان أن ينسى المريض نتفة من حلم ، ثم يضيفها آخر الأمر على أنها فكرة تلوية طارئة . وفى هذا ما يشير إلى محاولة منه لنسيان هذه النتفة الخاصة . وتدلنا الخبرة على أن هذه النتفة من الحلم هى أكثر عناصره دلالة وقيمة ، فنفترض أن المقاومة التى اعترضت سبيلها كانت أقوى من المقاومة التى تعرضت لها العناصر الأخرى . يضاف إلى هذا أننا غالبا ما نجد مريضا يحاول الظهور على نسيان أحلامه بأن يسجلها فور قيامه من النوم ، فنخبره بألا فائدة من عمله هذا ، لأنه إن صان نص الحلم من أثر المقاومة بتسجيله ، انتقلت هذه المقاومة إلى المستدعيات ، أثناء تفسير الحلم ، وجعلت تأويله مستعصيا . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا غرابة إذ نرى أن المستدعيات قد وقف تواردها بتة متى زادت المقاومة على هذا القدر ، مما يحبط عملية التأويل إحباطا تاما .

من هذا كله تسنى لنا أن نستنتج أن المقاومة التى تعترض عملية التأويل ، لا بد أن تقوم بدور كذلك فى تكوين الحلم . والواقع أننا نستطيع أن تميز بين الأحلام التى

صيغت تحت ضغط مقاومة طفيفة ، وبين تلك التى اعترض تكوينها مقاومة شديدة عنيفة . على أن عنف المقاومة يختلف أيضا من موضع إلى آخر فى الحلم نفسه ، فيكون مسئولا عن الثغرات وضروب الإبهام والتخليط التى تفسد الالتئام والانسجام فى أكثر الأحلام روعة وجمالا .

لكن ماذا تفعله المقاومة هنا ، وأى شيء تعترضه وتناهضه ؟ الرأى عندنا أن المقاومة علامة محققة على وجود صراع فلا بد أن تكون هناك قوة تسعى إلى التعبير عن شيء ، وأخرى تجهد فى منع هذا التعبير . وعلى هذا فما يبدو فى الحلم الظاهر ، يمكن اعتباره شيئا يشتمل على جميع الحلول التى انتهت إليها المعركة بين القوتين المتعارضتين . وقد يتسنى لإحدى القوتين ، فى موضع معين من الحلم أن تنجز ما أرادت أن تعبر عنه ، وقد تفلح القوة المناصبة ، فى موضع آخر ، أن تبطل التعبير المقصود إبطالا تاما ، أو أن تستبدل به شيئا لا ينم عنه إطلاقا . على أن أكثر الحالات ذيوعا ، وأظهرها تمييزا لعملية انصياغ الحلم ، هى تلك التى ينتهى فيها الصراع بحل ودى[1] بحيث يتاح للقوة التى تصبو إلى التعبير أن تفصح بالفعل عما تريد الإفصاح عنه ، لكن بغير الأسلوب الذى تريد ، أى بعد أن تتلطف فى عبارتها وينالها من التحريف ما يجعلها شيئا منكورا ، فلئن لم يصور الحلم أفكار الحلم تصويرا صادقا ، ولئن كانت عملية التأويل شيئا لا بد منه لسد الثغرة بين الحلم وأفكاره الكامنة ، فهذا يرجع إلى أثر القوة المناصبة المانعة القامعة التى استنتجنا وجودها بعد أن أدركنا ما يعترض التأويل من مقاومة . وبما أننا اعتبرنا الحلم ظاهرة منعزلة مستقلة عن التكوينات النفسية الأخرى المجانسة لها ، فقد أسمينا هذه القوة رقيب الحلم .

تعرفون من عهد طويل أن الرقابة ليست إجراء تنفرد به الأحلام . وتذكرون أن الصراع بين العاملين النفسيين اللذين نسميهما ، على وجه التقريب ، باللاشعور المكبوت والشعور ، صراع يسود حياتنا النفسية ، وأن المقاومة التى تعترض تأويل الأحلام ، وهى سيماء الرقابة فى الأحلام ، ليست شيئا آخر غير المقاومة الكابتة التى تجعل كلا من هذين العاملين بمعزل عن الآخر . كذلك تعرفون أن هناك تكوينات نفسية أخرى تنبعث ، فى ظروف معينة ، من الصراع بين هذين العاملين نفسيهما ،

---

(١) Compromise.

وهي تكوينات تنجم ، كالأحلام ، عن حلول ودية . ولا أحسبكم تطلبون إلى أن أعيد عليكم كل ما قلته فى تمهيدى لنظرية الأمراض النفسية كى أعرض عليكم الظروف التى تنبعث فيها أمثال هذه التكوينات الودية . لقد رأيتم أن الحلم نتاج مرضى ، فهو أول حلقة فى السلسلة التى تنتظم الأعراض الهستيرية والوساوس[١] والهجاس[٢] ، لكنه يختلف عن تلك من حيث أنه وقتى زائل ، ومن حيث أنه يحدث فى ظروف تنتسب إلى الحياة العادية السوية . فمما يجب ألا يغيب عنا أن حياة الحلم — كما قال أرسطو — هى الطريقة التى تعمل بها أذهاننا أثناء النوم . إن حالة النوم تمثل انصرافنا عن العالم الواقعى الخارجى ، ومن ثم فهى تنطوى على شرط لازم لتكوين المرض العقلى . وإن أنفذ دراسة تتناول الحالات الخطيرة من الأمراض العقلية ، لا تكشف لنا عن سمة أبلغ فى تمييز هذه الحالات المرضية ، من تلك السمة التى تتميز بها حالة النوم . غير أن العزوف عن الواقع فى الأمراض العقلية يرجع إلى أحد سببين : إما لأن اللاشعور المكبوت قد بلغ درجة من القوة جعلته يطغى على الشعور الذى يجهد فى التشبث بالواقع ، أو لأن الواقع قد أصبح على درجة لا تطاق من التعنت فإذا « بالأنا » المهدد قد أخذ منه اليأس كل مأخذ ، فألقى بنفسه فى خضم النزعات اللاشعورية . أما الخبل الذى يتضمنه الحلم ، وهو خبل برىء لا ضرر منه ، فينجم عن انصرافنا عن العالم الخارجى انصرافا متعمدا وقتيا ، لا يلبث أن ينتهى متى استأنفنا صلاتنا بهذا العالم . ولنذكر أن توزيع الطاقة النفسية يصيبه شىء من التغيير أثناء عزلة النوم ، فالنائم يستطيع أن يوفر قسطا من الطاقة الكابتة التى يتعين عليه بذلها فى غير هذه الحالة للحجر على اللاشعور ، ذلك أن اللاشعور إن أراد أن يستغل ما لديه من حرية نسبية فى هذا الظرف ، فعمل على استحداث وجه من وجوه النشاط ، ألفى طريق التعبير الحركى مغلقا ، ولم يجد لنفسه إلا منصرفا بريئا هو الإشباع الوهمى المهتلس . ومن ثم يستطيع فى هذه الحال أن يصوغ حلما . بيد أن رقابة الأحلام تبين لنا أن شطرا كافيا من المقاومة الكابتة يظل نشطا فعالا حتى خلال النوم .

هنا تتاح لنا الفرصة للإجابة عما إذا كان للحلم وظيفة يؤديها ، عما إذا كان يناط به القيام بعمل نافع ؟ إن حالة الاستجمام التى لا تزعجها المنبهات ، وهى الحالة التى يريد

---

(١) Obsessions

(٢) Delusions

أن يظفر بها النوم ، يأتيها القلق والتهديد من جوانب ثلاثة : من المنبهات الخارجية التى تعرض للنائم ، ومن الاهتمامات التى تشغل باله من اليوم السابق للحلم ولم يخفت صوتها بعد ، وأخيرا من النزعات المكبوتة غير المشبعة التى ترقب كل فرصة لتفصح عن نفسها — وهذه منبهات غير عارضة ولا محيد عنها إطلاقا . وبما أن القوى الكابتة يصيبها الوهن والفتور إبان النوم ، فإن الاستجمام الذى ينعم به النائم يكون فى خطر من أن يزول ويبطل كلما همت المقلقات الخارجية والداخلية أن تشتبك بأحد المصادر اللاشعورية للطاقة . بيد أن عملية إخراج الحلم تأذن لنتيجة هذا الاشتباك أن تجد لنفسها منصرفا عن طريق خبرة مهتلسة لا ضرر منها ، وبذا تكفل استمرار النوم . ولنذكر أن هذه الوظيفة لا تناقض ما نراه أحيانا من أن الحلم يوقظ النائم فى حالة من الحصر ، بل أنها على الأصح أمارة على أن الرقيب يعتبر الموقف أخطر مما ينبغى ، ولا يعود يرى نفسه قادرا على احتماله . والواقع أننا كثيرا ما نقول لأنفسنا ونحن لا نزال نيام : « إن الأمر لا يعدو أن يكون حلما » ، وفى هذا ما يحول بيننا وبين الاستيقاظ .

هذا كل ما أردت أن أقوله لكم عن تأويل الأحلام : فمهمته أن يرد الحلم الظاهر إلى أفكار الحلم الكامنة . ومتى تم هذا لم تعد للحلم أهمية من ناحية التحليل العملى . فالمحلل يصل بين ما يرويه المريض فى صورة حلم وبين ما يفضى به من أشياء أخرى ، ثم يمضى فى التحليل . على أننا نريد أن نقف برهة لندرس العملية التى تحول بها الأفكار الكامنة إلى حلم ظاهر ، وهى عملية « إخراج الحلم » . ولعلكم تذكرون أنى أوسعت القول فى هذه العملية فى محاضراتى السابقة ، فسأقتصر على تلخيص موجز لها فى حديث اليوم .

إن إخراج الحلم عملية غير مألوفة وعلى جانب كبير من الغرابة حتى إننا لا نعرف لها نظيرا من قبل . ولقد أتاحت لنا هذه العملية أن نلقى أول نظرة على الظواهر التى تجرى فى حياتنا النفسية اللاشعورية ، وبينت لنا أنها تختلف الاختلاف كله عما نعهده فى تفكيرنا الشعورى ، حتى إنها لا بد أن تبدو فى نظر هذا التفكير الشعورى خاطئة غير معقولة . وتزداد أهمية هذا الكشف ، متى قدرنا أن نفس « الحيل »[1] التى تحول الأفكار الكامنة إلى حلم ظاهر — ولقد سميناها « الحيل » ولا نكاد نجرؤ أن نسميها

---

(١) Mechanisms

« عملية فكرية » — هى بعينها ما يعمل على تكوين الأعراض العصبية .

وإليكم بيانا لا يسعنى إلا أن أوجز فيه : لنفرض أننا أولنا حلما تأويلا كاملا حتى ظفرنا بكل الأفكار الكامنة المستسرة فيه وراء الحلم الظاهر ، وقد اصطبغت بصبغة وجدانية على قدر كبير أو قليل من الشدة . عندئذ لا يفوتنا أن نلحظ أن موقف الحالم لا يكون سواء بإزاء هذه الأفكار جميعا — وهذه ملاحظة على جانب كبير من الأهمية — فهو يكاد يتعرفها جميعا أو يعترف بها فيسلم بأنها عرضت له أو بأنه فعل ما تتضمنه فى وقت ما . غير أنه قد يرفض واحدة منها فيقول إنها غريبة عنه ، أو يردها فى نفور واشمئزاز ، وربما أنكرها إنكارا باتا ، وفى هذا دليل على أن الأفكار الأخرى كانت جزءا من شعوره ، أو من أفكاره القبشعورية[1] على وجه أصح ، وأكبر الظن أنها عرضت له إبان يقظته ، وتكونت خلال النهار . أما تلك الفكرة المرفوضة — أو النزعة المرفوضة بعبارة أدق — فوليدة الليل ومما ينتمى إلى لا شعور الحالم ، ومن ثم فهو يردها وينكرها ، وقد تعين عليها أن تنتظر حتى يسترخى الكبت أثناء النوم كى تجد لنفسها منصرفا كيفما كان . ومهما يكن من أمر فالتعبير الذى تظفر به يكون على الدوام واهنا محرفا ومقنّعا بحيث لا يتسنى لنا أن نكشف عنها إطلاقا من دون تأويل الحلم . على أن هذه النزعة اللاشعورية لم يتح أن تفلت من عين الرقيب وتبدو فى صورة متنكرة متواضعة إلا بفضل ارتباطها بأفكار الحلم الأخرى التى تحوز الرضا والقبول . ومن جهة أخرى فالأفكار القبشعورية تستمد من هذا الارتباط أيضا ما لها من قوة تجعلها تحتل الحياة النفسية حتى خلال النوم . على أننا نستطيع فى الواقع أن نطمئن إلى أن النزعة اللاشعورية هى التى تخلق الحلم حقا ، فهى التى تتيح الطاقة النفسية اللازمة لتكوينه ، وليس فى وسعها أن تصنع شيئا أكثر من أن تلتمس سبيلا لإشباعها الخاص ، شأنها فى ذلك شأن كل نزعة غريزية . ولقد علمتنا الخبرة بتأويل الأحلام أن هذا هو مغزى ظاهرة الأحلام . ففى كل حلم من الأحلام تبدو رغبة غريزية كأنها تحققت للنائم بالفعل . وأن انسحاب الحياة النفسية للنائم من عالم الواقع ، وما يتيحه هذا الانسحاب من نكوص إلى « حيل » وأساليب بدائية يمكن للنائم أن يخبر هذا الإشباع الغريزى المنشود فى صورة وهمية مهتلسة كأنه وقع له فعلا . وبفضل عملية النكوص هذه ،

---

(١) Preconscious

تتحول الأفكار إلى صورة مرئية فى الحلم ، وبعبارة أخرى ، تجسم المعانى الكامنة وتشخص .

إن هذا الشطر من إخراج الحلم يلقى لنا الضوء على أظهر خصائص الأحلام وأكثرها روعة وإغرابا . فلنعد ما أسلفناه عن مراحل انصياغ الحلم : أما المدخل إلى الحلم فهو الرغبة فى النوم والانسحاب المتعمد من العالم الخارجى . ينجم عن هذا شيئان : أولهما أن تتاح الفرصة لأساليب النشاط القديمة البدائية أن تفصح عن نفسها ، وهذا هو النكوص . الأمر الثانى هو نقصان المقاومة الكابتة التى تثقل على اللاشعور . وهذه السمة الأخيرة تتيح فرصة لانصياغ الحلم تنتهزها العوامل التى تؤثر فى النائم وتعتمل فى نفسه ، وهى المنبهات الخارجية والداخلية . فالحلم الذى ينصاغ على هذا النحو تكوين نفسى ينشأ عن تراض وحل ودى ، وله وظيفة مزدوجة : فهو من جهة منسجم مع الأنا « متناغم معه » لأنه يخدم الرغبة فى النوم إذ يدرأ المنبهات التى من شأنها أن تقلقه ، كما أنه من جهة أخرى يسمح بإشباع نزعة مكبوتة يمكن أن تتحقق فى هذه الظروف بصورة وهمية مهتلسة . على أن عملية تكوين الحلم بأسرها — وهى عملية يجيزها أنا النائم — تحدث بإشراف الرقابة ، وهو إشراف يقوم به ما تبقى من القوى الكابتة . ليس فى وسعى أن أشرح هذه العملية بصورة أبسط من تلك ، وهى ليست فى ذاتها أبسط مما شرحت . بيد أنى أستطيع الآن أن أمضى فى وصف إخراج الحلم .

فلنعد مرة أخرى إلى الأفكار الكامنة للحلم : إن العنصر المتحكم فى هذه الأفكار هى النزعة المكبوتة التى تظفر بنوع من التعبير — وإن يكن تعبيرا متنكرا متلطفا — حين ترتبط بالمنبهات التى يتفق أن تكون موجودة ، وتلتحم ببقايا اليوم السابق . وهذه النزعة، شأنها شأن كل نزعة أخرى، تجهد فى إشباع نفسها عن طريق الحركة، لكنها تجد طريق التصريف الحركى مقفلا ، فهذه خاصة من الخصائص الفسيولوجية لحالة النوم . ومن ثم تكره على الارتداد إلى مستوى الإدراك الحسى ، وتقنع بإشباع وهمى . وبذا تتحول الأفكار الكامنة إلى مجموعة من صور حية ومناظر بصرية . وبينما تسير الأفكار فى هذا الاتجاه يعرض لها شىء يبدو لنا جديدا يبعث على الحيرة . ذلك أنها لا تجد الوسائل اللفظية المختلفة التى تستعمل عادة للتعبير عن العلاقات الدقيقة بين الأفكار : كحروف الجر والعطف وطرق تصريف الأسماء والأفعال ، فيكون مثلها كمثل اللغات البدائية غير المتصرفة . ومن ثم لا يمكن التعبير إلا عن المادة الخام للفكر ، كما ترد المعانى

المجردة إلى الذوات العيانية التى نشأت منها أصلا . وعلى هذا فإن ما يبقى من هذه الأفكار لا بد أن يبدو متناقضا غير ملتئم ، لأنه ينتج عن نكوص الجهاز النفسى إلى عهود ماضية مندرسة بقدر ما ينجم عن فعل الرقابة ومتطلباتها ، وهذا من شأنه أن تصور أشياء كثيرة وعمليات معينة برموز أصبحت تبدو غريبة فى نظر تفكيرنا الشعورى . بيد أن العناصر التى تحتضن الأفكار الكامنة للحلم تصيبها تغييرات أخرى ذات أهمية أكبر وأبعد مدى من تحريفها عن طريق الرموز . من تلك أن يركز بعضها ويكثف فى وحدات جديدة . فحين تترجم الأفكار إلى صور يفضل من العناصر ما تسمح أشكالها بهذا النوع من التداخل أو التكثيف ، فكأن هناك قوة تعمل على ضغط هذه المواد ولحم بعضها ببعض . ومن نتائج التكثيف أن يناظر العنصر الواحد فى الحلم الظاهر عدة عناصر فى الأفكار الكامنة ، غير أن الأمر قد يكون على عكس هذا إذ يصور العنصر الواحد فى الأفكار الكامنة بعدة صور فى نص الحلم .

والنقل(١) أو « تحول مركز الاهتمام » حيلة أخرى تستوقف النظر أكثر من حيلة « التكثيف » ، وهو أسلوب من الأساليب المستعملة فى صوغ النكات ، كما أنه يبدو من قبيل الخطأ الذى نقع فيه إذا هو ظهر فى تفكيرنا الشعورى . وتفصيل ذلك أن الأفكار الفردية التى تؤلف من مجموعها الأفكار الكامنة للحلم ليست جميعها على درجة واحدة من الأهمية ، كما أنها لا تكون مصطبغة بصبغة وجدانية متساوية ، ومن ثم تتفاوت أهميتها وقيمتها فى نظرنا . لكن عملية « إخراج الحلم » تفصل هذه الأفكار عن الوجدانات المصاحبة لها ، وتتناول هذه الوجدانات وحدها فتنقلها إلى شىء آخر ، أو تبقيها حيث كانت ، وقد تبدلها غير ما كانت عليه ، أو تخفيها من الحلم قاطبة . على أن أهمية الأفكار التى انسلخت عنها وجداناتها تنعكس فى الحلم فتبدو على شكل صور حسية ناصعة فى محتواه الظاهر ، لكننا نلحظ أن مركز الاهتمام الذى يجب أن يستقر على عناصر هامة قد تحول إلى عناصر غير هامة ، بحيث إن ما يبدو أهم عنصر فى الحلم الظاهر لا تكون له إلا أهمية ثانوية طفيفة فى أفكار الحلم ، والأمر بالعكس فقد لا يصور العنصر الهام فى الأفكار الكامنة إلا بصورة عارضة غير متميزة فى الحلم الظاهر . والحق أن ليس فى « إخراج الحلم » عامل آخر يقوم بمثل ما يقوم به هذا العامل

(١) Displacement

فى مسخ الحلم وجعله غريبا فى عين الحالم . فالنقل هو الوسيلة الرئيسية التى تصطبغها عملية تحريف الحلم حين تتناول الأفكار الكامنة فتشوهها بتأثير الرقابة وإشرافها .

فإذا ما تم تأثير هذه « الحيل » فى الأفكار الكامنة ، أوشك انصياغ الحلم أن ينتهى . على أن هناك عاملا آخر يظهر بعد أن يقتحم الحلم منطقة الشعور ويصبح موضوعا لإدراك الحالم ـــ هذا هو ما يسمى « باللأم »(١) ، وهو عامل لا يبدو أثره فى كل الحالات . وتتلخص وظيفته فى أن يتناول الحلم حين يلج الشعور فيسويه بنفس الطريقة التى نسوى بها أى موضوع إدراكى على وجه التحديد . أى أنه يعمل على أن يسد ما به من ثغرات ، وعلى أن يضيف إليه بعض الروابط ، وكثيرا ما يكون هذا مدعاة لخداعنا وتضليلنا . غير أن هذه الحيلة التى تعمل على أن تجعل من الحلم شيئا متماسكا معقولا ، فتمهد واجهته وتسويها بحيث لا يعود يضاهى محتواه الحقيقى ، قد لا توجد البتة فى بعض الحالات ، أو لا يبدو أثرها إلا بصورة طفيفة جدا حتى ليبدو الحلم بكل ما فيه من فجوات ومتناقضات . ومن جهة أخرى لا يعزب عن بالنا أن إخراج الحلم لا يكون أثره سواء فى قوته على الدوام ، فغالبا ما يقصر نشاطه على أجزاء معينة من أفكار الحلم ، فتبدو الأفكار الأخرى فى الحلم الظاهر على ما هى عليه من دون تغيير ، وهنا يلوح لنا أن الحالم قد قام أثناء نومه بعمليات عقلية دقيقة معقدة أو بتأملات رائعة ودعابات بديعة ، أو أنه توصل فى نومه إلى حل بعض المشاكل أو البت فى بعض الأمور ، فى حين أن هذا كله لا يعدو فى الواقع أن يكون نتيجة لنشاطنا النفسى العادى ، وكان من الممكن أن يحدث فى اليوم السابق لحلم الحالم كما حدث أثناء نومه ، ومن ثم فهو لا يتصل بإخراج الحلم ، ولا يعبر عن أية خاصة من خصائص الأحلام ، وربما لا يكون من نافلة القول أن نؤكد فى هذا المقام مرة أخرى فرق ما بين النزعة اللاشعورية وبقايا اليوم السابق : فهذه البقايا تبدو فيها كل أنواع نشاطنا النفسى ، على حين أن النزعة اللاشعورية ، التى هى المحرك الحقيقى للحلم ، تجد لنفسها على الدوام منصرفا فى صورة رغبة تتحقق .

لقد كان فى وسعى أن أقول لكم هذا كله منذ خمسة عشر عاما . والحق إنى فعلت . فلنحاول الآن أن نجمع بين ما ظفرنا به من كشوف وتحويرات خلال هذه الفترة .

---

(١) Secondary elaboration

أسلفت لكم أنى أخشى ألا تجدوا من الجديد فيما أقول إلا نزرا يسيرا ، فتعجبوا إذا أضطركم إلى سماع شيء بعينه مرتين ، وإذ أضطر نفسى إلى إعادة ما قدمت . غير أن خمسة عشر عاما قد انقضت ، ورجوت ألا أجد عسرا فى الاتصال بكم مرة أخرى على هذا النحو . والحق أن هذه موضوعات أساسية وذات أهمية حاسمة لفهم التحليل النفسى ، فمن الخير أن نستمع إليها مرة ثانية . ثم إن بقاءها على ما هى عليه بعد مرور خمسة عشر عاما ، حقيقة أخرى جديرة أن نعرفها .

ستجدون بطبيعة الحال فيما نشرناه خلال هذه الأعوام قدرا كبيرا من مواد تؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه ، واستعراضا لكثير من التفاصيل ، لكنى سأقتصر على تقديم أمثلة من ذلك فحسب . كذلك أستطيع أن أضيف إلى هذا قدرا معينا مما كان معروفا من قبل ، وأغلب ما فيه يتصل بالرموز وطرق التصوير الأخرى فى الأحلام . لقد رفض الأطباء فى جامعة أمريكية ، منذ عهد قريب جدا ، أن يعترفوا بأن التحليل النفسى علم كغيره من العلوم ، بحجة أنه لا يسمح بالبرهان التجريبى . أترونهم يعترضون بمثل هذا على علم الفلك ، وهو علم لا يركن فيه إلا على الملاحظة وحدها ، لأن التجريب فى الأجرام السماوية جد عسير ! . ومع هذا فقد بدأ بعض الباحثين فى فيينا بإقامة الدليل التجريبى تأييدا لنظريتنا عن الرمزية فى الأحلام . فقد كشف الدكتور شروتر Schroïter منذ عام ١٩١٢ أننا إذا أمرنا شخصا فى حالة نوم مغناطيسى عميق أن يرى فى نومه بعض أوجه النشاط الجنسى ، بدت له المواد الجنسية فى الحلم المستشار على هذا النحو وقد صورت بالرموز المعهودة لنا . من هذا أن طلب إلى امرأة بأن ترى فى نومها أنها تضاجع سيدة من صديقاتها ، فبدت صديقتها فى الحلم تحمل حقيبة من حقائب السفر ، لصقت عليها بطاقة مكتوب عليها « للسيدات فقط »[١] . وأروع من تلك ، التجارب التى أجراها بتلهايم Betlheim وهارتمان Hartmann (عام ١٩٢٤) على مرضى يعانون ما يسمى بمرض كورساكوف[٢] . فقد كانا يقصان على المريض

---

(١) Ladies only

(٢) مرض عقلى قد ينجم عن إدمان الخمر أو التسمم المعدنى أو التلوث الميكروبى . وأظهر أعراضه الجسمية التهاب شامل فى الأعصاب . كما يتميز من الناحية النفسية باضطرابات خاصة فى الانتباه والتذكر والإسراف فى الحديث إلى درجة الهرف . (المترجم)

قصصا ذات مضمون جنسى غير مهذب ، ثم يطلبان إليه أن يعيد ما سمع ، ويسجلان ما يبدو فى روايته من تحريف . فظهر من ذلك أن هذه الروايات تزخر بكثير من الرموز المألوفة لنا عن الأعضاء الجنسية والعملية الجنسية ، ومن بينها رمز السلم[1] . وقد لاحظ هذان الباحثان بحق أن العملية التى يرمز إليها لا يمكن أن تحرف عن قصد شعورى على هذا النحو .

كذلك أجرى سلبرر Silberer سلسلة من التجارب على جانب كبير من الطرافة بين بها أننا نستطيع أن نفاجئ عملية إخراج الحلم وهى فى حالة تلبس ، إن صح التعبير ، فنرى كيف تترجم الأفكار المجردة إلى صور بصرية . فقد كان يقسر نفسه وهو فى حالة تعب شديد ونعاس على أن يقوم بعمل فكرى ، فوجد أن الأفكار تفلت منه فتحل محلها صور بصرية ، غالبا ما تكون بديلا عنها .

وإليكم مثالا بسيطا لهذا : فقد أعمل هذا الباحث فكرة فى صقل فقرة غير ممهدة فى مقال ، فكانت الصورة البصرية التى تمثلت له أنه يصقل قطعة من الخشب . وغالبا ما كان يحدث فى هذه التجارب ألا ينوب مضمون الصورة البصرية عن الفكرة التى يقلبها فى ذهنه بل عن حالته النفسية أثناء بذله المجهود الفكرى — أى أن الحالة الذاتية لا المحتوى الموضوعى للتفكير هى التى تخلق الصورة البصرية . وهذا ما يسميه سلبرر « بالظاهرة الوظيفية » . وإليكم مثالا يبين ما يقصد بهذا . فقد كان يحاول أن يقارن بين آراء فيلسوفية عن مشكلة معينة ، وكان أحد هذه الآراء يفر منه أبدا وهو فى حالة النعاس ، فرأى آخر الأمر أنه يطلب بعض المعلومات من سكرتير عابس قد ارتمى على مكتبه لا يعيره فى أول الأمر اهتماما ، ثم ينظر إليه بعد ذلك شزرا كأنه يريد منه أن يخلى سبيله ، وأكبر الظن أن ظروف التجربة نفسها هى التى تجعل الصور البصرية المستثارة على هذا النحو تمثل الحالات الذاتية الباطنية فى أغلب الأحوال .

ولنمض قليلا فى دراسة الرموز . لقد حسبنا أننا نفهم بعضها ، وإن كنا لم نستطع أن نبين كيف اتفق للرموز المختلفة أن تنوب عن الأشياء المعينة التى ترمز إليها . وفى أمثال هذه الحالات كنا نرحب ، على التخصيص ، بكل تأييد نظفر به من فقه اللغة والأدب الشعبى وأساطير الأولين ، وقد كان النساء . ولعلكم تدهشون إذ تستمعون الآن إلى

---

(١) السلم عند أصحاب التحليل النفسى رمز إلى الاتصال الجنسى (المترجم)

رايك Reik وهو يقول « المعطف » مثالا من تلك الرموز ، فذهبنا إلى أنه يرمز إلى الرجل فى أحلام (فى عام ١٩٢٠) : « جرت العادة فى حفلات الزواج القديمة عند البدو أن يستر العريس عروسه بمعطف خاص يسمونه « العباءة » aba ، ويقول فى الوقت نفسه عبارة تقليدية : (لا تدعى رجلا غيرى يسترك فى المستقبل) » (من كتاب الجو وقبة السماء لروبرت إيزلر)[1] . كذلك كشفنا عن عدد كبير من رموز جديدة سأضرب لكم مثالين منها . فقد ذهب إبراهام Abraham (عام ١٩٢٢) إلى أن العنكبوت يرمز فى الحلم إلى الأم ، غير أنه يعنى فى هذه الحال « الأم ذات القضيب »[2] التى يخافها الفرد ، ومن ثم كان الخوف من العنكبوت تعبيرا عن الفزع من مضاجعة الأم ، وعن الرعب الذى يشعر به الفرد إزاء الأعضاء التناسلية للمرأة . وربما تعلمون أن التصوير الأسطورى « لرأس المدوسة » Madusa's head ، يمكن رجعة إلى نفس الدافع ، وهو الخوف من الخصاء . أما الرمز الثانى الذى أريد أن أتكلم عنه فهو رمز « الجسر » . وقد فسره فرنزى Ferenezi (عام ١٩٢١ — ١٩٢٢) . فهو ينوب أصلا عن القضيب الذى يصل بين الوالدين فى الفعل الجنسى ، ثم تفرعت عليه معانى عدة اشتقت من معناه الأول . فبما أن القضيب هو السبب فى خروج الإنسان من مياه الولادة إلى العالم الخارجى ، فإن الجسر يصور عبوره من الرحم إلى الحياة الخارجية ، وبما أن الإنسانية تتصور الموت كأنه عودة إلى رحم الأم (أى إلى الماء) ، فلا غرو أن يكون لرمز الجسر معنى الشىء الذى يحدث الموت . وأخيرا قد يشير الجسر إلى الانتقال وتغير الأحوال أيا كان هذا التغير ، وهو معنى يبتعد عن معناه الأصلى فى كثير : وهذا هو السبب فى أن المرأة التى لم تظهر بعد على رغبتها فى أن تكون رجلا ، كثيرا ما ترى فى أحلامها جسورا تكون أقصر مما يلزم لنقلها إلى الشاطئ الآخر .

وفى الغالب الكثير من الأحيان تبدو فى المحتوى الظاهر للحلم صور ومواقف تذكرنا بالموضوعات المعروفة فى القصص الخرافية وأساطير الأولين . وإن تأويل مثل هذه الأحلام يلقى لنا الضوء على الدوافع الأصلية التى أفضت إلى خلق هذه الموضوعات ،ولو أننا يجب ألا ننسى ، بطبيعة الحال ، ما لحق بهذه القصص

---

(١) Robert Eisler : Weltenmantel und Himmelsgelt.

(٢) Pollic mother : يعتقد الطفل الصغير أن للأم قضيبا كقضيب الذكر

والأساطير من تغيير فى معناها على مر الزمن . فالتأويل يميط اللثام عما يمكن أن نسميه « المادة الخام » لهذه الموضوعات ، وهى مادة يمكن اعتبارها غالبا « جنسية » بأوسع معنى لهذه الكلمة ، وإن كان قد اختلف استعمالها وتطبيقها بما لاقت من تعديلات فيما بعد . ونحن حين نرد الأشياء إلى أصولها على هذا النحو ، لا نسلم غالبا من غضب جميع الباحثين الذين لا يشاركون التحليل النفسى آراءه ، كأننا نحاول أن ننكر أو أن نغض من شأن التطورات اللاحقة التى مرت بهذه المادة الخام . على أن أمثال هذه النظرة إلى الأمور من شأنها أن تزيدنا بها علما ، هذا إلى ما هى عليه من أهمية وطرافة . كذلك الحال عندما نستقصى الدوافع المختلفة فى الفنون اللدنة[١] ونتأثرها إلى أصولها ، كما حدث لايزلر Eisler (عام ١٩١٩) حين استرشد بأحلام إحدى مرضاه فى التأويل التحليلى للشاب الذى يلعب مع الولد الصغير فى تمثال هرمز Hermes[٢] الذى صنعه النحات اليونانى القديم براكسيتلس Praxiteles ، وأخيرا لا يسعنى إلا أن أشير إلى ذلك طريق تأويل الأحلام . فقد وجد مثلا أن قصة « المتاهة »[٣] Labyrinthe القدر الضخم من الحالات التى نجد فيها تفسيرا للموضوعات الأسطورية عن تمثل الولادة من الشرج : فالطرق الملتوية تصور الأمعاء فى حين أن خيط آريان يرمز إلى الحبل السرى .

إن طرق التصوير التى يتبعها إخراج الحلم — وهذا موضوع أخاذ لا يكاد ينضب معينه — يطرد وضوحها كلما درسناها عن قرب ومحصناها . وسأقدم لكم بضعة أدلة على ذلك . ففكرة « التكرار » مثلا يعبر عنها فى الأحلام بتصور أشياء متشابهة . وإليكم حلما لفتاة يستوقف النظر : لقد رأت أنها تلج بهوا فتجد فيه شخصا يجلس على كرسى ، وقد تكررت رؤيتها لهذا الشخص ست مرات أو ثمان أو أكثر من ذلك ، وكانت صورته فى كل مرة صورة أبيها . لا يشق علينا فهم هذا الحلم متى عرفنا من

---

(١) Plastic arts كالنحت والتصوير .

(٢) رسول آلهة الإغريق ونذيرهم ، وحامى الرعاة والفنون واللصوص (المترجم)

(٣) فى أساطير الإغريق أن أحد المهندسين بنى متاهة بجزيرة كريت ليعتقل فيها حيوان متوحش برأس ثور وجسم بشر ، وقد أدخل فى المتاهة أحد أبطال الإغريق فحارب الوحش وقتله ، لكنه لم يستطع الخروج حتى ألقت إليه « آريان » ابنة ملك كريت بخيط هداه إلى أن يخرج من محبسه. (المترجم)

بعض التفاصيل الثانوية التى انعثت أثناء تأويله أن البهو يشير إلى الرحم (رحم الأم) . فهو حلم يعبر عن التخييل المألوف لدى الفتاة الصغيرة إذ تعتقد أنها التقت بأبيها إبان وجودها فى الرحم ، حين كان يزور رحم الأم . على أن عنصرا فى الحلم قد التوى وانقلب وضعه ، وهو أن عملية الولوج تقوم بها الفتاة نفسها بدلا من الأب ، لكنها ظاهرة ليس من شأنها أن تضلنا ، إذ لها فى الحق معنى خاصا فى ذاتها ، أما تعدد صورة الأب فلا يعدو أن يعنى أن العملية المشار إليها كانت تتكرر كثيرا . والواقع أن الحلم لا يعد مسرفا فى التجوز حين يعبر عن التكرار بتعدد بضعة أشياء وتراكمها . فهو لا يزيد على أن يخلع على الكلمة مدلولها البدائى الأصيل : فكلمة التكرار تعنى اليوم التواتر الزمنى على حين أنها كانت تفيد فى الماضى معنى التراكم المكانى . وهكذا تقوم عملية إخراج الحلم دائما بقلب العلاقات الزمانية إلى علاقات مكانية . فقد يرى الفرد فى نومه منظرا لأناس يبدون صغارا غاية فى الصغر وعلى مسافة بعيدة منه كما لو كان يراهم بمنظار مقرب مقلوب . هنا يقصد بكل من صغر الحجم والبعد المكانى معنى واحد هو البعد الزمانى ، فيكون التأويل أن المنظر المشار إليه يرجع إلى ماض بعيد . وفضلا عن ذلك فلعلكم تذكرون أنى بينت لكم بالأمثلة فى محاضراتى السابقة أننا نعرف كيف نستغل حتى الخصائص الشكلية المحضة للحلم الظاهر من أجل تأويله ، أى أننا نعرف كيف نردها إلى مضمون الأفكار الكامنة للحلم . وتعرفون الآن أن كل الأحلام التى ترى فى ليلة واحدة تنتمى إلى موضوع بعينه ، فلأمر ما تبدو هذه الأحلام للنائم على وتيرة متصلة ، أو تبدو له أجزاء منفصلة كثيرة يتفاوت عددها ! أما عدد هذه الأجزاء فغالبا ما يعادل عدد النقط المركزية المتميزة فى مجرى الأفكار التى تتألف منها الأفكار الكامنة سواء بسواء ، أو قد يناظر عدد القوى التى تتصارع فى الحياة لنفسية النائم . فكل قوة من تلك تجد تعبيرها الرئيسى (إن لم يكن الوحيد) فى جزء معين من الحلم . والحلم التمهيدى القصير غالبا ما تكون علاقته بالحلم الرئيسى الطويل علاقة الشرط بالنتيجة ، وقد ضربت لذلك مثالا واضحا فى محاضراتى السابقة . أما الحلم الذى يصفه الحالم بأنه قد « أقحم بصورة ما » فى النص الأصلى ، فيناظر بالفعل فقرة مستقلة فى أفكار الحلم . وقد بين فرانز الكسندر فى مقال له عن « أزواج الأحلام » أن الحلمين اللذين يريان فى ليلة واحدة ، غالبا ما يقومان بدورين مستقلين فى أداء وظيفة الحلم ، بحيث أننا لو نظرنا إليهما معا كانا تحقيقا لرغبة ما فى خطوتين ، وهذا شىء

لا يستطيع أن يقوم به أى واحد منهما بمفرده . فإذا كان مضمون رغبة الحلم سلوكا محظورا إزاء شخص معين ، فقد يبدو هذا الشخص فى الحلم الأول بصورة غير مقنَّعة ، على حين لا يشار إلى السلوك إلا إشارة شاحبة . ثم ينقلب الوضع فى الحلم الثانى ، فيبدو السلوك سافرا صريحا ، بينما يبدو الشخص فى صورة ناحلة لا تكاد تبين ، أو يستبدل به شخص آخر لا دخل له فى الأمر . وفى هذا ما يشعرنا أننا بصدد حيلة تنم عن دهاء متعمد ومكر مقصود . على أن هناك علاقة أخرى بين حدى الحلم المزدوج شبيهة بالعلاقة السابقة ، تلك أن يمثل أحد الحدين عقابا فى حين يمثل الآخر تحقيقا للرغبة الآثمة . فكأن النائم يقول لنفسه : « إذا أنا تقبلت العقاب ، جاز لى أن أقوم بالفعل المحظور » .

ليس لى أن أقف بكم أكثر من هذا عند أمثال هذه الكشوف التى تتصل بالتفاصيل ، أو عند مناقشات تتعلق باستخدام تأويل الأحلام فى إجراءات التحليل . فأنا على يقين أنكم تتلهفون إلى معرفة التغييرات التى طرأت على تصورنا الأساسى لطبيعة الأحلام ومعناها . غير أن ماجد على تصورنا هذا من تغيير لا يتجاوز النزر اليسير . فأما الناحية التى كانت أكثر مثارا للجدل من غيرها فى نظرية الأحلام جميعا ، فهى من دون شك ما ذهبنا إليه من أن الأحلام جميعها تحقيق لرغبات . وقد سبق لى فى المحاضرات السابقة أن وفيت الإجابة ، فيما أظن ، عما يعترض به غير المختصين فى غير لين أو هوادة من أن هناك أحلاما كثيرة يكتنفها الحصر والقلق الشديد . غير أننا احتفظنا بنظريتنا دون أن نمسها بتغيير إذ قسمنا الأحلام أقساما ثلاثة : أحلام الرغبة وأحلام الحصر وأحلام العقاب .

أقول إن أحلام العقاب نفسها تحقيق لرغبات ، غير أنها لا تحقق رغبات الدوافع الغريزية ، بل رغبات القوى الناقدة الراصدة الزاجرة فى النفس . فلو التقينا بحلم عقابى محض ، لاستطعنا بفضل إجراء نفسى بسيط أن نكشف عن حلم الرغبة الذى كان الحلم العقابى رد الفعل الملائم له ، ولرأينا أن الرغبة المستنكرة المرفوضة هى السبب فى أن يحل الحلم العقابى محل حلم الرغبة ، فيصبح الحلم الظاهر . تعرفون أن دراسة الأحلام كانت أول شىء أعاننا على فهم الأمراض النفسية ، فلا غرو إذن أن أثرت معرفتنا التالية بالأمراض النفسية فى رأينا عن الأحلام . وسترون عما قليل أننا اضطررنا إلى أن نفترض

وجود وظيفة نفسية ناقدة خاطرة سميناها « الأنا الأعلى »[١] . وبما أننا نعرف الآن أن الرقابة فى الأحلام من فعل هذه الوظيفة ، فقد أسلم بنا هذا إلى أن ننظر بشىء من التفصيل فى الدور الذى يقوم به الأنا الأعلى فى تحريف الأحلام .

على أن هناك صعوبتين عويصتين تعترضان نظرية تحقيق الرغبات ، وقد ينأى بنا فحصهما كل النأى عما نحن فيه ، هذا إلى أننا لم نجد لهما إلى الآن حلا يبعث على تمام الرضا . الصعوبة الأولى أن الأشخاص الذين عانوا صدمات نفسية عنيفة (كتلك التى تكثر أثناء الحروب ، أو تلك التى توجد فى أصل الهستريا الصدمية) يكررون فى أحلامهم أبدا الموقف الذى بدهتهم فيه الصدمة . وهذا لا يتمشى مع ما سلمنا به من وظيفة الأحلام . إذ أية نزعة تلك التى يمكن أن تجد لنفسها إشباعا فى إعادة الموقف الأصلى للصدمة وهو موقف جد أليم ؟ الحق أنه ليس من العسير أن نحدس مثل هذه النزعة . أما الصعوبة الثانية فنلتقى بها كل يوم فى التحليل ، وهى لا تتضمن اعتراضا خطيرا كالذى تنطوى عليه الأولى . تعرفون أن أحد إجراءات التحليل يتلخص فى إماطة اللثام عن الغشاوة التى تحجب السنوات الأولى من الطفولة ، وفى استرجاع مظاهر الحياة الجنسية الطفلية المخبوءة وراءها حتى تصبح شعورية . لكن هذه الخبرات الجنسية الأولى ترتبط فى نفس الطفل بانطباعات أليمة قوامها الحصر والحظر والعقاب وخلف الظن . ولا يشق علينا أن نفهم السبب فى كبتها ، لكنه من العسير أن نرى لمَ تجد السبيل سهلا ميسرا إلى الحلم ، ولمَ تصاغ كثير من تخييلات الأحلام على غرارها ، ولمَ تزخر الأحلام بصور معادة لهذه المناظر الطفلية وبتلميحات لها . ألا يتنافى الألم المقترن بها مع النزعة إلى تحقيق رغبة فى الحلم ؟ غير أننا ربما كنا غالين فى تقدير هذه الصعوبة . فجميع الرغبات التى لا تظفر بإشباع ولا تمتد إليها يد الفناء ، وهى الرغبات التى تزود الأحلام بالطاقة اللازمة لانصياغها طيلة حياة الفرد بأسرها ، موثقة بهذه الخبرات الطفلية نفسها ، ولنا أن نطمئن إلى قدرتها — وهى تلح وتجهد فى الظهور — على أن تقسر حتى المواد الأليمة على أن تطفو على السطح . ومن جهة أخرى فالجهود التى يبذلها إخراج الحلم وهو تبدو من الكيفية التى تسترجع بها هذه الخبرات جهود لا يمكن أن يخطئها التقدير فهو ينبذ الألم ويبرأ منه من طريق التحريف ، كما يحيل الأمل

---

(١) Super-ego

المخفق إلى أمل يتحقق . أما فى « أعصبة الصدمات »[1] فالأمر يختلف عن هذا كل الاختلاف ، إذ ينتهى الحلم فى هذه الحال عادة بالحصر .. وعندى أنه لا ينبغى لنا أن نتنصل من الاعتراف بأن الحلم تخفق وظيفته فى مثل هذه الأحوال . ولن ألجأ إلى القول بأن الاستثناء يبرهن على القاعدة ، فهو قول يبدو لى مريبا إلى حد بعيد . لكن الاستثناء لا ينفى القاعدة ، ما فى ذلك شك . ولئن اضطرنا البحث إلى أن نتناول عملية نفسية فنفصل منها وجها منفردا من أوجه النشاط النفسى كالحلم ، تسنى لنا أن نكشف عن القوانين التى تحكمه وتشرف عليه ، فإن رددناه عندئذ إلى مكانه الأصلى فلا بد أن نكون على استعداد لأن نجد أن ما كشفناه قد أصابه الغموض ودوخل فى أمره حين يصطدم بقوى أخرى . نحن نؤكد أن الحلم تحقيق رغبة . وقد تقولون إنه محاولة لتحقيق رغبة كى تعملوا لهذه الاعتراضات الأخيرة حسابا . غير أن من يعرفون ديناميكية النفس الإنسانية لا يرون فى قولكم هذا شيئا يختلف عما نقول . فالحلم ، فى ظروف خاصة ، لا يستطيع أن يؤدى غرضه إلا بصورة منقوصة جدا ، أو يتعين عليه أن يذر هذا الغرض أصلا ، ويبدو أن التثبيت اللاشعورى على الصدمة يقوم على رأس العقبات التى تعترض وظيفة الحلم . ولنذكر أن النائم لا بد له أن يحلم لأن استرخاء الكبت أثناء النوم يتيح لنزوع التثبيت الصدمى واندفاعه إلى أعلى أن يصبح نشطا فعالا ، غير أنه يحدث أحيانا أن يخفق إخراج الحلم فى مسعاه ، وهو الذى يعمل على تحويل ذكريات الصدمة إلى تحقيق رغبة . وتكون النتيجة فى هذه الحال أن يأرق الفرد ويعرض عن النوم بتاتا لأنه يخشى من إخفاق وظيفة الحلم . وأن عصاب الصدمات حالة متطرفة من هذه الحالات ، بيد أنه يتعين علينا أن نعترف بأن لخبرات الطفولة أثر الصدمات أيضا : وألا ندهش إن اضطربت وظيفة الحلم بدرجة أقل فى ظروف أخرى .

---

(١) Traumatic Nervoses

المحاضرة الثلاثون

« الأحلام والظواهر الغيبية »

سيداتي وسادتي : سنجتاز اليوم طريقا ضيقا لكنه قد يسلم بنا إلى آفاق واسعة .

ولا ينبغي لكم أن تعجبوا إن سمعتم إني سأحدثكم عن الصلة بين الأحلام والظواهر الغيبية . فالحق أن الناس كثيرا ما ترى فى الأحلام مدخلا إلى العالم الخفى ، بل إنها لتبدو فى ذاتها لكثير من الناس ، حتى إلى يومنا هذا ، ظاهرة غيبية . وحتى نحن الذين جعلنا من الأحلام موضوع دراسة علمية ، لا يسعنا أن ننكر أنها تتصل بهذه الآفاق الغامضة بعدة صلات . لكن ماذا نعنى بالعالم الخفى ، عالم الغيب ؟ لا تحسبوا أنى سأحاول أن أعرفكم بهذين المعنيين تعريفا واضحا . فنحن نعرف جميعا ما نعنى بهذين الاصطلاحين إجمالا وعلى نحو غامض . فهما يشيران إلى « عالم آخر » يقوم وراء عالمنا الواضح ذى القوانين الصارمة التى صاغها لنا العلم .

يؤكد المذهب الغيبى أن السماء والأرض تحتويان فى الواقع على أشياء أكثر بكثير مما يحلم به فلاسفتنا . حسنا ، ولا ينبغى لنا أن نتقيد بالنظرة الضيقة التى تنظر بها مدارسنا وجامعاتنا إلى الأمور ، بل نحن على استعداد لأن نعتقد فى كل ما يبدو لنا مقبولا يسيغه العقل .

إن ما نهدف إليه هو أن نتناول هذه الأمور بنفس الطريقة التى نتناول بها أية مادة أخرى ابتغاء فحصها العلمى . ومن ثم يتعين علينا أولا أن نتثبت مما إذا كانت هذه الظواهر تحدث حقا . وعندئذ ، نقول وعندئذ فقط ، نشرع فى تفسيرها متى أصبحنا على يقين من حدوثها فعلا . لكنا لا نستطيع أن نخفى عن أنفسنا أنه سيشق علينا بحث هذا الموضوع حتى فى خطوته الأولى لما يكتنفه من عوامل فكرية ونفسية وتاريخية . وهذا شىء لا نلتقى به ، على التحقيق ، حين نشرع فى أى بحث آخر .

ولننظر بادئ ذى بدء فى الصعوبات الفكرية ، فاسمحوا لى أن أشرح لكم ما أعنى بصورة واضحة وإن تكن ساذجة غليظة . لنفرض أننا نحاول أن نبحث فى تكوين باطن

الكرة الأرضية ، وهو موضوع ليست لنا به الآن معرفة يقينية . فنحن نفترض أنه يحتوى على معادن ثقيلة منصهرة . ولنتصور أن جاءنا أحد يؤكد أن جوف الأرض يتكون من ماء مشبع بحامض الكربونيك أى من ماء الصودا . هنا لا يسعنا من دون شك إلا أن نعرض عن تصديق هذا الفرض إعراضا باتا ، لأنه يتعارض مع كل ما نتوقعه ، ولأنه لا يعمل حسابا للمقدمات العلمية التى أسلمت بنا إلى الفرض الخاص بالمعادن . لكنه مع هذا كله ليس فرضا مستحيل التصور . فإن بين لنا أحد طريقة للبرهان عليه ، لم نتردد فى الأخذ به . لكن إن جاءنا أحد آخر يؤكد جادا أن مركز الأرض معمول من المربى ، اختلف موقفنا منه اختلافا كبيرا عنه فى الحالة السابقة . ذلك أننا نقول لأنفسنا فى هذه الحال أن المربّى ليس من منتجات الطبيعة بل من صنع الإنسان وطهيه ، ثم إن وجود المربى يقتضى وجود أشجار مثمرة وفاكهة ، فأنى تكون هذه الأشجار وطهى الإنسان من جوف الأرض ؟ ونتيجة هذا الاعتراض الفكرى أن يحيد اهتمامنا من البحث نفسه — أى فيم إذا كان باطن الأرض يتكون حقا من مربّى أو من غيره — فيتجه إلى الرجل نفسه ، نعجب من ولوج هذه الفكرة فى ذهنه أو نسأله ، على الأكثر ، من أين أتى بهذه الفكرة ، هنا يحنق الرجل حنقا شديدا ، ويشكو من أننا نرفض تقويم نظريته تقويما موضوعيا من جراء ما يسميه « بالانحياز العلمى » . لكن شكواه شكوى عابثة لن يكون لها أثر . والحق أننا نشعر أن الانحيازات (الأحكام السابقة) ليست على الدوام مما يتأس به ويؤسف له ، بل يكون لها فى بعض الآونة ما يبررها ، هذا إلى أنها لا تخلو من فائدة فهى توفر علينا عناء لا ضرورة له . والواقع أنها لا تعدو أن تكون نتائج يستخلصها الإنسان لأنها تشبه أحكاما أخرى محققة ذات أساس رصين .

إن عددا كبيرا من النظريات الغيبية تقع من نفوسنا وقع نظرية « المربّى » ، فنشعر أننا فى حل من أن نذرها رأسا دون أن نحاول إثباتها بالاختبار . لكن الأمر ليس من البساطة كما يبدو . فالتشبيه الذى ذكرت — كغيره من التشبيهات — لا يبرهن على شىء . ومهما يكن من أمر فثمة مجال للشك فى أنه تشبيه منصف ، ومن الجلى أن ما حدا بنا إلى اختياره كان ، فى المقام الأول ، موقف الرفض الساخر الذى اتخذناه . ثم إن الأحكام السابقة وإن كانت نافعة ولها ما يبررها فى أغلب الأحيان ، إلا أنها تكون فى بعض الآونة خاطئة ضارة ، وليس فى وسعنا إطلاقا ، أن نعرف متى تكون نافعة ومتى

تكون ضارة ، وفى تاريخ العلوم شواهد عدة من شأنها أن تجعلنا على حذر من التعجل بإدانة هذه الأحكام . فقد ظلت الإنسانية ردحا طويلا من الزمن ترى من السخف أن يقال إن الحجارة التى نسميها اليوم بالشهب تصل إلى الأرض من الفضاء الخارجى ، أو أن الجبال التى تحتوى صخورها على بقايا أصداف كانت من قبل فى قيعان البحار ، بل إن التحليل النفسى ذاته لم يختلف حظه عن ذلك اختلافا كبيرا يوم خرج على الناس بكشفه اللاشعور . لذا فلدينا ، نحن أصحاب التحليل ، ما يحملنا على أن نتحرز من اصطناع الحجج العقلية لدحض النظريات الجديدة . ولا معدى لنا عن أن نعترف بأن أمثال هذه الحجج لا تمكننا من الظهور على ما يشعر به الناس من نفور وتشكك وارتياب .

أما العامل الثانى — وهو العامل النفسى — فأعنى به النزعة الإنسانية العامة إلى سرعة التصديق والاعتقاد فى المعجزات والأعاجيب . فالحياة حين تبهظ الإنسان بتكاليفها الصارمة لا تلبث أن تخلق فى نفسه مقاومة لقوانين العقل وما هى عليه من جفوة وملالة ، وعزوفا عن إخضاع الأمور لاختبار الواقع . ذلك أن العقل يصبح لنا عدوا يحول بيننا وبين الظفر بكثير من إمكانيات اللذة . فإذا بالإنسان يرتاح إذ يفلت من إساره ولو لحظة على الأقل ، وإذ يستسلم لفتنة غير المعقول . وهكذا يلهو التلميذ فيلعب بالألفاظ فى سخرية ومجون ، أو يتخذ العالم من مجهوده الخاص موضوعا للتندر والدعابة بعد مؤتمر علمى ، حتى الرجل الجاد المتزمت لا يفوته أن يستمرئ نكتة عابرة . بل إن عداء الإنسان للعلم والحكمة ، وهما أثمن شىء أنجبه ، ليبدو فى صورة أشد خطورة من تلك ، إذ يتضح فى شوقه إلى إيثار رجل المعجزات والمتطبب عن طريق الطبيعة على الطبيب « المدرب » ، كما يتضح فى قياسه لنظريات الغيب ما دامت وقائعها المشهورة تعتبر خرقا للقواعد والقوانين . لذا فهو يعطل ملكة النقد لدينا ، ويزيف إدراكنا ، ويكرهنا على التأييد والتسليم دون مبررات حقيقية . فكل من يضع هذه النواحى من ضعف الإنسان موضع اعتبار ، يكون له الحق ، كل الحق ، فى أن يغض من شأن كثير من المعلومات التى تزخر بها الأقاصيص الغيبية .

أما العامل التاريخى الذى أشرت إليه ، فأريد به أن عالم الغيب لم يأتنا بشىء جديد . بل الأمر بالعكس إذ نلتقى فيه بجملة الإرهاصات والأعاجيب والنبوءات والتخييلات التى انحدرت إلينا من العصور البعيدة والكتب العتيقة ، والتى رأينا منذ عهد طويل أننا

فرغنا منها لأنها نتاج خيال جامح أو احتيال مغرض ، وحصيلة زمن كان جهل الإنسانية فيه على أوجه ، وكانت الروح العلمية ما تزال طفلا يحبو . فإذا نحن آمنا بما يحدثنا به القائلون بالغيب فى يومنا هذا ، تعين علينا أن نؤمن بما انحدر إلينا من الماضى . وعندئذ لا يفوتنا أن نلحظ أن تقاليد الشعوب جميعا وكتبها المقدسة تزخر بأمثال هذه المعجزات والأعاجيب ، وأن الأديان تستند فى دعواها ، إذ تطالب الناس بالإيمان بها ، إلى أمثال هذه الأحداث العجيبة الخارقة للعادة (على وجه التحديد) كما أنها تجد فيها برهانا على فعل قوى فوق الطبيعة البشرية . من هذا يشق علينا أن نتجنب الشبهة فى أن الاهتمام بالغيبيات ما هو فى الواقع إلا اهتمام دينى ، وفى أن أحد الدوافع الخفية للحركات الغيبية هو مناصرة الاعتقاد الدينى إذ يتهدده تقدم الفكر العلمى . على أن الكشف عن دافع من هذا النوع من شأنه أن يزيد من إعراضنا وريبتنا فلا نخوض فى بحث يتناول هذه الظواهر التى توصف بأنها غيبية .

غير أنه يتعين علينا أن نتغلب على هذا الإعراض . إذ الأمر كله مرتهن بمطابقته أو عدم مطابقته للواقع : فهل ما يخبرنا به أصحاب الغيب حق أم باطل ؟ لا بد أنه من الممكن أن نقطع فى هذه المسألة عن طريق الملاحظة . على أنه ينبغى لنا ، فى باطن الأمر ، أن نعترف لأنصار الغيب بالجميل ، فقصص الأحداث العجيبة التى انحدرت إلينا من العصور الأولى ، قصص ليس فى طاقتنا أن نتثبت منها بالاختبار . وإذا قلنا إنها ليست مما يمكن البرهنة عليه ، فيجب أن نسلم على الأقل ، إن كنا نريد الحق ، إنها لا يمكن تفنيدها كذلك . أما ما يقع فى وقتنا الحاضر ويتصل بأشياء مما نشهده فعلا ، فينبغى لنا أن نصل بشأنه إلى نتيجة محددة . ولو اقتنعنا بأن أمثال تلك العجائب لا تحدث فى يومنا هذا ، كنا بمنجاة من أن يعترض علينا بأنها يمكن أن تكون قد حدثت فى الأيام الخالية . بل الأدنى إلى الصواب أن يبحث المعترضون عن تفاسير أخرى لذلك . فها نحن إذن نتخلى عن شكوكنا ونستعد للاشتراك فى ملاحظة الظواهر الغيبية .

غير أننا سرعان ما نرتطم باعتبارات تنهض ، للأسف ، عقبة كؤودا فى سبيل مقصدنا المحمود . من تلك أن الملاحظات التى يجب أن ترتكز عليها أحكامنا ، لا بد أن تجرى فى ظروف من شأنها أن تجعل إدراكنا غير مأمون ، وانتباهنا مغلولا غير مشحوذ ، لأن الظواهر التى نريد ملاحظتها تحدث فى الظلام أو فى بصيص من ضوء

أحمر بعد فترة طويلة من الانتظار العقيم . ثم يقال لنا إن اتجاهنا النفسى المتشكك — أى الناقد — من شأنه أن يمنع الظواهر المنشودة من أن تفصح عن نفسها منعا باتا . وهكذا يكون الموقف صورة ممسوخة للظروف التى نجرى فيها بحوثنا العلمية عادة . يضاف إلى هذا أن الملاحظات تجرى على من يسمون « بالوسطاء » ، وهم أشخاص تعزى إليهم مواهب « حساسة » خاصة ، مع أنهم لا يبدون على جانب رفيع من الذكاء أو الخلق ، ولا تحركهم فكرة سامية أو غرض جدى كما كان شأن صناع المعجزات الأقدمين . بل هم ، على العكس ، نفر لا ينظر الناس إليهم — حتى من يؤمنون بقواهم الخفية — نظرة ثقة واطمئنان ، وأغلبهم ممن سبق أن اتهموا بالاحتيال ، فنحن أدنى أن ننتظر من سائرهم أن يكونوا كذلك . هذا إلى أن أفاعيلهم لتذكرنا بخدع « الحواة » أو بتلك الألاعيب الشيطانية التى يقوم بها الأطفال . ثم إننا لم نخرج إلى الآن بشىء ذى قيمة من تلك الجلسات التى تضم الوسطاء ، ولم نظفر منها بأى مصدر جديد للطاقة . أيجوز لنا أن ننتظر أى تقدم فى معرفتنا بتربية الحمام مثلا من تلك الخدع التى يقوم بها الحاوى إذ يخرج لنا عددا من الحمام من قبعة خاوية ؟ هذا ما يتعين علينا فى الحق ألا ننتظره . لا يشق على أن أضع نفسى موضع رجل يريد أن يحقق مقتضيات البحث الموضوعى ، فيشترك فى هذه الجلسات الغيبية ، لكنه لن يلبث أن يصيبه منها ملل ، فيخفت تحمسه لمهمته العلمية ، فإذا به يعرض عن هذا الموضوع برمته ، ويعود إلى أحكامه السابقة ، وهو لم يزدد علما عما كان عليه من قبل . وقد يعترض على مثل هذا الرجل بأنه لم يسلك الطريق الصحيح ، فالأولى بمن يوطن نفسه على بحث الظواهر ألا يقطع سبقا بشىء عن طبيعتها أو عن الظروف التى ستتفصح فيها . بل يتعين عليه ، بالعكس ، أن يثابر كى يكون لنفسه رأيا عن التحوطات التى تتخذ اليوم للرقابة على ما يقوم به الوسطاء ، وللتحرز من عدم أمانتهم . غير أن طرق الرقابة الحديثة من شأنها ، لسوء الحظ ، أن تجعل ملاحظة الظواهر الغيبية أصعب وأعز منالا . فقد أصبحت دراسة الغيبيات فرع اختصاص شاق ، وعملا لا يتسنى للمرء أن يقوم به إلى جنب شئونه وأوجه اهتمامه الأخرى . وهكذا نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نسلم أنفسنا للشكوك ولظنوننا الخاصة حتى يصل الباحثون فى هذا الموضوع إلى نتيجة ما .

وأرى أن أكثر هذه الظنون احتمالا هو أن عالم الغيب ينطوى فى صميمه على وقائع لم يعترف بها إلى الآن ، وقد أسدل عليها الاحتيال والخيال ستارا من الصعب النفاذ فيه .

لكن أنى لنا أن نقترب من هذه الوقائع ومن أى طرف نمسك بالمشكلة ؟ يلوح لى أن العون يأتينا فى هذه الحال من الأحلام ، فهى توحى إلينا أن نتجه إلى موضوع « الإحساس عن بعد » أو (الاستحساس)[1] فننتزعه من كل ما يغشاه من مواد مبهمة ملتبسة .

تعرفون أننا نعنى « بالإحساس عن بعد » ما يزعمه الناس من أن يشعر شخص ما بحصول حادثة وقعت فى مكان بعيد عنه ، فى نفس الآن الذى وقعت فيه تقريبا ، ودون أن تصله بها طريقة من طرق الاتصال المعروفة . والمفروض أن تقع هذه الحادثة لشخص يهتم به مستقبل الرسالة اهتماما وجدانيا قويا . فإذا افترضنا مثلا أن الشخص « أ » أصيب فى حادثة أو مات ، فإن الشخص « ب » الذى يرتبط به ارتباطا وثيقا — كأمه أو ابنته أو حبيب له — لا يلبث أن يعلم بالحادثة فى نفس الآن الذى وقعت فيه تقريبا ، عن طريق الرؤية أو السمع ، وكأن النبأ ينقل فى حالة الاستهتاف عن طريق التليفون بل فى وسعنا أن نقول إن هذا الاتصال مقابل نفسى للإبراق اللاسلكى . لست فى حاجة إلى أن أؤكد لكم أن أمثال هذه الظواهر بعيدة الاحتمال ، ومهما يكن من أمر فهناك أسباب وجيهة تحملنا على أن نرفض أغلب ما يروى لنا منها ، وإن كنا لا نستطيع أن نرفض بعضها فى سهولة . على أنى أطلب إليكم الآن أن تأذنوا لى فى أن أتنازل عن التحوط الذى اتخذته وأنا أعرف « الإحساس عن بعد » إذ قلت إنه شىء « مزعوم » فتدعونى أمضى كما لو كنت أعتقد أن ظواهره مما ينتمى إلى الواقع الموضوعى . لكن يجب ألا يعزب عن بالكم ، طول الوقت ، أن الأمر غير هذا ، وأنى لم أقض لنفسى بأية نتيجة عن الموضوع .

الحق أنه ليس لدى شىء كثير أقصه عليكم — إن هى إلا واقعة متواضعة . وأحب أن أذكركم سبقا بأن الحلم ليست له فى جوهره إلا صلة طفيفة بالإحساس عن بعد . فالإحساس عن بعد لا يلقى ضوءا جديدا على طبيعة الحلم ، كما أن الحلم لا يشهد بأن الإحساس عن بعد أمر واقع . ثم أن ظواهر الإحساس عن بعد ليست مقصورة على

---

(١) Telepathy : ويسمى أيضا باللقحة وهى إدراك شخصين لمس واحد فى آن واحد وعن بعد ، أو هى نوع من العلم بالغيب يرى فيه الشخص حوادث بعيدة ، إما تكشيفا أو فى المنام . وبينها وبين « التخاطر » أو انتقال الخواطر فارق سيتضح فيما بعد (المترجم)

الأحلام بحال ، فمن الممكن أن تتجلى إبان اليقظة أيضا . ولم نشر إلى الارتباط بين الأحلام والإحساس عن بعد إلا لأن حالة النوم تبدو مواتية بوجه خاص لاستقبال الرسائل الاستحساسية وعلى هذا فإن التقينا بما يسمى « حلم استيحساسى » ، استطعنا أن نقتنع من تحليله بأن الرسالة الاستحساسية قامت فيه بنفس الدور الذى يقوم به أية بقية من بقايا اليوم السابق للحلم ، فتناولتها عملية إخراج الحلم بالتغيير والتحوير وجعلتها تخدم غرضها .

وأذكر الآن أنى بينما كنت أحلل حلما استحساسيا من هذا النوع ، عرض شيء بدا لى على جانب كاف من الأهمية بالرغم من زهادته ، بحيث يمكن أن يكون نقطة البدء فى هذه المحاضرة . لقد تناولت هذا الموضوع للمرة الأولى عام ١٩٢٢ ، ولم تكن بين يدى إذ ذاك إلا ملاحظة واحدة . ثم تسنى لى منذ ذلك الحين أن أجمع عدة ملاحظات أخرى ، لكنى سأعرض عليكم الأولى لأنها أسهل وضعا ، ثم أمضى على الفور إلى صميم الموضوع :

كتب إلى رجل فى حلم يلوح له أنه يستوقف النظر . وكان الرجل بادى الذكاء ، يصف نفسه بأنه لا يؤمن بالظواهر الغيبية على أية حال . وقد قدم لقصته بأن ابنته المتزوجة التى تعيش بعيدا عنه ، تنتظر مولودها الأول فى منتصف ديسمبر . وكان إلى هذا شديدا الإخلاص لابنته ، ويعرف أنها شديدة التعلق به . وقد رأى فى نومه فى الليلة التى بين ١٦ و١٧ نوفمبر أن زوجته وضعت توأمين . ثم تلت ذلك عدة تفاصيل يمكننى أن أتجاوز عن ذكرها ، ولم تلق جميعها تفسيرا يبعث على الرضا . أما المرأة التى رآها تضع التوأمين فكانت زوجته الثانية ، أى رابة ابنته . وكان لا يريد أن ينجب أطفالا من هذه المرأة ، لأنه لم يكن يعتبرها أهلا لتنشئتهم على ما يشتهى ، كما أنه كان قد هجرها فى المضجع قبل أن يرى حَلمَه هذا بزمن طويل . ولم يكن ما دعاه إلى الكتابة إلى شكه فى صدق نظرية الأحلام ، ولو قد فعل لكان فى حلمه الظاهر ما يبرر رسالته ، إذ لَمَ يتعارض الحلم تعارضا صارخا مع رغباته فيصور له هذه المرأة أما لأطفاله ؟ . على أنه يلوح من قصته أن ليست لديه أسباب تجعله يخشى وقوع هذا الحدث غير المرجو . لكن ما حمله على أن يخبرنى بحلمه هو أنه تسلم فى الصباح الباكر من يوم ١٨ نوفمبر برقية فحواها أن ابنته وضعت توأمين . وقد أرسلت البرقية فى اليوم السابق ، لأن ابنته وضعت فى الليلة التى بين ١٦ و١٧ نوفمبر ، حوالى الوقت الذى رأى فيه أن زوجته

وضعت توأمين . ثم يسألنى الرجل هل كان حدوث الحلم والولادة فى وقت واحد مجرد مصادفة واتفاق . على أنه لم يذهب إلى حد أن يسمى الحلم « حلما استحساسيا » لأن الاختلاف بين محتوى الحلم وبين الواقع يتصل ، على التحديد ، بأهم نقطة فى الموضوع ، وهى شخصية من وضع الطفلين ، ألا وهى ابنته . لكنه ظهر لى من إحدى الملحوظات التى أدلى بها ، إنه لم يكن ليدهش إن كان الحلم لقحيا حقا . فقد كان يشعر عن يقين أن ابنته كانت « تفكر فيه على التخصيص » أثناء الوضع .

أنا على ثقة أنكم تستطيعون الآن أن تفسروا هذا الحلم ، وأنكم تدركون لمَ أخبرتكم به . ذلك أننا بصدد رجل غير راض عن زوجته الثانية ، يود أن تكون له زوجة مثل ابنته من زوجته الأولى . غير أن كلمة « مثل » محذوفة من اللاشعور بطبيعة الحال . وها هو ذا يتسلم فى نومه رسالة لقحية فحواها أن ابنته وضعت توأمين ، فتثب عليها عملية إخراج الحلم وتجعل رغبته اللاشعورية (فى أن تحل ابنته محل زوجته الثانية) تفعل فعلها فى هذه الرسالة ، ومن ثم ينبعث الحلم الظاهر الغريب الذى تبدو فيه الرغبة مقنَّعة والرسالة محرفة . هنا يتعين علينا أن نسلم بأن تأويل الحلم وحده هو الذى بين لنا أننا بصدد حلم استحساسى ، وأن التحليل النفسى كشف لنا عن حادثة لقحية ما كان لنا أن نتعرفها عن غير طريقه من حيث هى .

على أنى أرجو ألا يضلكم هذا المثال . فتأويل الحلم لم يقل لنا شيئا ، بالرغم من هذا كله ، عن الصدق الموضوعى للظواهر الاستحساسية . وقد لا يعدو الأمر أن يكون ظهارة يمكن تفسيرها على وجه آخر . ومن الممكن أن الأفكار الكامنة لحلم الرجل كان فحواها : « هذا هو اليوم الذى يجب أن تضع فيه ابنتى إن كانت أخطأت فى تقديرها شهرا كما أعتقد . وعندما رأيتها للمرة الأخيرة كان مظهرها يشير إلى أنها ستضع توأمين . لقد كانت زوجتى المتوفاة مغرمة بالأطفال ، فكم كان يكون سرورها بولادة توأمين ! » (هذه النقطة الأخيرة مشتقة من ذكريات للحالم لم أذكرها بعد) . وفى هذه الحال لا يكون مثير الحلم رسالة استحساسية بل ظن من الحالم يرتكز على أساس سليم ، والنتيجة واحدة فى الحالتين . بل إن هذا التأويل نفسه لا يخبرنا بشىء يحتم علينا أن نسلم بأن الإحساس عن بعد حقيقة موضوعية . وليس فى وسعنا أن نصل إلى نتيجة عن ذلك إلا بعد تمحيص مفصل لجميع ظروف الحالة ، وهذا لم يتيسر لنا للأسف فى هذا المثال أو فى غيره من الأمثلة التى أعرفها . وقد نسلم بأن افتراض الإحساس عن بعد

هو أبسط تفسير لهذه الحالة على أقصى تقدير ، لكنه افتراض لا يغنى كثيرا . فأبسط التفاسير لا يكون التفسير الصحيح دائما ، والحق غير بسيط فى الكثير الغالب من الأحيان ، لذا يتعين علينا أن نتخذ حذرنا قبل أن نورط أنفسنا فى مثل هذا الافتراض البعيد الأثر .

نستطيع الآن أن نترك موضوع الأحلام والإحساس عن بعد ، فليس لدى شىء آخر أقوله عنه ، غير أنى أريد أن أوجه أنظاركم إلى أن الأحلام ليست هى التى جعلتنا نحيط بشىء عن الإحساس عن البعد كما قد يبدو ، إنما هو تأويل الأحلام ومعالجتها بالتحليل النفسى . لذا نستطيع أن نذر الأحلام جانبا فيما يلى ، وأن نمضى فى فحص ما نظنه من أن تطبيق التحليل النفسى قد يلقى الضوء على الظواهر الأخرى التى تدعى بالظواهر الغيبية . فهناك مثلا ظاهرة « التخاطر »[١] وهى وثيقة الصلة بالإحساس عن بعد ، حتى لنستطيع فى الواقع أن نوحد بينها فى غير عناء كبير . وفحواها أن العمليات النفسية والأفكار والرغبات وحالات الاهتياج التى تحدث فى نفس شخص معين ، يمكن أن تنتقل خلال الفضاء إلى شخص آخر ، من دون وسائل الاتصال المعهودة كالألفاظ أو العلامات . ومن الغريب أن هذه الظاهرة هى ، فى الواقع ، أقل ما نجد له ذكرا فى الأنباء القديمة من العجائب والمعجزات .

لقد كنت أشعر أثناء علاج بعض المرضى بالتحليل أن أعمال العرافين المحترفين تتيح فرصة بديعة لملاحظة ظاهرة التخاطر ملاحظة لها القول الفصل حقا . الواقع أن من يتعاطون هذه الحرفة ممن يقرأون خطوط الكف ، أو يدرسون حظوظ الناس ، أو يخلطون ورق اللعب ، أو يستنبئون النجوم ، أو يتكهنون بمستقبل عملائهم بعد أن يطالعوهم بشىء عن تاريخهم الماضى أو الحاضر ، الواقع أن هؤلاء يكونون فى العادة من طراز وسط بل من طراز حطيط . والغريب أن عملاءهم يبدون فى العادة راضين عن إجراءاتهم ، ولا يحنقون عليهم إن لم تتحقق النبوءات التى يقولون بها ، آخر الأمر . لقد التقيت بعدد كبير من أمثال هذه الحالات ، وتسنى لى أن أدرسها دراسة نفسية تحليلية . وسأذكر لكم هذه الحالات استرعاء للنظر ، غير أنى مضطر إلى أن أحذف منها كثيرا مما يقتضيه سر المهنة ، وبذا لن تتضح لكم قيمتها فى إقامة الدليل كاملة بتمامها .

---

(١) Thought-transference وهى ما تعرف أيضا بانتقال الخواطر (المترجم)

على أنى حرصت مع هذا على ألا ينالها تحريف ما . تلك قصة إحدى مرضاى من النساء مرت بتجربة من هذا النوع مع أحد العرافين :

لقد كانت أكبر إخوتها وأخواتها ، شبت متعلقة بأبيها تعلقا شديدا مسرفا فى الشدة ، ثم تزوجت حدثة السن ، وكانت راضية كل الرضا عن حياتها الزوجية . غير أن هناك شيئا واحدا يحول دون اكتمال سعادتها ، فهى لم تنجب أطفالا . لذا لم يستطع زوجها الذى تحبه أن يحتل من قلبها كل المكانة التى يحتلها أبوها . وقد عزمت بعد عدة سنوات أن تجرى لها عملية رحمية من أجل الحمل ، لكن زوجها طالعها إذ ذاك بأن الخطأ يرجع إليه ، فقد اتفق له أن أصيب بمرض قبل زواجه جعله عقيما . فكان لخلف ظنها وقع سيىء جدا فى نفسها أفضى بها إلى مرض نفسى ، وأصبحت تخاف خوفا لا شبهة فيه من أن يقربها زوجها . وقد أراد زوجها أن يرفه عنها فاصطحبها معه فى زيارة إلى باريس . وبينما هى ذات يوم فى بهو فندق بباريس إذا بها تلحظ حركة ونشاطا بين خدم الفندق ، فقيل لها أن « حضرة الأستاذ » قد أقبل ، وهو يستقبل من يريدون استشارته فى غرفة معينة . فرغبت فى أن ترى الأستاذ وما يصنع . فأراد زوجها أن يصرفها عن ذلك ، لكنها آنست منه غفلة فانسلت إلى غرفة العراف . لقد كانت سنها إذ ذاك سبعة وعشرين عاما ، لكنها كانت تبدو دون ذلك بكثير ، وقد خلعت خاتم الزواج من إصبعها . فطلب إليها العراف أن تضع يدها على كرة مملوءة بالرماد ، وبعد أن درس انطباع اليد بدقة وعناية ، شرع يخبرها بأمور شتى عن متاعب شديدة تنتظرها ، ثم ختم كلامه بأن طمأنها وأكد لها أنها ستتزوج مع هذا كله وأنها ستنجب طفلين قبل أن تبلغ الثانية والثلاثين من عمرها . لقد كانت هذه السيدة فى الثالثة والأربعين من عمرها حين قصت على قصتها ، يستبد بها المرض ، ولا رجاء لها فى أن تنجب طفلا على الإطلاق . أى أن نبوءة العراف لم تتحقق ، ومع هذا فقد كانت تتحدث عنها فى غير مضاضة البتة ، بل فى رضاء ظاهر ، كما لو كانت تتلفت مبتهجة مسرورة إلى خبرة سعيدة فى ماضيها . وغنى عن التوكيد أنها لم تكن تدرى شيئا عن معنى العددين اللذين ذكرهما العراف فى نبوءته ، أو عمّا إذا كانا يعنيان شيئا على الإطلاق .

ستقولون إنها قصة سخيفة غير مفهومة ، وتتساءلون عما دعانى إلى قصها عليكم . وقد كنت أشاطركم هذا الشعور لولا أن هناك حقيقة — هى أهم شىء فى الموضوع — فحواها أن التحليل قد أعاننا على الظفر بتأويل لهذه النبوءة ، برزت دلالته بالفعل حين

مس التفاصيل . ذلك أن العددين المذكورين لهما أهمية خاصة فى حياة أم المريضة . فقد تزوجت الأم بعد أن تجاوزت الثلاثين من عمرها ، ووفقت إلى أن تعوض تأخرها فى الزواج ، فأنجبت طفليها الأولين — وكانت مريضتنا أكبرهما سنا — خلال سنة شمسية واحدة فى فترة هى أقصر ما تكون الفترات بين ولادتين . والحق أنها أنجبتهما قبل أن تبلغ الثانية والثلاثين . وعلى هذا فإن ما قاله « حضرة الأستاذ » لمريضتنا يعنى : « لا تبتأسى ، فإنك ما زلت صغيرة ! وسيحدث لك ما حدث لأمك التى كان عليها هى الأخرى ، أن تنتظر وقتا طويلا حتى تنجب أطفالا ، فسيكون لك طفلان قبل أن تبلغى الثانية والثلاثين » . لقد كانت أقوى رغبة من رغبات الطفولة عند هذه المريضة أن يحدث لها عين ما حدث لأمها ، فتكون فى مركزها ، وتحل محلها من أبيها ، وقد ترتب على عدم تحقيق هذه الرغبة أن شرع المرض يجد سبيله إليها . لكن النبوءة وعدتها أن ستتحقق هذه الرغبة ، فهل من المستغرب أن يكون موقفها من التكهن موقف رضاء وارتياح ؟ ولا تحسبوا أن « حضرة الأستاذ » كان يعرف هذه التواريخ التى تتصل بالحياة الحميمة لأسرة هذه العميلة الطارئة ، فهذا محال . فمن أين إذن جاءته المعلومات التى أعانته على أن يعبر فى نبوءته عن أقوى رغبة لهذه المريضة وأكثرها خفاء ، بأن يذكر لها هذين العددين ؟ لا أرى لذلك إلا احتمالين ليس غير . فإما أن القصة كما روتها المريضة قصة باطلة غير حقيقية ووقائعها غير صحيحة ، أو لا معدى لنا أن نسلم بأن انتقال الخواطر ظاهرة واقعية . وقد يقال كذلك ، من دون شك ، أن هذه السيدة استرجعت العددين المذكورين اللذين كانا مستسرين فى لا شعورها إلى شعورها بعد مضى ستة عشر عاما . ليس لدى دليل على صحة هذا الفرض ، لكنى لا أستطيع أن أنفيه نفيا باتا . ويخيل إلى أنكم تؤثرون الاعتقاد بمثل هذا التفسير على أن تعتقدوا بأن انتقال الخواطر حقيقة واقعة ، فإن أخذتم بالرأى الثانى ، فلا يعزب عن بالكم أن التحليل وحده هو الذى أماط اللثام عن هذا العنصر الغيبى الذى أصابه التحريف حتى أخفاه إخفاء تاما .

لكن هل تغنى حالة واحدة كحالة مريضتنا هذه ، وهل تكفى ملاحظة فردة لنخرج منها باعتقاد يتضمن أمثال هذه النتيجة البعيدة الأثر ؟ أؤكد لكم أنها ليست الحالة الوحيدة التى لاحظتها ، فقد جمعت طائفة بأسرها من أمثال هذه التكهنات ، وأشعر أن العراف ، فى كل حالة منها ، لم يزد على أن يفصح عن أفكار عملائه وخاصة

رغباتهم المستسرة ، بحيث يحق لنا أن نحلل أمثال هذه التكهنات كما لو كانت تخييلات أو أحلاما أو منتجات ذاتية لهؤلاء العملاء . ليس لهذه الحالات جميعها نفس القيمة فى إقامة الدليل بطبيعة الحال ، كما أنها لا تستوى جميعا من حيث استعصائها على تفاسير أدنى إلى المعقول من التفسير بالتخاطر ، لكننا إن استعرضنا الأدلة فى مجموعها ، فثمة ما يرجح واقعية التخاطر . إن أهمية هذا الموضوع تبرر لى أن أعرض عليكم ما لدى من الحالات جميعا ، لكنى لا أستطيع أن أفعل ذلك ، لأنه يزخر بمادة دسمة وفيرة ولأنه يتضمن خرقا لسر المهنة . على أنى سأعمل على إرضاء ضميرى ما وسعنى الأمر ، فأضرب لكم مثالا أو مثالين آخرين :

زارنى ذات يوم شاب على جانب كبير من الذكاء . وكان طالبا يعد نفسه للامتحان النهائى فى الطب . لكنه لم يكن فى حالة تسمح له بذلك ، فقد كان يشكو من عجزه عن تركيز انتباهه عجزا تاما وعن التذكر المنظم ، كما كان يشكو من أنه لم يعد يهتم بشىء مما كان يهتم به . وسرعان ما كشفنا عن تاريخ الحالة المعطّلة : فقد سقط صاحبنا فريسة المرض فى أثر انتهاجه مسلكا أخلاقيا حتم عليه أن يضبط نفسه ضبطا شديدا . لقد كانت له أخت يشعر نحوها — كما تشعر نحوه — بود شديد ، لكنه كان على الدوام ودا متحفظا مكبوحا . وكثيرا ما كان أحدهما يقول للآخر : « يا للأسف ألا يستطيع أحدنا أن يتزوج من الآخر ! » . واتفق أن أحب الأخت رجل لا غبار عليه ، فبادلته حبا بحبه ، لكن أبويها لم يوافقا على زواجها منه . فلجأ الاثنان إلى الأخ ، فلم يرفض بل أعانهما على التراسل ، ثم أفلح آخر الأمر فى أن يقنع والديه بهذا الزواج . وحدث فى أثناء الخطبة حادث عارض لا يشق علينا أن نحدس ما ينطوى عليه من دلالة . فقد خرج الأخ وخاطب أخته إلى رياضة بجبل كان صعوده وعرا عسيرا ، وذلك دون أن يصاحبهما مرشد ، فضلا الطريق وأصبحا فى خطر ألا يعودا أدراجهما أحياء . وبعد زواج أخته بقليل ، اعترته هذه الحالة من الإعياء النفسى .

ولما استطاع أن يستأنف عمله بمعونة التحليل النفسى تركنى ليتقدم للامتحان ، فلما اجتازه عاد إلى ثانية فى خريف العام نفسه لمدة قصيرة . وقد أخبرنى إذ ذاك بحدث يسترعى الانتباه وقع له قبل الصيف . ذلك أن عرافة تعيش فى البلد الذى توجد فيه جامعته ، وتمارس عملها بنجاح كبير ، حتى أن أمراء البيت المالك ألفوا أن يستشيروها كلما أزمعوا القيام بأمر هام . وقد كانت طريقتها غاية فى البساطة : إذ كانت تسأل

الشخص الذى يستشيرها عن تاريخ ميلاده ، ولا تريد أن تعرف عنه شيئا آخر حتى اسمه . ثم تستشير كتبها فى التنجيم وتقوم بإجراء حسابات طويلة تختتمها بنبوءة لعميلها . وقد عزم الشاب الذى نحن بصدده على أن يستغل ما لدى هذه العرافة من فنون سرية ليعرف شيئا عن زوج أخته . فزارها وذكر لها تاريخ الميلاد المطلوب . وبعد أن أجرت حساباتها تكهنت بما يأتى : « سيموت هذا الشخص فى يوليو أو أغسطس من هذا العام ، وسيكون موته عن تسمم من أكل المحار أو حيوان السرطان » . ثم اختتم الشاب قصته متعجبا : « وكان هذا فى الحق شيئا عجبا ! » .

لقد كنت أستمع إلى قصته من بدايتها دون تحمس ، غير أنه حين أبدى دهشه هذا ، أذنت لنفسى أن أسأله : « وما يجعلك ترى فى هذه النبوءة أمرا عجبا ؟ لقد انتهى الخريف الماضى ولم يمت زوج أختك ، وإلا كنت أخبرتنى بذلك ، فالنبوءة إذن لم تصح ولم تتحقق » . قال : « إن النبوءة لم تتحقق ، لكن ما يستوقف النظر هو أن زوج أختى مولع بأكل المحار والسرطان إيلاعا شديدا ، وقد أصابه تسمم من أكل المحار وكاد يموت من ذلك فى الصيف الماضى ، أى قبل أن أذهب إلى العرافة » . فماذا أقول فى ذلك ؟ وهل يسعنى إلا أن أبتئس إذ أرى مثل هذا الشاب الذكى ، الذى سبق تحليله تحليلا موفقا ، قد عجز عن أن يستبصر فى هذه المشكلة خيرا مما فعل . أما أنا فقبل أن أعتقد أن التسمم بالمحار مما يمكن حسابه من جداول التنجيم ، أرى أن الأدنى إلى الصواب هو أن أفترض أن هذا الشاب لم يستطع بعد أن يظهر على كراهيته لمنافسه وزوج أخته ، وأن مرضه قد نجم عن كبت هذه الكراهية . وأما العرافة فلم تزد على أن عبرت عن رغبة هذا الشاب ، وهى : « أن زوج أختى لن يعزف البتة عن تناول المحار ، مما سيسوقه إلى التهلكة فعلا ذات يوم » . وأعترف أنى لا أجد تفسيرا آخر لهذه الحالة ، إلا أن يكون الشاب قد جعل منى هدفا للمفاكهة والتندر ، لكننى لم ألحظ عليه فى ذلك الحين أو فيما بعد ما يحملنى على هذا الظن به ، بل كان يبدو جادا فيما يقول .

وإليكم حالة أخرى : شابا له مكانة حسنة وكانت له خليلة يشوب صلته بها « حواز »[1] غريب : فقد كان يجد نفسه بين الحين والحين مدفوعا إلى أن يجرح

---

(١) Obsession الحواز خاطر يغلب المرء فيحمله على ركوب ما لا يحب ، ولا شك أن هذه الكلمة أدق فى التعبير عن كلمة الوسواس التى تستعمل بدلها أحيانا .

مشاعرها بالسب والشتم حتى يأخذ منها اليأس كل مأخذ . وكان يشعر بشيء من الراحة والتخفف حين يصل بها إلى هذه الحالة الأليمة ، فيعقد معها صلحا ويفرغ عليها من هداياه . لكنه يريد أن يتخلص منها اليوم ، فقد أصبح هذا الحواز مصدر قلق له : إذ لاحظ أن فى هذه الصلة ما يضر بحياته المهنية ، فأراد أن يتزوج وأن يجعل لنفسه أسرة على أنه عجز عن أن يتحرر من خليلته بجهوده الخاصة ، فجاءنا يطلب العون من التحليل . وقد تسنى له فى أثر نوبة من النوبات التى تخللت فترة التحليل ، أن يستكتبها بضع كلمات على قطعة من الورق وأراها أحد « العارفين بالخطوط » . فقال له الرجل إن هذا الخط لشخص يستبد به اليأس ، وليس من شك فى أنه سينتحر خلال الأيام القليلة الآتية . ثم مضت الأيام ولم يتحقق ما تكهن به المتكهن ، بل ظلت السيدة على قيد الحياة . على أن العلاج التحليلى قد أعان المريض على أن يتحرر من أغلاله ، فتركها واتجه إلى فتاة ظن أنها تكون زوجة طيبة له . لكنه لم يلبث أن رأى حلما لا يمكن أن يفسر إلا برجعه إلى شك فطير يدور على صلاحية هذه الفتاة . فعمل على أن يظفر بعينة من خطها أيضا ، وقدمها إلى « الخبير » نفسه ، فتلقى منه ما عزز مخاوفه ، وإذ ذاك أعرض عن الزواج منها .

يتعين علينا أن نعرف شيئا عن التاريخ الشخصى لهذا المريض ، إن كنا نريد أن نصدر حكما صحيحا على قيمة تقريرى الخبير ، وخاصة الأول منهما . لقد كان هذا الرجل ، فى مطلع سنى المراهقة ، شديد الولع بامرأة شابة تكبره ببضع سنين ، وكان ذلك على نحو عاطفى عارم تميز به . فرفضته المرأة ، فحاول الانتحار ، وليس من شك فى أنه كان جادا فى عزمه هذا . على أنه لم ينج من الموت إلا بأعجوبة ، ولم يقدر له الشفاء إلا بعد تمريض دقيق . وقد كان لوقع فعلته الطائشة أثر عميق فى نفس المرأة التى يحبها ، فاستجابت له وأضحت خليلته ، فأمسى منذ ذلك الحين شديد التعلق بها ، يرعاها بكثير من الولاء الصادق . وبعد أن جاوزت بهما هذه الصلة عقدين من الزمان ، أى حين زال عنهما شيء من رونق الشباب — وخسارة المرأة فى هذه الناحية أفدح من خسارة الرجل بطبيعة الحال — أراد أن يتخلص منها ، وأن يبنى لنفسه أسرة وبيتا . على أنه فى نفس الوقت الذى شعر بإعراضه عنها ، انبعثت فى نفسه حاجة إلى الانتقام منها ، وكانت حاجة مكبوحة منذ زمن طويل . فكما أنه حاول فى أول الأمر أن ينتحر لأنها نبذته وأعرضت عنه ، إذا به يريد الآن أن يشفى غليله فيراها تطلب الموت لأنه

سيهجرها . غير أن حبه إياها ما زال على درجة من القوة لا تسمح لهذه الرغبة أن تصبح شعورية ، وإنه لعاجز عن أن يسيء إليها بالقدر الذى يحملها على الانتحار . فهذا الرجل ، فى حاشية نفسه ، قد جعل من خليلته الحالية كبش فداء كى يروى ظمأه إلى الانتقام بالفعل ، فهو يوقع بها كل إساءة يرى أنها تحدث فى نفسها من الأثر ما كان يريد أن يلحقه بالمرأة التى أحبها . ولم يظهر لنا أن الانتقام موجه بالفعل إلى الخليلة الأولى إلا بعد أن عرفنا أنه يتخذها موضع سره فى صلته الحبية الجديدة بدل أن يخفى زلته عنها . فأكبر الظن أن هذه المرأة التعسة ، التى كانت صاحبة حظوة فأمست طالبة حظوة ، كانت تعانى من إفضائه إليها بأسراره أكثر مما تعانيه الخليلة الحالية من جفوة وفظاظة . وكان من الطبيعى أن يتحول الحواز من خليلته الأولى إلى الثانية — هذا الحواز الذى كان مصدر شكاته من خليلته الحالية والذى دعاه إلى العلاج التحليلى — ذلك أن الخليلة الأولى هى التى كان يريد أن يتحرر من إسارها لكنه لم يقو على ذلك . لست خبيرا بقراءة الخطوط ، ولا أقيم وزنا كبيرا لذلك الفن الذى يحدس أخلاق الفرد من خطه ، وأقل من ذلك أن أعتقد بإمكان التكهن بمستقبل الفرد على هذا النحو . لكن مهما يكن الرأى الذى نراه فى قيمة هذا الفن ، فمما لا نزاع فيه أن الخبير حين أنذر بانتحار السيدة الأولى بعد بضعة أيام ، لم يزد على أن أماط اللثام عن رغبة مستسرة عنيفة تساور الشخص الذى ذهب يستخبره . والأمر بالمثل فى حالة الفتاة ، غير أن الرغبة فى هذه الحال لم تكن لا شعورية ، بل عبر الخبير عن مخاوف السائل وشكوكه الفطيرة . وأزيد على هذا أن المريض الذى نحن بصدده ، قد استطاع بمعونة التحليل أن يختار موضوعا لحبه فى غير نطاق هذه الدائرة السحرية التى كان موثقا بها إيثاقا مكينا .

سيداتى وسادتى : سمعتم الآن شيئا عما يمكن أن يفضى به تأويل الأحلام والتحليل النفسى إجمالا إلى الأمور الغيبية . ورأيتم بالمثال كيف يتيح تطبيق نظرية التحليل الكشف عن ظواهر غيبية لم يكن يتسنى لنا أن نتعرفها من دونه . ترى هل ينبغى لنا أن نؤمن بانتساب هذه الظواهر إلى الواقع الموضوعى ؟ هذه أولى المسائل التى تتوقون إلى معرفتها من دون شك . والتحليل النفسى لا يستطيع أن يجيب عنها مباشرة ، غير أن المواد التى أعان على اجتلائها وإلقاء الضوء عليها مما يبيح لنا على الأقل أن نجيب عن هذه المسألة إثباتا . بيد أن اهتمامكم لن يقف عند هذا الحد ، وسترغبون فى معرفة النتيجة التى وصلنا إليها من المواد الوفيرة الأخرى التى لا يقوم فيها التحليل بأى دور . وهنا

لا أستطيع أن أجاريكم فيما تطلبون ، فليس هذا مجال التحليل . وكل ما أستطيع أن أفعل هو أن أطالعكم بشيء من الملاحظات التى لها بعض الصلة بالتحليل ، بمعنى أنها شوهدت أثناء العلاج التحليلى ، وربما لم تكن ممكنة من دونه . فسأضرب لكم مثالا واحدا منها ، هو الذى ترك أعمق الآثار فى نفسى . وهو مثال طويل متشابك يتطلب منكم أن تحتفظوا فى أذهانكم بكثير من تفاصيله ، بل إنه يقتضى حذف شطر كبير منه كان له وزن فى تعزيز قيمته التدليلية . والواقع أنه مثال تبدت فيه الظواهر التى تعنينا وانجلت فى وضوح دون أن تكون فى حاجة إلى التحليل لإظهارها . ومع هذا فليس فى مقدورنا أن نستغنى عن التحليل ونحن نستعرضه ونناقشه . غير أنه يتعين على أن أحذركم سبقا أن هذا المثال نفسه ، الذى يشير إلى تخاطر ظاهر فى الموقف التحليلى ، ليس برهانا ينهض فى وجه كل اعتراض ، كما أنه لا يبيح لنا أن نقبل واقعية الظواهر الغيبية دون قيد أو شرط .

فإليكمْ قصته : فى صباح يوم من خريف عام ١٩١٩ — وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة إلا ربع الساعة تحديدا — كنت أعالج أحد مرضاى ، فتقدمت إلى بطاقة من دكتور (David Forsyth) ، وكان قد وصل لساعته من لندن (وأنا على يقين أن هذا الزميل المحترم من جامعة لندن لن يؤاخذنى إن قلت إنه جاء ليمضى معى بضعة أشهر أطلعه فيها على ألغاز خطة التحليل النفسى) . ولم تكن لدى فسحة من الوقت إلا أن أحييه وأعقد معه موعدا فيما بعد . وللدكتور (Forsyth) على مأثرة خاصة ، فقد كان أول أجنبى يزورنى بعد الحرب وعزلتها ، ويبدو أنه كان بشير الخير وتحسن الأحوال . وما أن ذهب الدكتور حتى أقبل المريض التالى ، فى الساعة الحادية عشرة ، وهو السيد « ب » : رجل ذكى جذاب فيما بين الأربعين والخمسين من عمره ، يتردد على لأنه يعانى صعوبات خاصة فى صلاته الجنسية بالنساء . لم تكن حالة هذا الرجل مما تبشر بالشفاء ، وكنت قد اقترحت عليه ، منذ حين ، أن يقف العلاج ، لكنه آثر المضى فيه ، لما كان يشعر به من ارتياح نجم عن « طرح أبوى »[1] معتدل على شخصى . ولم يكن للمال شأن فى ذلك الحين لقلة ما كان متداولا منه . كذلك كنت أجد فى

---

(١) (Father - transference) أنظر المحاضرة رقم ٢٧ من « المحاضرات التمهيدية للتحليل النفسى » للمؤلف . (المترجم)

الساعات التى أقضيها معه تنشيطا واستجماما ، فكنا لا نحفل بالقواعد الصارمة للرسميات الطبية ، بل مضينا فى العلاج التحليلى فترة معينة من الزمن .

فى هذا اليوم نفسه عاد السيد « ب » يجرب حظه فى الاتصال الجنسى بالنساء ، وأشار إلى تلك الفتاة الجميلة اللاذعة الفقيرة التى كاد يوفق معها لولا أنها كانت عذراء فخشى أن يمضى معها إلى نهاية الأمر . لقد كان يحدثنى كثيرا عن هذه الفتاة ، غير أنه فى ذلك اليوم أخبرنى للمرة الأولى أنها اعتادت أن تناديه باسم السيد (Foresight)[1] مع أنها لم تكن تعرف شيئا ، بطبيعة الحال، عن الأسباب الحقيقية لتعففه عنها. وقد راعتنى هذه العبارة من كلامه ، وكانت بطاقة دكتور (Forsyte) إلى جانبى فاطلعته عليها . هذه هى الوقائع . وأكبر الظن أنها تبدو لكم هزيلة غير ذات بال ، لكنكم إن صبرتم رأيتم ما هو أكثر من ذلك .

لقد أمضى السيد « ب » بضع سنوات من شبابه فى إنجلتره ، وأغرم إغراما موصولا بالأدب الإنجليزى ، فكانت لديه مكتبة حافلة بالكتب الإنجليزية ، كان يعيرنى منها ، فأنا مدين له بتعرف بعض الكتاب أمثال آرنلد بنت (Arnold Bennett) و « جلاس ويرذى » (Glasworthy) اللذين لم أقرأ من آثارهما إلى الآن إلا قليلا . وقد أعارنى ذات يوم رواية « لجلاس ويرذى » عنوانها (Man of Property) وقوامها أسرة خيالية لقبها (Forsyte) . ويبدو أن هذه القطعة الأدبية قد أسرت خيال مؤلفها فإذا به يعاود الكتابة عن أفراد تلك الأسرة مرارا فى قصصه التالية ، ثم جمع ، آخر الأمر ، كل القصص التى تتصل بهم وأصدرها بعنوان « تاريخ أسرة (Forsyte) »[2] . وقد أحضر لى السيد « ب » مجلدا جديدا من هذه السلسلة قبل بضعة أيام فقط من الواقعة التى ذكرتها لكم . فأصبح اسم (Forsyte) وكل ما يمثله للمؤلف جزءا من محادثاتى مع « ب » ، وشطرا من الحديث الخاص الذى لا يلبث أن يدور بين شخصين يرى أحدهما الآخر باطراد . وها أنتم أولاء ترون أن اسم (Forsyte) فى هذه القصص لا يختلف نطقه كثيرا عن اسم دكتور (Forsythe) (بحيث لو نطق بهما ألمانى لم يكد يتميز أحدهما عن الآخر) . كما أن كلمة (Foresight) الإنجليزية تطابقها من حيث النطق تقريبا. إذن فقد جاء « ب » من

---

(١) بالألمانية (Vorsicht) ومعنى هذه الكلمة بالعربية « التبصر » . (المترجم).

(٢) The Forsyte Saga

خبراته الشخصية الخاصة باسم كان يدور فى خلدى فى الوقت نفسه نتيجة لظرف لا يعرفه إطلاقا.

لعلكم ترون أننا نمضى قدما فى استعراض هذه الحالة . غير أنى أعتقد أننا لو ألقينا ضوء التحليل على خاطرين آخرين عرضا للسيد « ب » خلال الساعة نفسها ، لزادت دهشتنا من هذه الحالة العجيبة ، ولتسنى لنا أن نظفر بشىء من الاستبصار فى ظروف نشأتها .

الخاطر الأول : كنت أنتظر السيد « ب » الساعة الحادية عشرة فى يوم من أيام الأسبوع السابق ، فلما لم يجىء خرجت لأزور دكتور أنطون فرويند (Anton Freund) فى فندقه . وقد دهشت حين رأيت أن السيد « ب » يسكن طابقا آخر من الفندق نفسه . وبينما كنا نشير فى حديثنا إلى الفندق المذكور ، أخبرت السيد « ب » أنى زرته فى منزله على نحو ما ، غير أنى على يقين تام أنى لم أذكر له اسم الشخص الذى ذهبت لزيارته فى الفندق . فما لبث أن بادرنى بالسؤال التالى بعد أن ذكر اسم (Mr. Foresight) (تبصر) : « أتكون السيدة فرويد أوتوريجو (Freud Ottorigo) التى تعطى دروسا فى الإنجليزية فى الجامعة الشعبية ابنتك ؟ » . وللمرة الأولى فى معرفتنا الطويلة أراه ينطق اسمى محرفا فيقول فرويند (Freund) بدل فرويد (Freud) ، وهو تحريف اعتدت أن أسمعه من الموظفين والكتبة وأصحاب دور الطبع ...

الخاطر الثانى : أخبرنى فى نهاية الجلسة عينها بحلم استيقظ منه فزعا محصورا ، وسماه « حلم كابوس » . ثم أضاف إلى هذا أنه نسى منذ عهد قريب الكلمة الإنجليزية التى تطلق على مثل هذا الحلم ، وأنه قد سئل فى هذه الكلمة فأجاب السائل بأن الكلمة الإنجليزية « للكابوس » هى « بيضة الديك »(١) . وهذا جواب سخيف بطبيعة الحال لأن بيضة الديك لا تعنى شيئا من هذا القبيل . وقد بدا لى أن هذا الخاطر لا يشترك مع الخاطر السابق إلا فى عنصر واحد ، هو كلمة « الإنجليزية » ، غير أنه ذكرنى بحادثة صغيرة وقعت قبل ذلك اليوم بشهر تقريبا . فقد كان « ب » يجلس بغرفتى ، وإذا بضيف كريم من لندن ، هو دكتور إرنست جونز (Earnest Jones) يزورنى على غير انتظار ، وكنت لم أره منذ عهد طويل . فأشرت إليه أن يذهب إلى غرفتى الأخرى حتى

---

(١) Mare's nest

أفرغ من « ب » . وقد عرفه « ب » على التو من صورة له كانت معلقة فى غرفة الانتظار ، بل طلب إلى أن أقدمه إليه . والواقع أن دكتور (Jones) هو مؤلف كتاب فى موضوع الكابوس ، لا أدرى ما إذا كان « ب » قد اطلع عليه ، فقد كان يتحاشى قراءة نشرات التحليل .

هنا أريد أن أنظر فيما يمكن أن يزودنا به التحليل لنفهم خواطر « ب » والدوافع إليها . إن موقف « ب » من اسم (Forsyte) كان كموقفى منه ، فكانت دلالته عنده مثل دلالته عندى ، والواقع إنى مدين له بمعرفة هذا الاسم . والشيء الذى يستوقف النظر أنه استحضر هذا الاسم فى التحليل على التو بعد أن أصبحت له عندى دلالة أخرى فى أثر خبرة حديثة هى وصول الطبيب من لندن . وربما كانت الطريقة التى استحضر بها الاسم ساعة التحليل لا تقل أهمية وطرافة عن حضور الاسم نفسه . فهو لم يقل : « يحضرنى الآن اسم (Forsyte) الذى قرأت عنه فى القصص » ، بل عمل على أن يدمجه فى خبراته الشخصية الخاصة ، وأخرجه على هذا النحو ، دون أية إشارة شعورية إلى القصص — وهذا شيء كان من الممكن حدوثه قبل ذلك اليوم ، لكنه لم يحدث بالفعل إلا فى تلك الجلسة . على أنه قال لى فى تلك اللحظة : « إننى (Forsite) أيضا ، فهذا ما تدعونى به الفتاة » ولا يفوتنا أن نلحظ ما فى قوله هذا من غيرة ملحة تمتزج بالشكوى من استصغاره نفسه . فلعلنا لا نكون مسرفين فى الخطأ إن أكملنا قوله هذا بالعبارة الآتية : « لقد آذى نفسى أن تتجه بجمع نفسك إلى هذا الزائر ، فعد إلى لأنى (Forsyth) أيضا — أو على الأصح لأنى (Mr. Foresight) كما تدعونى الفتاة » . فإذا عرضنا للخاطر الآخر وهو « الإنجليزية » ، ألفينا مجرى أفكاره يعود بنا إلى موقفين سابقين أكبر الظن أنهما استثارا فى نفسه عين الغيرة — أما أولهما فتفصح عنه العبارة الآتية : « لقد زرت بيتى منذ بضعة أيام ، لكنى للأسف لم أكن المقصود بهذه الزيارة ، بل كان السيد فرويند (Freund) » . وقد جعلته هذه الفكرة يحرف اسم فرويد (Freud) فينطقه فرويند (Freund) . وهنا جاء اسم فرويد أوتوريجو (Freud Ottortgo) فمهد الطريق للخاطر الصريح الذى نحن بصدده ، لأنه اسم مدرسة للإنجليزية . وأما الموقف الثانى فيدور على زيارة دكتور إرنست جونز ، وهو زائر لا بد أن يستثير فى نفس السيد « ب » عين الغيرة ، لأنه يحتل مكانة أرفع منه ، فقد تسنى له أن يكتب كتابا عن « الكابوس » ، على حين أن أقصى ما يستطيعه صاحبنا هو أن يرى

فى نومه أحلاما جثامية ليس غير . ثم إن إشارة « ب » إلى خطئه فى معنى « بيضة الديك » مما يتمشى مع هذا السياق أيضا ، فلا بد أنها تعنى : « لست آخر الأمر إنجليزيا أصيلا ، كما أنى لست (Forsyth) أصيلا » .

لا نستطيع أن نقول إن شعور « ب » بالغيرة كان شعورا يستغلق فهمه أو لا يتناسب مع المواقف التى ظهر فيها . فقد كان يعرف أن تحليله سينتهى يوم يعود الطلاب الأجانب والمرضى إلى فيينا ، ومن ثم ستنتهى صلاتنا ، وقد تحقق هذا بالفعل بعد فترة وجيزة . غير أن ما كنت أستعرضه الآن هو شطر من إجراءات التحليل يتلخص فى تفسير خواطر ثلاثة بدرت فى نفس الساعة ، وكان لها نفس الدافع . وليس لهذا صلة كبيرة بما إذا كان من الممكن أن تبدر هذه الخواطر من دون تخاطر أو عن طريقه ؟ على أن الشطر الثانى من هذا السؤال ينطبق على كل واحد من الخواطر الثلاثة ، ومن الممكن أن يقسم ثلاثة أسئلة مستقلة : هل كان فى استطاعة « ب » أن يعرف أن دكتور (Forsyth) زارنى للمرة الأولى منذ لحظة ؟ هل كان فى وسعه أن يعرف اسم الشخص الذى زرته فى الفندق ؟ هل كان يعرف أن دكتور جونز ألف كتابا فى « الكابوس » ؟ أم أن الأمر لا يعدو أن معرفتى بهذه الأشياء هى التى ظهرت فى الخواطر التى عرضت له ؟ إن النتيجة التى يمكن أن تعزز انتقال الخواطر أو تدحضه مرتهنة بنوع الإجابة عن كل واحد من هذه الأسئلة . فلنترك السؤال الأول مؤقتا لأن السؤالين الآخرين أسهل تناولا منه . أما زيارتى الفندق فتبدو لأول وهلة من الحالات التى تقنعنا بانتقال الخواطر إقناعا كبيرا . فأنا أعلم علما ليس بالظن أنى لم أذكر أى اسم للسيد « ب » حين كنت أقص عليه خبر زيارتى منزلة متفكها ، ومما لا يكاد يصدق أن يكون « ب » قد تحرى فى الفندق عن اسم الشخص الذى ذهبت لزيارته ، وأعتقد فى الحق أنه لم يكن يعرف أنه يسكن الفندق إطلاقا . غير أن الأمر ينطوى على مصادفة من شأنها أن تعضد من قيمة هذه الحالة فى إقامة الدليل والبرهان . تلك أن الرجل الذى ذهبت لزيارته فى الفندق لم يكن يدعى « فرويند » فحسب ، بل كان فى الواقع صديقا[1] لنا جميعا . وإليه يرجع الفضل فى أن تيسر لنا إنشاء دار للنشر . وقد كان موته الباكر ، وموت كارل أبراهام بعده ببضع سنين ، أكبر مصيبتين حلتا بالتحليل النفسى

---

(١) مما يذكر أن ترجمة كلمة « صديق » بالألمانية هى « فرويند » (المترجم)

فى نشأته . فمن المحتمل إذن أن أكون قد قلت للسيد « ب » : « كنت فى زيارة صديق (Freund) بمنزلك » ، ومن ثم لا يكون للخاطر الثانى وزن من حيث هو ظاهرة غيبية .

والأمر بالمثل فى الخاطر الثالث ، إذ لا تلبث أهميته أن تتلاشى من هذه الناحية أيضا . لقد قلت إن « ب » لم يقرأ قط نشرات التحليل ، فكيف يتسنى له أن يعرف أن جونز ألف كتابا عن الكابوس ؟ من الممكن أن يكون الأمر كذلك . فقد كانت لديه كتب مما تصوره دارنا للنشر ، ومن الممكن دون شك أن يكون قد رأى عناوين النشرات الجديدة مطبوعة على بعض أغلفتها . هذا شيء لا يمكن إثباته ، لكنه لا يمكن نفيه كذلك . ومن ثم لا يسلم بنا ذلك الطريق إلى الجزم بشيء عن هذا الموضوع . وهكذا يكون مثالى هذا — وآسف أن أقول ذلك — معرضا لنفس الاعتراضات التى توجه إلى كثير غيره . لقد سجلت هذا المثال بعد وقوعه بزمن طويل ، وعرضت له المناقشة فى وقت لم أكن أرى فيه السيد « ب » بعد ، لذا لم يتسن لى أن أوجه إليه أسئلة أخرى عنه .

فلنعد إلى الخاطر الأول الذى يعزز ظاهرة التخاطر المزعومة ، حتى إن لم يكن ثمة خاطر غيره . ترى أكان فى استطاعة « ب » أن يعرف أن دكتور (Forsyth) كان يزورنى قبل مجيئه إلى بربع الساعة ؟ بل أمن الممكن أنه كان يعلم بوجوده أو حضوره إلى فيينا ؟ هنا يتعين علينا ألا ننساق لميل يحدو بنا أن نجيب عن كلا السؤالين بالنفى مباشرة : فمن المحتمل جدا أن أكون قد أخبرت « ب » بأنى أنتظر طبيبا من إنجلتره يريد أن يتدرب فى التحليل ، ومن الممكن أن يكون هذا قد حدث فى صيف عام ١٩١٩ ، فقد كان دكتور (Forsyth) يراسلنى فى ترتيب زيارته قبل وصوله بعدة أشهر . بل من الممكن أن أكون قد ذكرت اسمه ، وإن كان هذا بعيد الاحتمال إلى حد كبير . فلو حدث هذا لكنت احتفظت فى ذاكرتى بأثر منه على الأقل ، لأن لذلك الاسم أكثر من مدلول واحد ، وهذا من شأنه أن يسلم بنا إلى محادثة عنه . ومع ذلك فربما حصلت هذه المحادثة ثم أنسيتها نسيانا تاما ، بحيث راعنى ذكر (Mr. Foresight) فى ساعة التحليل ورأيته شيئا عجبا . وخير للمرء إن كان يعتبر نفسه متشككا مرتابا ، أن يرتاب فى ريبته أيضا بين حين وحين . أو ربما كنت ممن يميلون ميلا خافيا إلى الغرائب والأعاجيب وهى أمور تلتقى بالظواهر الغيبية فى منتصف الطريق .

وحتى إن استبعدنا جانبا من الإعجاز فى ذلك الحديث العجيب بهذا التفسير ،

فلا يزال أمامنا أن نفسر شطرا آخر هو أصعب جانب منه جميعا . ذلك أننا إن سلمنا أن السيد « ب » كان يعرف أن هناك شخصا اسمه دكتور (Forsyth) ، وأنى كنت أنتظره بفيينا فى الخريف ، فكيف تسنى له أن يصبح « حساسا » لهذا الزائر يوم وصوله تحديدا وغب زيارته الأولى مباشرة ؟ قد يقال إنها محض مصادفة واتفاق ، أى ليس ثمة داع لتفسيرها . غير أنى ذكرت الخاطرين الآخرين اللذين عرضا للسيد « ب » لكى أستعيد فرض المصادفة بالذات ، ولكى أبين لكم أن مشاعر الغيرة كانت تساوره ، فى الواقع ، من أناس يزورونني أو أزورهم . فإن كنتم لا تريدون أن تغضوا النظر عن أى احتمال مهما كان بعيدا ، كان فى وسعنا أن نفترض أن السيد « ب » لاحظ أننى كنت فى حالة اهتياج غير عادى ، وهى حالة لم أكن أفطن إليها على التحقيق ، وأنه وصل إلى استنتاجه عن هذا الطريق . أو أن السيد « ب » — الذى وصل بعد ربع الساعة من خروج الرجل الإنجليزى — قد التقى به إلى جوار بيتى وعرفه من سيمائه الإنجليزية الطرازية . فقال لنفسه على التو ، ومشاعر الغيرة متحفزة فى نفسه من قبل : ورآه ، هذا هو دكتور (Forsyth) الذى يفيد مجيئه انتهاء علاجي بالتحليل ، وأكبر الظن أنه كان عند الأستاذ منذ لحظة » ... إلى غير تلك من الفروض التبريرية التى لا يسعنى أن أمضى فى سردها . وهكذا نخرج من الموضوع ، مرة أخرى ، وقد ران الغموض عليه . غير أنه يتعين على أن أعترف أننى أشعر بأن كفة التخاطر هى الراجحة فى هذه الحالة أيضا . والحق أنى لست الشخص الوحيد الذى التقى بظواهر « غيبية » فى مواقف التحليل النفسى . فقد خرجت علينا هيلين دويتش (Helene Deutsch) فى عام ١٩٢٦ ببضع ملاحظات من هذا القبيل ، ودرست الطريقة التى تنجم بها هذه الظواهر من صلة « الطرح »[1] التى تنشأ بين المريض والمحلل .

أنا على يقين أنكم غير راضين عن موقفى من هذه المعضلة : فهو موقف لا يقنعكم الإقناع كله ، ولا يشبعكم إن كنتم على استعداد للاقتناع . وربما قلتم لأنفسكم : « هذا مثل آخر لرجل كان طول حياته رجل علم لا يثنيه شيء عنه ، فلما تقدمت به السن أمسى واهن الذهن ، متدينا ، سريع التصديق » . وأعرف أن قولكم هذا يحق على بعض كبار الرجال ، غير أنه لا ينبغى لكم أن تحشرونى فى زمرتهم . فأنا على الأقل لم

---

(١) Transference

أصبح متدينا ، وأرجو ألا أكون قد أصبحت إمعة سريع التصديق ، والمرء لا ينحنى ظهره حيال الوقائع الجديدة فى عهد الكبر إلا متى ألف أن يحنى رأسه طول حياته حذرا من أن يصطدم بالواقع اصطداما أليما . ولا شك أنكم تؤثرون أن أستمسك باعتقاد معتدل بالله ، وأن أثور فى غير هوادة على كل شىء غيبى . لكنى لا أحفل باستجداء الرضا من أحد ؛ ويتعين على أن أقترح عليكم أنه ينبغى لكم أن تكونوا أكثر رفقا فى ظنكم بانتقال الخواطر ، ومن ثم بالإحساس عن بعد من حيث إمكان حصولهـا فى عالم الواقع الموضوعى .

ولا يعزب عن بالكم أنى لم أتناول هذه المشكلة هنا إلا على قدر ما يمكن معالجتها من ناحية التحليل النفسى . لقد اتجه تفكيرى إلى هذه المشكلة منذ أكثر من عشر سنين ، وكنت أخشى على نظرتنا العلمية أن يصيبها شىء منها ، وأن يتعين عليها أن تخلى الطريق لمناجاة الأرواح أو للتصوف إن ثبت بالدليل أن الظواهر الغيبية حق . غير أنى أعتقد الآن بما لم أكن أعتقد به من قبل ، ويلوح لى أننا لا نولى العلم ثقة كبيرة إذا لم نستطع أن نركن إليه فنقبل ونتناول كل فرض غيبى قد تثبت الأيام صحته . ويبدو بالفعل أن التخاطر بوجه خاص يعزز الأسلوب العلمى فى التفكير (والأسلوب الميكانيكى كما يقول الخصوم) إذ يتيح له أن يمتد حتى يشمل عالم النفس ، ذلك العالم المائع المليص . فالمفروض أن عملية الإحساس عن بعد تتلخص فى حدث نفسى يقع لشخص فيؤدى إلى ظهوره نفس الحدث فى شخص آخر . أما ما يتوسط الحدثين فقد يكون فى أكبر الظن عملية فيزيقية ، يتحول الحدث النفسى عند أحد طرفيها ، ثم يعود سيرته الأولى عند طرفها الآخر . ولهذا الأمر شبيه واضح فى التكلم والاستماع بالتليفون . فلئن تسنى لنا أن نظفر بهذا المكافئ الفيزيقى للحدث النفسى ، فهل تتصورون ما تنطوى عليه هذه النتيجة من مغزى ودلالة ؟ . وهنا أود أن أشير إلى أن التحليل النفسى قد مهد الطريق لقبول عملية الإحساس عن بعد وأمثالها ، بأن أدرج اللاشعور بين « الفيزيقى » وما اعتدنا أن نسميه إلى الآن « بالنفس » . ولئن ألفنا فكرة الإحساس من بعد ، كان فى وسعنا أن نعلل بها ظواهر كثيرة تعليلا لا يتجاوز فى الوقت الحاضر نطاق التصور الذهنى بطبيعة الحال . فنحن لا نعرف مثلا كيف تنشأ الإرادة الجمعية فى الحشرات التى تعيش فى جماعات ولعلها تحدث عن طريق اتصال نفسى من هذا النوع المباشر . كذلك قد يكون لنا أن نحدس أن هذا الاتصال كان الأسلوب الأثرى الأصيل للتفاهم

بين الأفراد بعضهم وبعض ، وهو أسلوب تراجع أثناء تطور النوع الإنسانى أمام أسلوب أفضل منه للتواصل ، ألا وهو أسلوب الرموز والعلامات التى تدرك بالحواس . غير أن مثل هذا الأسلوب العتيق لا يزال يفصح عن نفسه فى ظروف خاصة : كما هو الشأن مثلا فى الجماهير حين تستفز إلى حالة من التهيج الوجدانى الشديد . غير أن هذا كله لا يعدو أن يكون مداره النظر والتأمل المسرف ، كما أنه يزخر بكثير من مشكلات غير محلولة ، لكنه لا يدعو إلى الهلع والارتياع .

ولئن كان الإحساس عن بعد عملية واقعية ، فقد يكون لنا أن نفترض أنه ظاهرة عامة ، بالرغم من صعوبة إثبات وجودها . فإن تسنى لنا أن نبين أنه يحدث فى الحياة النفسية للأطفال بوجه خاص ، لكان فى هذا ما يتمشى مع ما ننتظره ونتوقعه . وفى هذا ما يذكرنا بالخوف المشاع بين الأطفال أن يعرف آباؤهم ما يجول فى نفوسهم من أفكار وخواطر دون أن يخبرهم بها أحد — وهو خوف شبيه من كل الوجوه باعتقاد الكبار الراشدين أن الله يحيط بكل شىء علما ، بل ربما كان مصدر هذا الاعتقاد . ومنذ عهد قريب أصدرت دوروثى برلنجهام (Dorothg Berlingham) وهى باحثة يوثق بها ، بضعة كشوف لها بعنوان « تحليل الطفل والأم »[1] ، وهى كشوف إن صحت ذهبت بما قد يكون لدينا من شكوك باقية عن واقعية التخاطر . فقد بدأت بحوثها بطائفة من الحالات (لم تعد نادرة اليوم) التى يجرى فيها التحليل على الأم والطفل فى الوقت نفسه ، وسجلت بضع ظواهر تسترعى الانتباه . من تلك أن إحدى الأمهات كانت تتحدث ذات يوم أثناء التحليل عن عملة ذهبية مثلت فى إحدى خبرات طفولتها . وما أن عادت إلى منزلها حتى ابتدرها ولدها على التو ، وكان فى العاشرة من عمره ، ومعه عملة ذهبية طلب إليها أن تحتفظ له بها . فدهشت لذلك وسألته أين وجدها ؟ لقد أهديت له هذه العملة فى عيد ميلاده ، منذ عدة شهور مضت ، ولم يكن ثمة داع لأن يتذكرها الطفل فى ذلك الوقت تحديدا . فذكرت الأم هذه الواقعة للمحللة ، وطلبت إليها أن تسأل الطفل عن السبب فيما فعل ، لكن تحليل الطفل لم يستطع أن يميط اللثام عن

---

(١) Child Analysis and the Mother

شيء ، وبدت الواقعة كأنها شيء غريب انسرب إلى ذهن الطفل فى ذلك اليوم . وبعد بضعة أسابيع كانت الأم جالسة إلى مكتبها تسجل هذه الواقعة ، فقد طلب إليها أن تفعل ذلك . وفى تلك اللحظة دخل عليها ولدها فسألها أن ترد إليه العملة قائلا إنه يريد أن يأخذها ليريها المحللة . ولم يستطع تحليل الطفل أن يكشف عن أصل تلك الرغبة ، فى هذه المرة أيضا .

بعد هذا نعود إلى ما بدأنا به — وهو دراسة التحليل النفسى .

المحاضرة الواحدة والثلاثون

تشريح الشخصية النفسية

سيداتى وسادتى : تعرفون من دون شك أن أول لقاء لكم بالناس أو بالأشياء يترك فى نفوسكم أثرا ذا أهمية خاصة . كذلك كان الشأن فى التحليل النفسى : فقد كانت نقطة البدء فيه دراسة العرض ، وهو أكثر شىء فى النفس غرابة فى نظر الأنا ، ومن ثم لم يكن التحليل بمنجاة من أثر ذلك — فى مراحل تطوره وفى الطريقة التى تلقاه الناس بها . إن العرض ينجم عما هو مكبوت ، فكأنه ممثل المكبوت عند الأنا ، إن صح التعبير . والمكبوت منطقة غريبة على الأنا ، منطقة باطنية أجنبية ، كما أن « الواقع » — وأعتذر عن هذه العبارة غير المألوفة — منطقة خارجية أجنبية . وقد شق التحليل طريقه من العرض إلى اللاشعور ، إلى حياة الغرائز ، إلى الوظيفة الجنسية ، وعندئذ عرضت للتحليل أوجه نقد بينة ، فحواها أن الإنسان ليس كائنا « جنسيا » فحسب ، بل إنه يتسم بمشاعر نبيلة سامية . وكان من الممكن أن يضاف إلى هذا أن إحساس الإنسان بهذه المشاعر الرفيعة هو ما جعله يعطى لنفسه الحق ، فى أغلب الأحيان ، فى أن يفكر تفكيرا لغوا وأن يتغاضى عن الوقائع .

بل تعرفون ما هو خير من هذا : فقد كان رأينا منذ البداية أن الناس يسقطون صرعى المرض من جراء صراع بين مطالب الغرائز عندهم وبين المقاومة الداخلية التى تقام فى وجهها . ولم يغب عن أذهاننا لحظة ذلك العامل الذى يقاوم ويرفض ويكبت ، والذى رأينا أنه ينهض مزودا بقوى خاصة : غرائز الأنا — ذلك العامل الذى يناظر الأنا فى علم النفس المألوف . وكانت الصعوبة التى عرضت لنا هى أن التحليل النفسى لم يستطع أن يدرس كل جوانب المجال دفعة واحدة ، أو أن يحكم على كل المشكلات فى نَفَس واحد ، لأن التقدم فى كل عمل علمى يقتضى بالضرورة كدا وعناء . وقد قطعنا آخر الأمر شوطا يمكننا من أن نحول اهتمامنا من العناصر المكبوتة إلى القوى الكابتة ، فإذا بنا نلتقى مواجهة بالأنا الذى كان يبدو أنه ليس فى حاجة إلى إيضاح كبير وكنا نتوقع توقعا أكيدا أننا سنلتقى ، هنا أيضا ، بأشياء لم تكن فى الحسبان . غير أنه لم يكن من

اليسير أن نجد طريقة مبدئية ندنو بها من الموضوع . وهذا ما سأحدثكم عنه اليوم .

وأود أن أخبركم ، قبل أن أبدأ ، بأنى أظن أن بيانى عن سيكولوجيا الأنا سيختلف وقعه فى نفوسكم عن وقع التمهيد الذى قدمت به لسيكولوجيا العالم السفلى المظلم الذى سبقه . فعلام هذا الاختلاف ؟ هذا ما لا أستطيع أن أجزم به . لقد فسرته أول الأمر بأنكم سوف تستمعون فى هذه المرة إلى نظريات على الأغلب ، أى إلى تأملات ، فى حين أنى كنت أحدثكم إلى الآن ، وفى المقام الأول ، عن وقائع ، مهما بدت مستغربة شاذة . غير أن هذا ليس عين الحق ، لأننى حين محصت الموضوع تمحيصا دقيقا ، اضطررت إلى التسليم بأن الدور الذى تقوم به المعالجة الفكرية للوقائع ليس أكبر بكثير فى سيكولوجيا الأنا التى نقول بها مما كان عليه فى سيكولوجيا الأمراض النفسية . ثم حاولت تفاسير أخرى ظهر أنها لا تستقيم كذلك . وأعتقد الآن أن المسئول عن هذا الاختلاف هو طبيعة المادة نفسها وأننا لم نألف تناولها ومعالجتها . ومهما يكن من أمر فلن يدهشنى أن تكونوا أكثر ترددا وحرصا فى أحكامكم عما كنتم عليه حتى الآن .

إن الموقف الذى نجد أنفسنا فيه فى مبتدأ بحثنا هذا هو الذى سيوحى إلينا بالطريق الذى ينبغى لنا أن نتبعه . فنحن نريد أن نجعل الأنا موضوع دراستنا ، لكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ إن الأنا هو « الذات » الخابرة الملاحظة فكيف يمكن أن يكون « الذات » و « الموضوع » فى آن واحد ؟ لا ريب فى أنه يستطيع أن يكون كذلك . فالأنا يستطيع أن يجعل من نفسه موضوعا ، وأن يعامل نفسه ككل موضوع آخر ، فيلاحظ نفسه ، وينقد نفسه ، ويعلم الله ما يستطيع أن يصنع بنفسه إلى جانب هذا . وفى مثل هذه الحال يقوم شطر من الأنا فى وجه الشطر الآخر . أى أن الأنا يستطيع أن ينشطر ، وهو ينشطر ، حين يؤدى كثيرا من وظائفه ، انشطارا مؤقتا على الأقل ، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان عليه . على أن ما نقوله هذا لا ينطوى على شىء جديد ، وربما لا يعدو أن يكون توكيدا لشىء يعرفه كل واحد منا . لكننا نعرف من جهة أخرى أن علم الأمراض يستطيع أن يبصرنا بظواهر سوية ما كان لنا أن نفطن إلى وجودها من دونه ، وذلك لما يعرضه علينا من حالات يكتنف أقطارها التضخيم والتهويل . فما يظهره لنا علم الأمراض شقا أو صدعا ، قد يكون مكانه رباطا أو حلقة فى الظروف العادية . ولو أننا رمينا ببلورة إلى الأرض وانكسرت فإنها لا تنكسر كيفما اتفق ، بل تنفلق وفقا لخطوط التشقق التى رسمت حدودها من قبل تبعا لبناء البلورة ، وإن كنا

لا نستطيع أن نراها . ومرضى العقول أبنية مفلوجة منشطية على هذا النحو ، لا يسعنا إلا أن نشعر إزاءهم بقدر من ذلك الرعب الذى كان الناس ينظرون به إلى المجانين فى العصور القديمة . فهم نفر أداروا ظهورهم للواقع الخارجى ، لكنهم لهذا السبب بعينه أكثر معرفة بالواقع النفسى الداخلى ، وفى وسعهم أن يخبرونا بالكثير مما يعز علينا مناله من دونهم . فمن هؤلاء فريق يعانون ما نسميه « هجاس الترصد »[1] : يشكون إلينا أنهم يعذبون على الدوام ، حتى فى أفعالهم الخاصة الحميمة ، من قوى أو أشخاص مجهولة تقف لهم بالمرصاد ، كما تتتابعهم هلاوس يسمعون فيها هؤلاء الأشخاص وهم يعلنون عن نتائج ترصدهم لهم : « سيقول الآن هذا الشىء ، سيرتدى ملابسه الآن ويخرج » إلى غير تلك . ومثل هذا الترصد ليس الاضطهاد بعينه ، لكنه غير بعيد عنه . على أنه يتضمن أن هؤلاء الأشخاص يرتابون فى المريض ، ويتربصون أن يقبضوا عليه وهو يرتكب فعلا محرما يعاقب عليه . فكيف يكون الحال إن كان هؤلاء المجانين على حق ، فكانت لدينا جميعا وظيفة راصدة فى أنواتنا تتهددنا بالعقاب ، غير أنها انفصمت عن الأنا عند هؤلاء انفصاما صارما ، وأسقطت خطأ على الواقع الخارجى ؟

لست أعرف ما إذا كانت هذه الفكرة تروقكم كما تروقنى . فقد اضطرتنى هذه الصور الكلينيكية الأخاذة أن أستنتج أن انفصال وظيفة راصدة من سائر الأنا ، قد يكون سمة سوية فى بناء الأنا ولم تفارقنى هذه الفكرة قط ، بل ساقتنى إلى البحث عن السمات والصلات الأخرى لهذه الوظيفة المنفصلة . ثم إن المضمون الفعلى لهجاس الترصد يجعلنا نظن أن الترصد ما هو إلا خطوة أولى فى سبيل الإدانة والعقاب ، بحيث يمكننا أن نحزر أن ما نسمه « بالضمير » لا بد أن يكون وجها آخر من أوجه نشاط هذه الوظيفة . ويندر أن يكون هناك شىء نفصله عن الأنا بهذا الاطراد ثم نقيمه فى وجهه بهذه السهولة كالضمير . فأنا أشعر بإغراء يدفعنى إلى فعل شىء أستشف من ورائه اللذة ، لكنى أمسك نفسى عن فعله لأن « ضميرى لا يسمح به » . أو آذن لنفسى فى الإتيان بفعل يتنافى مع ما يقوله ضميرى ، طمعا فى ضخامة اللذة المنتظرة ، فإذا ما فعلته لم أسلم من تبكيت الضمير ووخزه الأليم إذ يجعلنى ندمان أسفا على ما فعلت . لا أستطيع أن أقول ببساطة أن الوظيفة التى أنا بسبيل تمييزها من ثنايا الأنا ، هى

---

(١) Delusion of Observation

الضمير . لكنا نكون أكثر حرصا إن اعتبرنا أن لهذه الوظيفة كيانا مستقلا ، وافترضنا أن الضمير جانب من جوانب نشاطها ، وأن القوة الراصدة المراقبة التى تمهد بالضرورة للمظهر القضائى للضمير جانب آخر . وبما أن الاعتراف لشىء بأن له كيانا مستقلا يقتضى أن نعطى هذا الشىء اسما خاصا به ، فسأسمى هذه الوظيفة التى ينطوى عليها الأنا بالأنا الأعلى(١) .

أرانى على استعداد تام لأن أسمعكم تتساءلون فى ازدراء فتقولون : « وهل أتت سيكولوجيا الأنا التى ترفع قواعدها بأكثر من أن تناولت تجريدات الحياة اليومية بحرفيتها ، فضخمتها وأحالتها من معان كلية إلى أشياء — وهذا لا يغنى غناء كبيرا ؟ » . وردى على هذا أنه يشق علينا إذ نعرض لسيكولوجيا الأنا أن نتحاشى ما هو مألوف من قبل ، وأن المسألة لا تتلخص فى عمل كشوف جديدة بمقدار ما تتلخص فى الوصول إلى طرق جديدة للنظر إلى الأمور وفى تنظيم الوقائع تنظيما جديدا . لذا لن أطلب إليكم أن تذروا موقفكم الناقد ، بل أن تنتظروا ما سنتناول به الموضوع من تقليب وتفتيق . وفى الوقائع التى يزودنا بها علم الأمراض ما يعزز جهودنا تعزيزا من العبث أن تطلبوه فى علم النفس الدارج . وعلى هذا سأمضى فى عرض الموضوع : فما كدنا نألف فكرة الأنا الأعلى على أنه شىء ينعم باستقلال معين ، ويرمى إلى أهداف خاصة ، هذا إلى أنه مستقل عن الأنا من حيث الطاقة التى توجد قيد تصرفه — أقول ما كدنا نألف هذا حتى التقينا بصورة كلينيكية تبرز فى وضوح أخاذ صرامة هذه الوظيفة بل قسوتها ، وما تمر به صلاتها بالأنا من صروف وتقلبات . وأعنى بهذه الصورة حالة « السّواد »(٢) ، أو النوبة السوادية بعبارة أدق ، تلك النوبة التى لا شك قد سمعتم بها من قبل حتى إن لم تكونوا من أطباء العقول . إن أهم سمة تستوقف النظر فى هذا المرض الذى لا نزال بعيدين عن معرفة أسبابه وكيفية تكوينه ، هى الطريقة التى يعامَل بها الأنا من جانب الأنا الأعلى (وإن شئتم أن تسموه الضمير فافعلوا ولكن همسا) إن السوادى فى فترات صفوه يكون شأنه فى معاملة نفسه شأن غيره من الناس ، فقد يكون شديدا عليها بقدر كبير أو قليل ، غير أن أناه الأعلى يصبح ، حين تعتريه النوبة ، على جانب كبير من الصرامة والاعتساف ، فهو يسىء أناه التعس ويذله ويمتهنه ويتهدده بأشد أنواع

---

(١) Super-ego (٢) Melancholia

العقاب ، ويبكته على أعمال نسيها منذ عهد بعيد ولم يكن ينظر إليها إذ ذاك إلا هونا ، فكأن أناه الأعلى قد أنفق هذه الفترة بأسرها يحشد التهم والشكاوى وينتظر فضل قوته في الوقت الراهن ليدين بها الأنا . وهكذا يمسك الأنا الأعلى بالأنا في قبضته ويعامله وفق أشد المعايير الخلقية . والحق أنه يمثل متطلبات الأخلاق برمتها . وفي هذا ما يجعلنا ندرك على التو أن إحساسنا بالذنب الخلقي ما هو إلا إفصاح عن التوتر الذي يقوم بين الأنا والأنا الأعلى . على أن ما يسترعي الانتباه إلى حد بعيد أن نرى الأخلاق — التي وهبها الله لنا وغرزها في قلوبنا غرزا عميقا — تتحرك وتعمل كأنها ظاهرة دورية تذكو تارة وتخبو أخرى ، فما هي إلا أشهر معينة حتى ينتهي هذا الصخب الخلقي بأسره ، ويخفت صوت الأنا الأعلى الناقد ، وبذا يرد للأنا اعتباره وينعم مرة أخرى بجميع حقوق الإنسان حتى تأتي النوبة التالية . وقد يحدث عكس هذا تحديدا خلال الفترات في أشكال كثيرة من هذا المرض ، إذ يلفى الأنا نفسه في حالة وجد ومرح شديد ، وتصبح له اليد الطولى ، فكأن الأنا الأعلى فقد كل ما يملك من قوة ، أو كأنه اندمج في الأنا ، وإذا بذلك الأنا المتحرر الأهوس يستسلم استسلاما طليقا لإشباع كل رغباته . فيا لها من وقائع تزخر بألغاز لا تجد لها حلولا !

لقد ذكرت لكم أننا عرفنا الكثير عن تكون الأنا الأعلى ، أي عن أصل الضمير . ولا شك أنكم تنتظرون مني ألا أقف عند مثال واحد أسوقه لتعزيز ما ذكرت . لقد قال الفيلسوف كنط (Kant) ذات مرة أن لا شيء أثبت له عظمة الله إثباتا مقنعا أكثر من السموات ذات النجوم والضمير الخلقي الذي بين جوانحنا . ولا مراء في أن السموات شيء فاخر فخم ، أما الضمير فلم يوزع توزيعا عادلا بين الناس . فما أكثر الذين لم يتح لهم إلا نصيب محدود منه أو نصيب زهيد لا يكاد يذكر . على أن هذا لا يعني أننا نغفل عن ذلك الجانب من الحقيقة السيكولوجية الذي يتضمنه القول بأن الضمير ذو أصل إلـهي ، لكنه قول يحتاج إلى تفسير . فالضمير شيء يوجد بين جوانحنا ، ما في ذلك شك ، لكنه لم يكن مستقرا هناك من أول الأمر . فهو بهذا المعنى على عكس « الجنسية » (Sexuality) التي تنطوي عليها نفوسنا من بدء حياتنا على وجه التحقيق ، وليست شيئا يضاف إليها فيما بعد . ومن المعروف أن صغار الأطفال كائنات لا خلقية ، إذ ليست لديهم قوة داخلية تكف نزعاتهم إلى التماس اللذة . والدور الذي يضطلع به الأنا الأعلى في مستقبل الحياة ، تقوم به في أول الأمر قوة خارجية هي

سلطة الأبوين . أما نفوذ الوالدين فيحتكم فى الطفل عن طريق ما يبدونه له من العطف وما يتهددونه به من عقاب . والتهديد فى نظر الطفل معناه الحرمان من المحبة ، هذا إلى أنه يخشى فى ذاته .. إن هذا الحصر[1] الموضوعى هو طليعة الحصر الخلقى الذى يظهر فيما بعد . وما دام الأول هو الغالب المتحكم فليس ثمة مجال للكلام على الأنا الأعلى أو عن الضمير . أما الموقف الذى يتلو ذلك فيما بعد ، وهو ما نعتبره الحالة الطبيعية السوية ، فينجم عن « إدماغ »[2] القيود الخارجية ، وعلى هذا النحو يحل الأنا الأعلى محل وظيفة الوالدين . فإذا به يأخذ فى مراقبة الأنا وإرشاده وتهديده بعين الطريقة التى كان الوالدان يعاملان بها الطفل من قبل على وجه التحديد .

بيد أن الأنا الأعلى الذى يضطلع على هذا النحو بسلطة الوظيفة الوالدية وأهدافها بل وأساليبها ، ليس مجرد وصى على نفوذ الوالدين ، بل إنه وريث هذا النفوذ بالفعل . فهو يصدر عن هذا النفوذ مباشرة ، وسنرى عما قليل كيف يتسنى له ذلك . غير أننا يجب أن نراعى خاصية يختلف فيها عن الأبوين : تلك أن الأنا الأعلى يبدو منحازا فى اختياره ، فهو لا يأخذ عن الأبوين إلا ما بهما من شدة وصرامة وما يقومان به من ردع وعقاب ، فى حين يذر ما يتسمان به من عطف ورعاية . لا يشق علينا أن ندرك لم يكون الأنا الأعلى صارما متعنتا عند الطفل ، إذا كان الأبوان على جانب كبير من الشدة والاعتساف . غير أن شواهد الخبرة تشير إلى شيء لم يكن فى الحسبان ، وهو أن الأنا الأعلى قد ينشأ على درجة كبيرة من الجفوة والغلظة حتى إن كان الوالدان يرعيان الطفل بالرفق والتلطف ، ويبتعدان عن الوعيد والتهديد بالعقاب ما وسعهم الأمر . وسوف نعود إلى هذا التناقض فيما بعد حين نتناول موضوع تحول الغرائز فى تطور الأنا الأعلى .

ليس فى وسعى أن أحدثكم كما أريد عن تحول الوظيفة الوالدية إلى الأنا الأعلى ، لأن هذه العملية معقدة متشابكة بحيث أن وصفها لا يتلاءم مع أمثال هذه المحاضرات التمهيدية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأننا أصحاب التحليل لا نشعر أننا فهمناها حق الفهم . فعليكم إذن أن تقنعوا بالإشارات التالية : إن أساس هذه العملية هو

---

(١) (Anxiety) ضرب من الخوف والقلق الشديد (المترجم)

(٢) (Interjection) : امتصاص موضوعات العالم الخارجى وتمثيلها حتى تصبح جزءا من النفس . (المترجم)

ما نسميه « بالتقمص »[1] ، ونعنى بهذا أن يصبح الأنا على شاكلة أنا آخر ، بحيث يتصرف الأنا الأول ، من بعض الوجوه ، بنفس الطريقة التى يسلك بها الأنا الثانى ، فيحاكيه أو كأنه يسيغه فى نفسه . وقد شبه البعض هذا التقمص بإدماغ شخص لآخر عن طريق الفم ، وهو تشبيه موفق . والتقمص نوع هام جدا من الصلات التى تقوم بين شخص وآخر ، بل ربما كان أكثر الصلات بداوة ، على أنه يجب ألا يلتبس بما يعرف « باختيار الموضوع »[2] . وفى وسعنا أن نصور فرق ما بينهما على النحو الآتى : فحين يتقمص الولد شخص أبيه ، فإنه يود أن يكون مثل أبيه ، لكنه حين يجعله « موضوع اختياره » ، فإنه يريد أن يمتلكه ويستحوذ عليه . ففى الحالة الأولى يحور أنا الولد على غرار أبيه ، أما فى الحالة الثانية فليس من الضرورى أن يكون الأمر كذلك . فالتقمص واختيار الموضوع مستقل أحدهما عن الآخر بوجه عام ، لكن الشخص قد يتقمص شخصا آخر فيحور أنا تبعا لذلك ويتخذه فى الوقت نفسه موضوعا جنسيا له . ويقال إن تأثر الأنا بالموضوع الجنسى على هذا النحو هو على الأغلب من شيم النساء ، فهو من خصائص الأنوثة . لقد حدثتكم على التحقيق فى محاضراتى السابقة عن أبلغ صلة بين التقمص واختيار الموضوع ، وهى صلة لا يشق علينا أن نلحظها عند الأطفال وعند الكبار ، عند المرضى وعند الأصحاء جميعا . وفحواها أن الإنسان إن فقد موضوعا من موضوعات حبه أو اضطر إلى هجره ، فإنه غالبا ما يعوض هذا الحرمان بأن يتقمص شخص المفقود ، فإذا به يدمجه مرة أخرى فى طوايا أناه ، فكأن اختيار الموضوع فى هذه الحال ينكص إلى التقمص ويرتد إليه .

لست نفسى راضيا على الإطلاق عن هذا البيان الذى قدمته عن التقمص ، غير أنه يكفى أن سلمتم أن تكون الأنا الأعلى يمكن أن يوصف بأنه مثال موفق لتقمص الوظيفة الوالدية . والنقطة الحاسمة التى تعزز وجهة نظرنا هذه هى أن هذا الخلق الجديد لوظيفة سامية فى ثنايا الأنا مرتبط أوثق الارتباط بمصير عقدة أوديب بحيث يبدو الأنا الأعلى كأنه وريث تلك الرابطة الوجدانية ذات الأهمية البالغة فى عهد الطفولة . فحين تزول عقدة أوديب ، لا بد أن يهجر الطفل الشحنات الموضوعية الشديدة التى كان يفرغها على أبويه ، ولكى يعوض فقد الموضوع فى هذه الحال ، يزداد تقمصه لأبويه شدة وعنفا

---

(١) Identification

(٢) Object-choice

ـــ وهو تقمص يحتمل أنه كان يوجد من قبل . ومثل هذا التقمص الذى يمكن اعتباره من بقايا الشحنات الموضوعية المهجورة ، كثيرا ما يعاود الطفل فى حياته المستقبلة ، لكنه يكون من حيث أهميته الوجدانية متمشيا مع ما كابده الطفل من انفعالات فى فترة التحول الأولى ، بحيث يحتل نتاجه مكانا خاصا فى أنا الفرد . فإذا تعمقنا فى البحث اتضح لنا أن الأنا الأعلى لا يكتمل نموه وقوته إن لم يظفر الطفل ظهورا تاما موفقا على عقدة أوديب . كذلك يتأثر الأنا الأعلى إبان نموه بالأشخاص الذين يحلون مكان الأبوين ، أى من يكون لهم شأن فى تنشئته ومن يراهم نماذج مثلى . والعادة أن يزداد ابتعاد الأنا الأعلى باطراد عن الأبوين الأصليين ، أى أن يفقد شخصيته بالتدريج إن صح التعبير . ومما يجب ألا يعزب عن البال أن الطفل يختلف تقويمه لأبويه باختلاف مرحلته من النمو . ففى الوقت الذى تخلى فيه عقدة أوديب السبيل للأنا الأعلى ، يبدو له أبواه شخصين على جانب كبير من الروعة والجلال ، غير أنهما يفقدان كثيرا من الصيت الذى ينعمان به فيما بعد . ولا شك فى أنه يتقمص كذلك هذه النماذج التالية لوالديه ، بل ، ويستمد من ذلك على الدوام عناصر هامة فى تكوين خلقه ، غير أن هذا التقمص لا يؤثر إلا فى أناه وحده ، فهو لا يؤثر فى الأنا الأعلى الذى تحدده الصور اللاشعورية الأولى للأبوين .

أرجو أن تكونوا قد شعرتم أننى افترضت وجود أنا الأعلى ، كنت أصف تنظيما حقيقيا فى بناء النفس ، ولم يكن افتراضى مجرد تجسيم لشىء مجرد كالضمير . وعلينا الآن أن نعرض لجانب آخر من جوانب النشاط الهامة التى تعزى إلى الأنا الأعلى . فالأنا الأعلى هو ، فوق ما ذكرنا ، مطية « الأنا المثالى »[١] الذى يزن به الأنا نفسه ، ويسعى شطره ، ويجهد فى تحقيق مطالبه التى ترنو أبدا إلى الكمال . ولا شك فى أن هذا الأنا المثالى بقية من فكرة الطفل القديمة عن أبويه ، وتعبير عن الإعجاب الذى كان يشعر به إزاء ما كان يعزوه إليهما من كمال . أنا أعرف أنكم سمعتم الكثير عن الشعور بالدونية[٢] الذى يقال إنه مما يتميز به العصابيون . فهو مصطلح تزخر به الكتب التى تدعى النعرة الأدبية . والكاتب الذى يرد على قلمه ذكر « عقدة الدونية » يحسب أنه أرضى كل متطلبات التحليل النفسى ، بل سما بكتابته إلى مستوى سيكولوجى رفيع .

---

(١) Ego-ideal (٢) Sense of Inferiority

والحق أن مصطلح « عقدة الدونية » لا يكاد يستعمله أصحاب التحليل . وهو لا يشير إلى شيء من الأشياء التى نعتبرها بسيطة فضلا عن كونها بدائية . ويلوح لنا أن من الخطأ وقصور النظر أن نرده إلى إدراك الفرد عجزا عضويا أو عيبا آخر فيه ، كما يفعل أصحاب المدرسة التى تدعى « مدرسة علم النفس الفردى » . إن الشعور بالدونية يقوم على أساس شهوى قوى . فالطفل يشعر بهذا الشعور حين يدرك أنه غير محبوب . والأمر بالمثل عند الراشد الكبير . أما العضو الوحيد الذى يعتبر دونا حقا هو القضيب الموقوف النمو — أى بظر البنت . على أن الشطر الأكبر من الشعور بالدونية ينشأ من صلة الأنا بالأنا الأعلى ، وهو — كالشعور بالذنب — تعبير عن التوتر بينهما . ولنذكر أن التمييز بين الشعور بالدونية والشعور بالذنب أمر عسير غاية فى العسر . وربما كان من الخير أن ننظر إلى الأول على أنه المتمم الشهوى للشعور بالدونية بالخلقية . بيد أننا لم نلق بالا كبيرا إلى التفرقة بين أمثال هذه المفهومات فى التحليل النفسى .

وبما أن عقدة الدونية أصبحت شيئا مألوفا يدور على ألسنة الناس ، فسأجترئ على أن أستطرد بكم استطرادا قصيرا . إن إحدى الشخصيات التاريخية فى وقتنا الحاضر ، والتى لا تزال على قيد الحياة وإن كانت قد اعتزلت الدنيا ، تعانى نموا مشوها فى أحد أطرافها ، نجم عن إصابة عند الولادة . وقد تناول حياة هذه الشخصية أحد الكتاب المعاصرين من ذوى الصيت البعيد ، وممن يؤثرون الكتابة عن سير مشهورى الرجال . والكاتب حين يعالج السير ، فمن الطبيعى أن يجد صعوبة كبرى فى أن يكبح نزعته إلى التفهم السيكولوجى . لذا حاول هذا الكاتب أن يقيم خلق هذه الشخصية ونمو هذا الخلق بأسره على أساس من شعور بالدونية نجم عن عاهته الجسمية . بيد أنه غفل عن واقعة صغيرة لكنها ليست هامة . فقد جرت العادة أن تحاول الأمهات اللاتى يمتحنهن القدر بأطفال سقام أو ذوى عاهة أن يعوضن هذا الجور بأن يفرغن على أطفالهن فضلا كبيرا من العطف والمحبة . غير أن الأم المتكبرة فى الحالة التى نحن بصددها كان سلوكها يختلف كل الاختلاف عن أمثال غيرها من الأمهات ، فقد ضنت بعطفها على طفلها لما به من عاهة . فلما شب الطفل وأصبح رجلا ذا حول وقوة ، كان سلوكه دليلا لا يرقى إليه الشك على أنه لم يصفح قط عن أمه . فإذا ذكرتم ما لعطف الأم من أهمية وأثر فى الحياة النفسية ، لم يشق عليكم أن تصححوا ما جاء به كاتب السيرة عن نظرية الدونية .

ولنعد إلى الأنا الأعلى . لقد عزونا إليه ثلاثة وجوه للنشاط : مراقبة الذات ، وإقامة المثل العليا ، والضمير الخلقى . ويترتب على بياننا عن منشئه إنه يرتكز على واقعة بيولوجية غاية فى الخطورة لا تقل وزنا عن واقعة سيكولوجية ذات أهمية جسيمة : ونعنى بهما طول اعتماد الطفل على أبويه ، وعقدة أوديب . يضاف إلى هذا أن هاتين الواقعتين ترتبط إحداهما بالأخرى ارتباطا وثيقا . إن الأنا الأعلى ، فى نظرنا ، ممثل جميع القيود الخلقية ، والمتكلم بلسان النزعة إلى الكمال ، وعلى الجملة فهو يمثل من الناحية النفسية ما ألف الناس أن يسموه الصفات « السامية » فى الحياة الإنسانية . وبما أنه يمكن رجعه إلى تأثير الأبوين والمدرسين وغيرهم ، ففى وسعنا أن نزداد علما بدلالته إذا نحن وجهنا اهتمامنا إلى هذه المصادر . إن الآباء ومن يشبههم فى النفوذ ، يسيرون فى تنشئة الأطفال ، عادة ، بإملاء من أنواتهم العليا . وسواء كانت الصلة بين أنواتهم وأنواتهم العليا صلة ود أو صلة شقاق فهم ينهجون فى تربية الطفل منهج التشدد والتعنت . ذلك أنهم نسوا الصعوبات التى ارتطموا بها فى طفولتهم الخاصة ، يسرهم أن يكونوا قادرين آخر الأمر على تقمص آبائهم تقمصا تاما ، وقد أخضعهم آباؤهم لأمثال هذه القيود الصارمة يوم كانوا أطفالا . ونتيجة هذا ألا يبنى الأنا الأعلى للطفل على غرار أبويه ، فى الواقع ، بل على غرار الأنا الأعلى لأبويه ، فيتناول نفس مضمونه ، ويصبح حامل التقاليد وجميع القيم السالفة التى انحدرت إلينا على هذا النحو من جيل إلى جيل . ولعله لا يشق عليكم أن تحدسوا ما يمكن أن يقدمه لنا اعترافنا بالأنا الأعلى من عون كبير يتيح لنا فهم السلوك الاجتماعى للإنسان ، كفهم مشكلة الجناح مثلا ، بل ربما زودنا أيضا ببعض الإرشادات العملية فى التربية . وأكبر الظن أن ما يسمى « بالتفاسير المادية للتاريخ » قد أخطأت إذ غضت من شأن هذا العامل . فهى تزيح هذا العامل جانبا ، قائلة إن « فكريات » النوع البشرى ليست إلا حواصل للموقف الاقتصادى فى وقت معين أو صروحا ثانوية شيدت فوقه . هذا حق ، لكنه فى أكبر الظن ليس الحق كله . فالنوع البشرى لا يعيش بكليته فى الحاضر إطلاقا ، إذ أن فكريات الأنا الأعلى ووجهات نظره تديم الماضى وتقاليد القوم والسلالة ، والماضى لا يستسلم لتأثير الحاضر والتطورات الجديدة إلا فى بطء . وما دام الماضى عن طريق الأنا الأعلى ، فهو يقوم بدور هام فى حياة الإنسان ، مستقلا تمام الاستقلال عن الظروف الاقتصادية .

لقد حاولت فى عام ١٩٢٠ أن أطبق هذا التمييز بين الأنا والأنا الأعلى فى دراسة نفسية الجماعات ، فظفرت بالنتيجة الآتية : الجماعة السيكولوجية مجموعة من الأفراد أدمجوا شخصا بعينه فى أناهم الأعلى ، فتقمص بعضهم بعضا فى الأنا على أساس هذا العامل المشترك . وهذا لا ينطبق بطبيعة الحال إلا على الجماعات التى يترأسها زعيم . فلئن تسنى لنا أن نقع على أمثلة أخرى من هذا النوع ، لم يعد لفرض الأنا الأعلى تلك الغرابة التى تبدو بها فى أعيننا ولأذهب عنا كل الارتباك الذى لا يسعنا إلا أن نشعر به حين نجوب المستويات السطحية العليا من الجهاز النفسى ، بعد أن طفنا جوه السفلى . ومن الجلى أننا لا نظن إطلاقا أننا قلنا الكلمة الأخيرة عن سيكولوجيا الأنا حين رسمنا حدود الأنا الأعلى . بل الأصح أن تكون تلك بداية الموضوع ، غير أن الصعوبة ليست وقفا على الخطوة الأولى وحدها فى هذه الحال .

على أن هناك مسألة أخرى تنتظر منا إيضاحا ، وهى مسألة تقع فى الطرف المضاد للأنا إن صح التعبير ، وتستثيرها ملاحظة قديمة تعرض أثناء التحليل ، هذا إلى أنها لم تقدر حق قدرها إلا بعد زمن طويل ، كما هو الشأن غالبا فى غيرها من المسائل . تعرفون أن نظرية التحليل النفسى بأسرها تقوم فى الواقع على إدراك المقاومة التى يبديها المريض حين نحاول أن نجعله يفطن إلى الخبىء فى لا شعوره . والشاهد على هذه المقاومة إما أن يكون « موضوعيا » وهو إقصار مستدعيات المريض أو شرودها عن النقطة التى نكون بصدد مناقشتها ، وإما أن يكون « ذاتيا » فيحس المريض بمشاعر أليمة حين يقترب من هذه النقطة . غير أن هذا الدليل الذاتى قد لا يكون له أثر . إذ ذاك نقول للمريض إننا نستنتج من سلوكه أنه فى حالة مقاومة ، فيجيب بأنه لا يعرف شيئا عنها ، وكل ما هنالك أنه يشعر بصعوبة فى الاستدعاء . وقد بينت لنا الخبرة أننا على حق . لكن الأمر إن كان كذلك فلا بد أن تكون هذه المقاومة ، هى الأخرى ، لا شعورية كالمواد التى نحاول استدراجها إلى السطح . وقد كان يتعين علينا منذ عهد طويل أن نتساءل عن جانب النفس الذى يمكن أن تصدر عنه هذه المقاومة اللاشعورية . أما الشادى فى التحليل النفسى فيجيبنا من فوره بأنها لا بد أن تكون مقاومة اللاشعور . لكنه جواب مبهم لا غناء فيه ! فإن كان يفيد أن المقاومة تنشأ من المكبوت ، أجبنا بأن هذا غير ممكن يقينا ! ذلك أن المكبوت من شأنه أن يندفع اندفاعا قويا إلى أعلى ليقتحم الشعور ، فالمقاومة لا يمكن أن تكون إلا مظهرا من مظاهر الأنا الذى قام بالكبت فى وقت من

الأوقات ، وهو يجهد الآن فى الإبقاء عليه . وقد كان هذا رأينا دائما . أما وقد حددنا وظيفة خاصة فى ثنايا الأنا تمثل التقييد والنبذ — وهى الأنا الأعلى — ففى وسعنا أن نقول إن الكبت من فعل الأنا الأعلى . وهو إما أن يقوم به بذاته ، أو يمليه على الأنا إملاء . فإذا نظرنا الآن فى حالة المريض الذى يشعر بالمقاومة أثناء التحليل ، ألفينا أنفسنا بصدد احتمالين : أحدهما أن الأنا الأعلى والأنا يستطيعان أن يعملا لا شعوريا فى بعض الظروف الخطيرة ، والآخر — وهو أبعد فى دلالته بكثير من الأول — أن جوانب من الأنا ومن الأنا الأعلى نفسيهما تبقى لا شعورية . وفى كلتا الحالين يتعين علينا أن نأخذ برأى لا نبتهج به ، وهو أن الأنا (ويشمل الأنا الأعلى) لا ينطبق انطباقا تاما على الشعور ، وأن المكبوت لا يستغرق كل اللاشعور .

سيداتى وسادتى : أشعر الآن بضرورة الوقوف لحظة نستجم فيها ، وهى لحظة إخالكم ترحبون بها . ويتعين على قبل أن أمضى أن أستميحكم عذرا : إنى أقدم لكم الآن تكملة للتمهيد إلى التحليل النفسى ، ذلك التمهيد الذى حاضرت فيه منذ خمسة عشر عاما . وها أنا ذا أرانى مضطرا إلى أن أخاطبكم كأنكم لم تشغلوا أنفسكم فى هذه الفترة بشىء غير التحليل . وأعرف أنه افتراض مروع لكن لا حيلة لى فيه ولا خيار له فى غيره . وعلة هذا أن من العسير جدا أن تبصر بالتحليل النفسى أحدا لا يكون نفسه محللا نفسيا . وأؤكد لكم أننا لا نحب أن يخرج الناس عنا بأننا أعضاء جمعية سرية تشترك فى علم سرى . ومع هذا فقد اضطررنا إلى أن نعترف وأن ننشر على الملأ أن أحدا لا يحل له أن يتدخل فى شئون التحليل إلا إذا ظفر بخبرات وأفكار معينة لا يمكن أن تتاح له إلا إذا أجرى عليه التحليل نفسه . لقد حاولت أن أعفيكم من بعض النواحى التأملية فى نظريتنا حين كنت أتحدث إليكم منذ خمسة عشر عاما ، غير أن هذه النواحى بعينها ترتبط بكشوف جديدة هى ما سأحدثكم عنه اليوم .

ولنعد إلى موضوعنا الأول . لقد قلنا إننا بصدد احتمالين : أن يكون الأنا والأنا الأعلى نفساهما لا شعوريين ، أو أن الأمر لا يعدو أنهما يحدثان آثارا لا شعورية . ولدينا من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على تأييد الاحتمال الأول . فمن المؤكد أن جوانب كبيرة من الأنا والأنا الأعلى يمكن أن تبقى لا شعورية ، بل إنها فى الواقع لا شعورية عادة . وهذا يعنى أن الفرد لا يعرف شيئا عن محتوياتها ، ولا بد من جهد وعناء حتى يفطن إليها ويشعر بها . فحق لنا إذن أن نقول إن الأنا والشعور غير متساويين

فى المجال . والأمر بالمثل بين المكبوت واللاشعور . وهكذا نجد أنفسنا مضطرين إلى إعادة النظر فى تصورنا مسألة الشعور واللاشعور برمتها . وربما نميل فى بادئ الأمر إلى أن نغض من شأن الشعور فلا نتخذه معيارا ، فقد ثبت أنه لا يمكن الاعتماد عليه والركون إليه . غير أننا إن فعلنا هذا كنا خاطئين . مثل ذلك كمثل الحياة : إذ ليست لها قيمة كبيرة لكنها كل ما نملك . فلو لم نستأنس بالضوء الذى تلقيه الأحوال الشعورية ضللنا فى ظلمات سيكولوجيا الأعماق . ومع هذا فقد وسعنا أن نوجه أنفسنا فى هذا الميدان توجيها آخر .

فأما ما يقصد بالحالة « الشعورية » فلسنا بحاجة إلى مناقشته إذ لا يرقى إليه أى شك . وأما « اللاشعورى » فلن أقدم معنى له وأحسنه هو المعنى الوصفى . فنحن نصف العملية النفسية بأنها « لا شعورية » حين لا نفطن إليها مباشرة بل نضطر إلى افتراض وجودها استنتاجا من آثارها ونتائجها على نحو ما . فموقفنا من هذه العملية كموقفنا من عملية نفسية تحدث لشخص آخر ، إلا أنها تنتمى إلينا نحن . وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة فى التعبير ، لزم أن نحور التعريف السابق ، فنقول إننا نصف العملية بأنها « لا شعورية » حين يتعين علينا أن نفترض أنها كانت نشطة فعالة فى لحظة ما ولو أننا لم نكن نعرف عنها شيئا فى تلك اللحظة . ويذكرنا هذا التحديد بأن أغلب العمليات الشعورية لا تكون شعورية بالفعل إلا لبرهة قصيرة ، وإنها لا تلبث أن تصير كامنة ولو أنها تستطيع فى سهولة أن تصبح شعورية مرة أخرى . كذلك نستطيع أن نقول إنها أمست لا شعورية إن كنا على يقين أنها لا تزال شيئا نفسيا حين تكون فى حالة الكمون . على أننا إلى هذا الحد لم نتعلم شيئا جديدا ، بل ولم يكن لنا الحق فى إدراج فكرة اللاشعور فى علم النفس . لكن بين أيدينا الآن حقيقة جديدة نستطيع أن نلحظها فى حالة الهفوات . فلكى نفسر فلتة لسان مثلا ، نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نفترض أن نفس المتكلم تنطوى على قصد إلى قول شىء معين . ونحن نستطيع أن نستنتج وجود هذا القصد عن يقين من حدوث الفلتة ، لكنه كان عاجزا عن الإعراب عن نفسه ، أى أنه كان لا شعوريا . فإذا لفتنا نظر المتكلم إلى هذا القصد ، فقد يتعرفه ولا ينكره . وفى هذه الحالة نقول إنه كان لا شعوريا بصورة وقتية . وقد يرفضه وينكره على أنه شىء غريب عنه . وفى هذه الحالة نقول إنه كان لا شعوريا بصورة دائمة — وإن أمثال هذه الملاحظات تسمح لنا أن نصف الشىء الذى كنا نسميه « بالكامن » بأنه شىء

« لا شعورى » . على أن النظر فى هذه العلاقات الديناميكية يحملنا على أن نميز بين نوعين من اللاشعورى : نوع يصبح شعوريا فى سهولة ويسر وفى ظروف كثيرة ، ونوع لا يتسنىٰ له أن يصبح شعوريا إلا بعد جهد وعناء كبيرين ، وقد لا يصبح شعوريا ألبتة . ولكى نتحاشى اللبس والتخليط أى هذين النوعين من اللاشعورى نريد ، وهل نحن نستخدم الكلمة بالمعنى الوصفى أو بالمعنى الديناميكى ، سنسمى اللاشعورى الذى هو كامن فحسب « القبشعورى »[1] ، وسنحتفظ بكلمة « اللاشعورى » للنوع الآخر . وعلى هذا يكون لدينا الآن ثلاثة مصطلحات تفى بأغراضنا فى وصف الظواهر النفسية: « الشعورى » و « القبشعورى » و « اللاشعورى ». ونشير مرة أخرى إلى أن « القبشعورى » لا شعورى أيضا من الناحية الوصفية المحضة ، لكننا لا نسميه كذلك إلا حين لا نراعى الدقة فى التعبير أو حين يتعين علينا أن ندافع عن وجود عمليات لا شعورية فى الحياة النفسية .

أرجو ألا يكون فيما ذكرته إلى الآن وعورة وحرج ، وأن يعيننا على مواجهة هذا الموضوع بصورة واضحة ملائمة . غير أنه مما يؤسف له أن التحليل النفسى اضطر إلى استخدام كلمة « اللاشعورى » بمعنى ثالث مما أدى إلى شىء من اللبس والإبهام . إن التحليل حين بهرنا بكشفه أن النفس تنطوى على مناطق كبيرة هامة لا يفطن الأنا إلى ما يجرى فيها عادة ، بحيث يتعين اعتبار العمليات التى تحدث فيها لا شعورية بالمعنى الديناميكى الحقيقى لهذ الاصطلاح ، لم يكن ثمة بد من أن ننسب إلى اصطلاح « اللاشعور » معنى طبوغرافيا أو نظاميا[1] ، فتكلمنا عن النظام القبشعورى والنظام اللاشعورى ، وعن صراع بين الأنا والنظام اللاشعورى ، بحيث أخذت كلمة « اللاشعورى » تقترب تدريجا فتفيد معنى المنطقة النفسية أكثر مما تعنى صفة العمليات النفسية . ولما اكتشفنا أن جوانب من الأنا ومن الأنا الأعلى لا شعورية بالمعنى الديناميكى ، كان هذا الكشف مبعث ارتباك لنا فى أول الأمر ، لكنا عرفنا فيما بعد أنه كشف ييسر الأمور ويزيل ما بها من تعقيد . وغنى عن البيان أنه لا يجوز لنا أن نسمى المنطقة التى ليست أنا وليست أنا أعلى بالنظام اللاشعورى لأن صفة اللاشعورية غير مقصورة عليها . ومن ثم فلن نعود نستخدم كلمة « اللاشعورى » بالمعنى النظامى ،

---

(١) Systematic

وسنطلق على ما درجنا أن نسميه إلى الآن بهذا الاسم اصطلاحا أفضل لا يكون مدعاة للبس وسوء الفهم ، هو اصطلاح الهى[1] . وهو اصطلاح اقترحه جرودِك (Groddeck) مستعيرا إياه من نيتشه . والحق أن استعمال ضمير الغائب فى هذا المكان يبدو مواتيا بوجه خاص للتعبير عن الصفة الجوهرية لهذه المنطقة من النفس — وهى كونها غريبة عن الأنا . وهكذا يكون لدينا الأنا الأعلى ، والأنا ، والهى : ثلاث مناطق أو مجالات نقسم إليها الجهاز النفسى للفرد ، وسنبحث فيما يلى عن العلاقات المتبادلة بينها .

بيد أنه يتعين على أن أستطرد قليلا قبل أن أمضى فى الحديث ، فلست أشك فى أنكم لا تسيغون بعض ما سمعتموه ، وهو أن الصفات النفسية الثلاث بالنسبة إلى الشعور لا تلتقى مع المناطق الثلاث للجهاز النفسى أزواجا ثلاثة متساوقة ، وهذا من شأنه ألا يجعل نتائجنا من الوضوح ما نرجو . وعندى أنه لا ينبغى لنا أن نبتئس بهذه الواقعة ، بل يتعين علينا أن نقول لأنفسنا أن ليس لنا الحق فى أن نتوقع مثل هذا الترتيب المحكم التنظيم . فدعونى أقدم لكم تشبيها . والحق أن التشبيهات لا تبرهن على شىء ، لكن فيها تقريبا إلى الأذهان : لنتصور قطرا من الأقطار ذا صورة جغرافية منوعة من سهول وتلال وسلاسل من البحيرات ، تقطنه جنسيات مختلفة من ألمان ومجريين وسلوفاكيين يزاولون أعمالا مختلفة . ولنفرض أن الألمان يعيشون فى التلال ويربون الماشية ، وأن المجريين منتشرون فى السهول يزرعون الغلال ويصنعون النبيذ ، فى حين يلزم السلوفاكيون شطوط البحيرات يصطادون السمك ويجدلون القصب والغاب . فلو صح أن توزيع السكان كان دقيقا مضبوطا على هذا النحو ، فإنه لا شك يرضى رجلا من أمثال الرئيس ولسن تمام الرضا ، كما أنه ييسر تدريس الجغرافية . غير أننا إن وزنا هذا القطر ، فأكبر الظن ألا نجده على مثل هذا التوزيع المحكم ، إذ قد تكون هذه الجنسيات الثلاث مختلطا بعضها ببعض فى كل مكان ، وقد ترون حقول الغلال فى التلال أيضا ، والماشية ترعى فى السهول كذلك . على أنكم ستجدون شيئا أو شيئين مما كنتم ترقبون . فالسمك لا يمكن أن يصاد من الجبال ، والكروم لا يمكن أن تنمو فى

---

(١) Id

الماء . وهكذا قد تكون الصورة التى تخرجون بها من زيارة هذا القطر مما تتفق فى جملتها مع الوقائع ، لكنكم إن نظرتم إليها فى تفاصيلها فسوف تحتملون ما بها من تغيير وتحوير فى غير ضيق أو تبرم .

لا تنتظروا أن أخبركم بالكثير مما هو جديد عن « الهى » إلا أن يكون اسمها . فهى الجانب الغامض البعيد المنال من شخصيتنا ، عرفنا القليل عنها من دراسة إخراج الحلم وتكوين الأعراض العصابية ، وأغلب هذا القليل ذو طابع سلبى ، لا يمكن أن يوصف إلا عن طريق مباينته بالأنا . على أننا نستطيع أن نكون لأنفسنا فكرة عن الهى بفضل بعض التشبيهات فنقول إنها عماء[1] أو إنها مرجل من سورات تغلى . ونحن نفترض أنها تتصل اتصالا مباشرا بعمليات بدنية فى مكان ما ، تأخذ منها الحاجات الغريزية وتعطى هذه الحاجات تعبيرا نفسيا . على أننا لا نملك أن نقول فى أية طبقة يحدث هذا الاتصال . فالغرائز تحشدها بالطاقة ، لكننا لا نلمس فى الهى أى تنظيم أو إرادة عامة موحدة ، وكل ما هنالك أنها تندفع لإشباع حاجاتها الغريزية وفاقا لمبدأ اللذة . وإن قوانين المنطق — وأولها قانون عدم التناقض — لا تسرى على العمليات التى تجرى فى الهى . فالنزعات المتناقضة توجد فيها جنبا إلى جنب دون أن يعادل بعضها بعضا أو أن ينسحب بعضها جانبا . وأكثر ما تستطيع أن تتجمع فى تكوينات ودية بتأثير الضغط الاقتصادى الغالب طلبا لتفريغ طاقتها . وليس فى الهى شىء يمكن أن يقارن بالسلب والنفى ، كما يدهشنى أن نجد فيها استثناء لما يسلم به الفلاسفة من أن الزمان والمكان صورتان ضروريتان لأفعالنا النفسية . فليس فى الهى شىء يناظر فكرة الزمن ، كما أنها لا تعترف بمرور الزمن ، ومما يستوقف النظر بوجه خاص ، ويستأهل التفاتة خاصة من التفكير الفلسفى أن مرور الزمن لا يغير من العمليات النفسية فيها . فالنزعات التى لم يتح لها قط أن تجتاز نطاق الهى ، وحتى الانطباعات التى طردت فكبتت فيها، كل تلك تخلد هناك بالقوة ، وتبقى على ما هى عليه عقودا بأسرها كما لو كانت حدثت منذ عهد قريب ، ولا سبيل إلى معرفة انتسابها إلى الماضى ، وإلى انتزاعها من دلالتها ، وامتلاخها من شحنتها من الطاقة ، إلا بعد أن يستدرجها التحليل فيجعلها شعورية . ولنذكر أن التأثير العلاجى للتحليل يرتكز على هذا الإجراء إلى حد غير قليل .

ومما يساورنى على الدوام أن نظريتنا لم تستغل هذه الظاهرة التى لا نزاع فيها إلا على

---

(١) Chaos

قلة وندور ؛ وهى أن المكبوت يبقى على ما هو دون أن يصيبه تغيير بمرور الزمن . ويبدو أن فيها ما يمكننا من الدنو من حقائق عميقة بعيدة الغور حقا ، غير أنى لم أخط إلى الأمام فى هذا السبيل أكثر مما فعلت .

وغنى عن البيان أن الهى لا تعرف شيئا عن الأحكام التقويمية ، عن الخير والشر ، وعن معايير الأخلاق . فالعامل الاقتصادى أو العامل الكمي إن شئتم ، الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بمبدأ اللذة هو الغالب فى جميع عملياتها . وكل ما تحتويه الهى ، فى رأينا ، شحنات غريزية تلتمس التفريغ . ويبدو أن طاقة هذه النزعات الغريزية توجد فى حالة تختلف عن الحالة التى توجد عليها فى المناطق الأخرى من النفس ، أى أنها تكون أكثر ميوعة وأكثر قابلية لأن تفرغ من شحناتها ، وإلا لم تكن الهى قادرة على ضروب « النقل » و « التكثيف » التى تتميز بها ، والتى تكون مستقلة كل الاستقلال عن صفات الأشياء المشحونة بالطاقة (تسمى هذه المشحونات متى كانت فى الأنا بالأفكار Ideas) . فيا حبذا لو صحت الأحلام فجلونا هذه الأمور وتسنى لنا أن نزداد لها فهما واستيعابا ! ومع هذا فها أنتم أولاء ترون أننا نستطيع أن نعزو إلى الهى خصائص أخرى غير صفتها اللاشعورية ، وأنه من الممكن أن تكون جوانب من الأنا والأنا الأعلى لا شعورية لكنها لا تتصف بتلك الصفات البدائية غير الرشيدة الذى ذكرت منذ لحظة . أما فيما يتصل بخصائص الأنا ، ومدى ما يمكن أن يتميز به عن الهى والأنا الأعلى ، فالسبيل إلى تصورها هو أن ندرس الصلات القائمة بينه وبين أعلى طبقة فى الجهاز النفسى ، وهى الجزء الذى نسميه (بالنظام الإدراكى الشعورى) . هذا النظام الإدراكى يتجه شطر العالم الخارجى ، وينقل الانطباعات التى تستقبل منه ، وأثناء عمله تنشأ ظاهرة الشعور . فهو العضو الحساس للجهاز كله : لا يقف عمله عند استقبال التنبيهات الآتية من خارج فحسب ، بل إنه يستقبل التنبيهات التى تصدر من داخل النفس أيضا . ولا نكون خاطئين إن اعتبرنا الأنا جانبا من الهى أصابه التحوير لمجاورته العالم الخارجى . فكأن تأثير العالم الخارجى فى هذا الجانب شبيه بطبقة اللحاء التى تحيط بها الهتامة من المادة الحية نفسها — وهو تأثير من شأنه إدراك التنبيهات ووقاية الكائن الحى منها . وقد أصبحت هذه الصلة بالعالم الخارجى ذات أهمية بالغة للأنا ، إذ أصبح الأنا يضطلع بمهمة تمثيل هذا العالم لدى الهى ، ومن ثم فهو يحميها ويدرأ عنها الخطر . ذلك أن الهى تخبط خبط عشواء فى سبيل إشباع غرائزها دون أن تعمل حسابا

ألبتة لعنف القوى الخارجية ، فلو لم يحمها الأنا تعرضت للتهلكة . ويتعين على الأنا فى قيامه بهذه الوظيفة أن يلاحظ العالم الخارجى ، وأن يحتفظ بصورة صادقة منه فى الذكريات التى يخلفها إدراكه ، كما يتعين عليه أيضا — بفضل اتصاله بالواقع — أن يستبعد كل عنصر فى هذه الصورة من شأنه أن يضخم مصادر التهييج الداخلية . ثم إن الأنا ينوب عن الهى فى الإشراف على منافذ الحركة ، لكنه يوسط التفكير بين الرغبة والفعل ، وهذا عامل من شأنه تأجيل الفعل وإرجاؤه ، يستغل الأنا أثناءه بقايا الخبرات المختزنة فى الذاكرة . وعلى هذا النحو يعزل الأنا مبدأ اللذة الذى يحكم عمليات الهى غير منازع ، ويستبدل به مبدأ الواقع الذى يعد بنجاح أكبر ويكفل طمأنينة أكبر .

وبفضل « النظام الإدراكى » تقوم بين الأنا وبين الزمن تلك الصلة التى يشق وصفها . فمما لا يكاد يرقى إليه الشك أن الكيفية التى يعمل بها هذا النظام هى مصدر فكرة الزمن . على أن ما يتميز به الأنا عن الهى ويضادها فيه بوجه خاص ، هو نزوعه إلى التأليف بين محتوياته وتلخيص عملياته النفسية وتوحيدها . وهذا شىء تعجز عنه الهى عجزا باتا . وأرجو أن نوفق إلى تأثر هذه الخاصة الجوهرية للأنا إلى مصدرها حين تتناول موضوع الغرائز فى الحياة النفسية عما قليل . فهذه الخاصة وحدها هى التى تتيح له تلك الدرجة الرفيعة من التنظيم التى يحتاج إليها فى القيام بأرقى أعماله . ذلك أن الأنا ترقى وظيفته من إدراك الغرائز إلى ضبطها ، غير أن ضبط الغرائز لا يمكن أن يتم إلا إذا خضع الممثل النفسى للغريزة لتنظيم أكبر ووجد مكانه فى وحدة متماسكة . ونحن نقول فى اللغة الدارجة أن الأنا يمثل جانب الحكمة والتحذر ، فى حين أن الهى تمثل الشهوة والأهواء غير المروضة .

لقد ظللنا نتحدث إلى الآن عن مزايا الأنا وقدراته ، وقد آن الوقت أن ننظر إلى الوجه الآخر من الصورة . ليس الأنا فى الواقع إلا جزءا من الهى أصابه تحوير غائى لمجاورته أخطار العالم الخارجى . وهو من الناحية الديناميكية ضعيف ، يستعير طاقته من الهى ، ونحن لا نجهل ألبتة تلك الأساليب — نكاد نسميها « الحيل » — التى ينتزع بها الأنا من الهى مقادير أكبر من الطاقة . من أمثال هذه الأساليب عملية « التقمص » لموضوعات يحتفظ بها أو يهجرها . فالشحنات الموضوعية[1] تصدر من المطالب

---

(١) Object-Cathexis

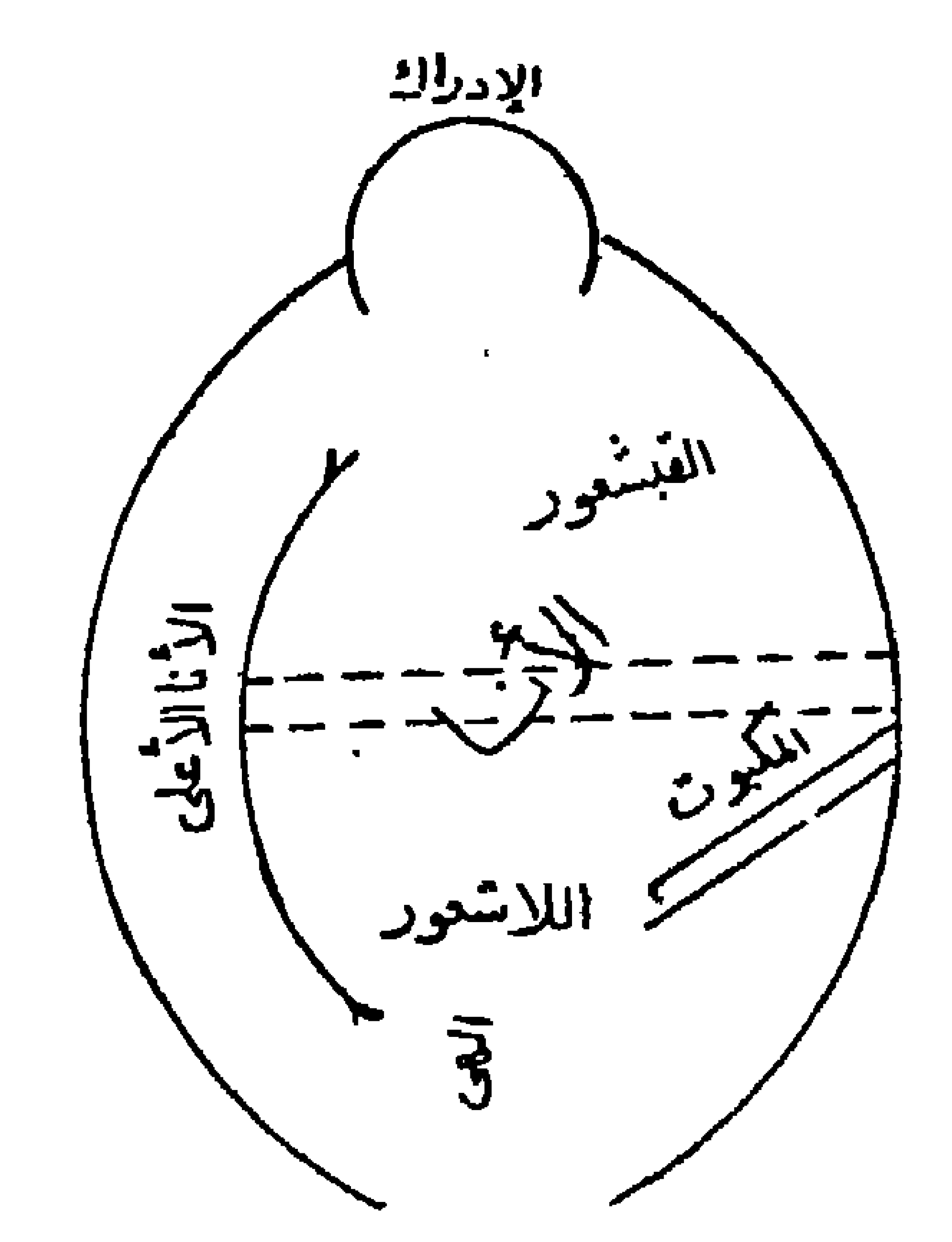
الغريزية للهى ، وأول ما يعمله الأنا هو أن يسجل هذه الشحنات . غير أنه حين يتقمص الموضوع فإنه يمثل بين يدى الهى بدل الموضوع ، ويعمل على اجتذاب ليبدو الهى إلى نفسه . ولقد رأينا من قبل أن الأنا يستحوذ ، خلال حياة الفرد ، على كثير من بقايا الشحنات الموضوعية القديمة . وجملة القول أن الأنا يتعين عليه أن يحقق مقاصد الهى ، وهو يقوم بواجبه على خير وجه متى أفلح فى الكشف عن الظروف الملائمة التى تتحقق فيها هذه المقاصد . إن الصلة بين الأنا والهى كالصلة بين الفارس وفرسه . فالفرس هى الطاقة المحركة ، وعلى الفارس أن يحدد الهدف ويوجه حركات مطيته القوية نحو هذا الهدف . غير أن الصلة بين الأنا والهى غالبا ما تقصر عن بلوغ هذه الغاية المثلى ، فإذا بالفارس يرى نفسه مرغما على السير فى الاتجاه الذى تريده الفرس نفسها .

إن الأنا ينفصل عن جزء من الهى بفعل المقاومات الكابتة ، لكن سياج الكبت لا يمتد إلى داخل الهى ، وبذا تتسرب المواد المكبوتة إلى سائر الهى .

من الحكم الجارية أن الإنسان لا يستطيع أن يخدم سيدين فى وقت واحد . لكن الأنا المسكين يقف موقفا أحرج من هذا ، إذ يتعين عليه أن يخدم ثلاثة من السادة العتاة ، وأن يبذل ما فى وسعه للتوفيق بين مطالب الثلاثة وتكاليفهم ، وهى مطالب متباينة متناقضة أبدا ، وغالبا ما تبدو متنافية لا يمكن التوفيق بينها . فلا غرو أن يخفق الأنا فى أداء مهمته فى الكثير الغالب من الأحيان . أما هؤلاء المستبدون الثلاثة فهم الأنا الأعلى والعالم الخارجى والهى . ومتى راقب الإنسان ما يبذله الأنا من جهود لإرضاء هؤلاء الثلاثة جميعا ، أو بالأصح لإطاعتهم جميعا فى آن واحد ، لم يأس على ما فعلناه حين جسمنا الأنا وجعلنا له كيانا قائما بذاته . إن الأنا يشعر أنه محاط من جوانب ثلاثة ، تتهدده أخطار ثلاثة مختلفة ، فإن اشتد الإلحاح عليه والتعنت به ، استجاب لذلك بالحصر . ذلك أنه ينشأ من خبرات « النظام الإدراكى » ، فهو يهدف إلى تصوير مطالب العالم الخارجى ، لكنه يريد أيضا أن يكون خادما وفيا للهى ، وأن يبقى على وفاق معها ، وأن يوصى بنفسه عندها باعتباره موضوعا من الموضوعات ، وأن يجتذب مما بها من ليبدو فيطرحها على نفسه . وهو فى محاولته التوسط بين الهى وعالم الواقع غالبا ما يرى نفسه

مضطرا إلى أن يستر المطالب اللاشعورية للهى بتبريرات قبشعورية من عنده ، وأن يموه على الأصرعة التى تقوم بين الهى والواقع ، وأن يصطنع الغش الدبلوماسى فيبدى نوعا من الاعتبار المفتعل للواقع ، حتى حين تلح الهى فى عنادها وشموسها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نرى الأنا الأعلى الصارم يرصد كل حركة من حركاته ، ويفرض عليه معايير معينة للسلوك ، دون اعتبار للصعوبات التى تقيمها الهى والعالم الخارجى . فإن لم يمتثل لهذه المعايير عاقبه الأنا الأعلى بمشاعر التوتر الأليمة تبدو فى صورة إحساس بالذنب أو إحساس بالدونية . وهكذا يجد الأنا نفسه بين إلحاح النزعات المحبوسة فى الهى من ناحية ، ومطالب الواقع وتكاليفه من ناحية أخرى ، وتحكم الأنا الأعلى وجوره من ناحية ثالثة ، فإذا به يجهد ويكافح لإعادة نوع من الانسجام والتوازن بين القوى والمؤثرات التى تعتمل فى ثناياه وتأخذه من خارج . ومن هنا لا يشق علينا أن نفهم لمَ يعز على الإنسان فى أغلب الأحيان أن يحبس نفسه عن أن يصيح : « ما أعسر الحياة ! » . ومتى أكره الأنا على الاعتراف بضعفه وعجزه ، انفجر وشمله الحصر : الحصر الواقعى حيال العالم الخارجى ، والحصر الخلقى إزاء الأنا الأعلى ، والحصر العصابى بصدد النزعات العنيفة فى الهى .

وإليكم تخطيطا بسيطا يمثل بناء الشخصية النفسية كما شرحتها لكم :



ترون من هذا الرسم كيف يغوص الأنا الأعلى فى أحشاء الهى ، فهو مضطر إلى أن

يعقد بها صلات وثيقة لأنه وريث عقدة أوديب ، كما أنه أبعد عن النظام الإدراكى من الأنا . ثم إن الهى لا تتعامل مع العالم الخارجى إلا عن طريق الأنا ، كما يبدو من هذا الرسم على الأقل . غير أنه يشق علينا اليوم أن نقول بما إذا كان هذا الرسم يطابق الحقيقة . وأعرف أنه غير صحيح فى ناحية منه . فالمساحة التى تشغلها الهى اللاشعورية يجب أن تكون أكبر بكثير من المساحة التى يشغلها الأنا أو القبشعور . فأرجو أن تصححوا هذا الخطأ فى أذهانكم .

ويتعين على أن أحذركم من شىء قبل أن أختتم هذا البيان الذى أتعبكم من دون شك ، ولم ينر لكم الطريق بدرجة كافية فيما أظن . ذلك أنكم إن أخذتم تتأملون تقسيم الشخصية إلى أنا وأنا أعلى وهى ، فيجب ألا تتصوروا خطوطا فاصلة حاسمة كتلك الخطوط الاصطناعية التى ترسمها الجغرافية السياسية . فنحن لا ننصف النفس وخصائصها إذا نحن فصلناها وحددنا فصولها بخطوط كتلك التى نراها فى رسوم الإنسان البدائى . والأدنى إلى الصواب أن نلون الرسم بحيث تتداخل المساحات الملونة بعضها فى بعض كما هى الحال فى التصاوير الحديثة . ومن ثم يتعين علينا بعد التقسيم والفصل أن ندع ما فصلناه يندمج مع غيره مرة أخرى — إنها محاولة مبدئية لتصوير النفس الإنسانية ، وهى شىء مراوغ مليس ، فلا تقسوا فى حكمكم عليها . وأكبر الظن أن هذه التقاسيم يختلف مداها من شخص لآخر اختلافا كبيرا ، بل من المحتمل أن تتغاير وظائفها نفسها ، وأنها قد تتعرض فى بعض الآونة لعملية انتكاس . ويبدو هذا صحيحا بوجه خاص فى تمايز الأنا الأعلى عن الأنا ، فهو أكثر هذه التقاسيم قلقا وأحدثها من ناحية نشوء النوع الإنسانى وتطوره . وقد تنشأ النتيجة نفسها من جراء مرض عقلى ما فى ذلك شك . بل لا يشق علينا أن نتصور أن بعض الرياضات الصوفية قد تفلح فى قلب العلاقات العادية بين مناطق النفس المختلفة ، بحيث يصبح النظام الإدراكى مثلا قادرا على النفاذ إلى الطبقات العميقة من الأنا والهى وشهود علاقات فيها يعز عليه إدراكها فى الأحوال العادية . ترى أمن شأن هذا الطريق أن يسلم بنا إلى الظفر بحقائق نهائية قصوى ، تفيض بالخير كل الخير ؟ — لنا أن نشك فى هذا ونحن مطمئنون . ومهما يكن من أمر فلا بد لنا أن نعترف بأن التحليل النفسى يبذل جهوده العلاجية فى هذه الناحية على وجه التحديد . فالهدف من العلاج تقوية الأنا ، وجعله أكثر استقلالا من الأنا الأعلى ، وإفساح مجال إدراكه واستبصاره ، وبذا يتسع تنظيمه بحيث يصبح

قادرا على امتلاك أجزاء جديدة من الهى . فما كان بالأمس فى الهى ، يصبح اليوم جزءا من الأنا .

إنه عمل من أعمال الإصلاح والتعمير ، مثله فى ذلك مثل تصريف ميـاه بحر الجنوب[١] (Zuyder Zee) .

---

(١) خليج فى الأراضى المنخفضة يتكون من بحر الشمال

(المترجم)

المحاضرة الثانية والثلاثون

الحصر والحياة الغريزية

سيداتى وسادتى : لا تدهشوا إن قلت لكم إن الفروض التى سقناها عن موضوع الحصر والغرائز الأساسية للنفس قد أصابها من التحور والتطور الشىء الكثير ، وأن ما جئنا به من معلومات جديدة لا يزعم أنه يحل هذه المشكلات المريبة حلا نهائيا . ولقد ذكرت كلمة « الفروض » عن عمد ، فصوغ الفروض أشق مهمة تعترضنا ، غير أن الصعوبة لا تنشأ من نقص فى ملاحظاتنا ، فالظواهر التى تَبْدَهُنا بمثل هذه الألغاز هى آلف الظواهر وأكثرها ذيوعا ، كما أنها لا تنشأ من الإغراق فى التأملات التى تثيرها هذه الظواهر ، فالتأمل لا يقوم إلا بدور طفيف فى هذا الصدد . كلا ، فالمسألة فى الحق مسألة فروض ، أى مسألة تدور على صوغ أفكار مجردة صحيحة وتطبيقها على المادة الخام التى تزودنا بها الملاحظة كى ترتب هذه المادة وتتضح .

لقد كرست محاضرة سابقة — هى المحاضرة الخامسة والعشرون — لدراسة الحصر ، وسألخصها لكم فى إيجاز . فقد قلنا إن الحصر حالة وجدانية — أى خليط من مشاعر معينة تنتمى إلى سلم اللذة والألم ، مصحوبة بما يناظرها من تعصيبات(١) مصدرة ، مع إدراك الفرد هذه المشاعر — على أننا أكدنا كذلك أن الحصر يرجح أن يكون أثرا لحدث خطير متوارث ، وبذا يمكن أن يقارن بنوبة الهستريا التى تصيب الفرد أثناء نموه . وذهبنا إلى أن الحدث الذى من شأنه أن يترك مثل هذا الأثر الوجدانى هو عملية الولادة ، وإن ما يصاحب هذه العملية من تغييرات فى التنفس وعمل القلب — وهذه من مشخصات الحصر — يخدم غرضا مفيدا . وعلى هذا يكون أول حصر يعانيه كل فرد منا ذا مصدر تسممى « Toxic » . ثم ميزنا بعد ذلك بين الحصر الموضوعى والحصر العصابى . فأولهما يبدو لنا استجابة مفهومة للخطر — أى لأذى يتوقعه الفرد من خارج . أما الثانى فكان مثار حيرة لنا ، وكأنه حصر لا غرض له ولا فائدة منه .

---

(١) Innervations

ولقد فسرنا الحصر الموضوعى حين عرضنا له بالتحليل بأنه حالة انتباه حسى متزايد وتوتر حركى أسميناها التأهب الحصر[١] . ومن هذا التأهب تنشأ استجابة الحصر . وقد تتخذ هذه الاستجابة أحد سبيلين : فإما أن يتمخض الحصر ويتولد — وهذا تكرار للخبرة الصدمية القديمة — ويكون تولده محدودا لا يعدو أن يكون علامة أو إشارة ، وفى هذه الحال تستطيع بقية الاستجابة أن تواجه الموقف الخطر بالهرب أو بالدفاع ، أو تطغى الصدمة القديمة فتستنفد الاستجابة بأسرها فى توليد الحصر ، وهنا تكون الحالة الوجدانية معطلة لا توائم الموقف الحاضر .

ثم درسنا بعد ذلك الحصر العصابى وقلنا إنه يكون على ثلاثة طرز : أولها ذلك التوجس العام الهائم الطليق الذى يتأهب لينشب أظفاره فى أية فكرة يستطيع أن يتخذ منها حجة وتعلة ، ويتربص لكل فرصة يأنس فيها تبريرا لوجوده ، وقد سمينا هذه الحالة « حصر التوقع »[٢] كما يحدث فى الحصار[٣] النموذجى مثلا . أما الطراز الثانى من هذا الحصر فنجده عالقا متشبثا بأفكار معينة فيما هو معروف بالموجسات[٤] ، وهى مخاوف لا نزال نلمس فيها صلة بخطر خارجى ، غير أن الحصر الذى يستشعره المريض فى هذه الأحوال يكون مشتطا غاية فى الشطط . وفى الطراز الثالث والأخير نجد الحصر الذى يتولد فى الهستريا وأعصبة أخرى شديدة . وهو إما أن يصاحب الأعراض أو يكون مستقلا عنها ، سواء فى صورة نوبة أو فى صورة حالة تبقى مدة من الزمن ، على أنه يتمخض فى هذه الأحوال كلها دون أن يكون هناك خطر خارجى يبرر ظهوره بأية حال . بعد هذا وجهنا إلى أنفسنا سؤالين : « ماذا يخافه الناس حين يشملهم الحصر العصابى ؟ » ، و « كيف نستطيع التوفيق بين هذا النوع من الحصر وبين الحصر الموضوعى الذى يشعر به الفرد إزاء خطر خارجى ؟ » .

والحق أن بحوثنا لم تخفق فى هذه الناحية ، بل وفقنا إلى بضع نتائج ذات بال . أما فيما يتصل بحصر التوقع فقد علمتنا الخبرة الكلينيكية أن هناك صلة مطردة بينه وبين الحالة التى تكون عليها الليبيدو فى الحياة الجنسية . فأكثر أسباب الحصر تواترا وشيوعا هو التهيج الشهوى المحتبس الذى يستثار ثم لا يظفر بإشباع أو يستغل . إذ ذاك يظهر الحصر

---

(١) Anxiety-Preparedness

(٢) Esopectant dread

(٣) Anxiety neurosis

(٤) Phobias

بدل اللبيدو التى منعت من أن تجرى فى مجراها الطبيعى . بل لقد رأيت أن هناك ما يبرر القول بأن هذه اللبيدو غير المشبعة تتحول مباشرة إلى حصر . وقد لقى هذا الرأى ، بعض التأييد فى وجسات معينة تكاد تكون عامة شاملة عند صغار الأطفال . إن كثيرا من هذه الوجسات يستغلق على التفسير استغلاقا تاما ، لكن منها ما يمكن أن نجد له تفسيرا محددا ، كخوف الطفل حين يترك وحده وخوفه من الغرباء . ذلك أن الوحدة أو الوجه الغريب يستثيران حنين الطفل إلى رؤية الملامح المألوفة لأمه ، لكنه لا يستطيع أن يضبط هذا الاهتياج اللبيدى ، ولا يستطيع أن يدعه فى حالة معلقة ، فإذا به يتحول إلى حصر . فهذا الحصر عند الأطفال ليس إذن بالحصر الموضوعى ، بل لا بد من إدراجه فى زمرة الحصر العصابى . وهكذا تكون وجسات الأطفال وحصر التوقع فى العصاب الحصارى مثالين لطريقة من الطرق التى يتولد بها الحصر العصابى بالتحول المباشر للبيدو . وسأحيطكم الآن بطريقة أخرى ترون أنها لا تختلف عن هذه الطريقة فى كثير .

فلقد كنا نعزو ظهور الحصر فى الهستريا والأعصبة الأخرى إلى عملية الكبت . ونعتقد اليوم أننا نستطيع وصف هذه العملية وصفا أكمل إذا نحن فصلنا تاريخ « الفكرة » التى يتعين كبتها عن تاريخ اللبيدو العالقة بها . فالذى يصيبه الكبت هو الفكرة ، وقد تحرف بحيث لا تعود تعرف ، أما الوجدان الذى يصاحبها فيتحول دائما إلى حصر مهما يكن نوع الوجدان : عدوانا كان أو حبا أو غيرهما . وعلى هذا فسواء كان السبب فى تعطيل اللبيدو ضعف الأنا فى عهد الطفولة كما هى الحال فى وجسات الأطفال ، أو عمليات بدنية فى الحياة الجنسية كما هى الحال فى الحصار ، أو كان السبب كبتا كما هى الحال فى الهستريا — فهذا الاختلاف لا يهم . ومن ثم فالطريقتان اللتان تفضيان إلى تولد الحصر هما فى جوهرهما شىء واحد .

وبينما كنا منهمكين فى هذه البحوث لاحظنا صلة على جانب كبير من الأهمية بين تولد الحصر وتكون الأعراض . تلك أن كلا منهما يمكن أن يستبدل بالآخر . فالذى يتوجس من الأماكن المفتوحة مثلا يبدأ المرض عنده بنوبة حصر تعتريه فى الشارع ، وتتكرر كلما عاود السير فيه ، ثم ينتهى الأمر بأن يبدو لديه عرض — هو الخوف من السير فى الشارع — يمكن اعتباره نوعا من التعطيل أو التقييد الوظيفى للأنا ، وبذا يقى المريض نفسه من نوبات الحصر . وفى وسعنا أن نلحظ عكس هذه العملية متى حاولنا

أن نداخل فى تكون الأعراض عند حوازى تستبد به أفعال قهرية مثلا . فإذا نحن منعناه من القيام بالاغتسال الذى يستحوذ عليه ، أصابته حالة لا تطاق من الحصر لا شك أنه كان يدرأها عن نفسه بالعرض . فكأن تولد الحصر سابق وتكون العرض لاحق ، أو كأن العرض يتخلق ليحول دون اندلاع حالة الحصر . وإليكم تأييدا آخر : فأول أعصبة تصيب الأطفال هى الموجسات — وهى حالات ترينا فى وضوح تام أن ما يكون فى الأصل حصرا ينتهى بأن يكون عرضا : وفى هذا ما يشعرنا بأن هذه الصلة هى أنسب نقطة للبدء تقربنا من فهم الحصر العصابى . يضاف إلى هذا أننا أفلحنا فى الوقت نفسه أن نعرف ما يخافه الفرد فى الحصر العصابى . وبذا نكون قد وفقنا إلى إقامة الصلة بين الحصر العصابى والحصر الموضوعى . فمن الجلى أن ما يخافه الفرد هو طاقته اللبيدية الخاصة . وعلى هذا يتلخص الفرق بين هذين النوعين من الحصر فى نقطتين ، أولاهما : أن الخطر فى الحصر العصابى خطر داخلى لا خارجى ، والثانية أن الفرد لا يتعرفه تعرفا شعوريا .

وفى حالة الموجسات نستطيع أن نرى فى وضوح كيف يتحول هذا الخطر الداخلى إلى خطر خارجى ، أى كيف يتحول الحصر العصابى إلى حصر موضوعى فى ظاهره . فإذا أردنا أن نبسط هذه الحالة التى تبدو شديدة التعقيد فى الغالب ، فلنفرض أننا بصدد شخص يتوجس من السير فى الشارع لأنه فى خوف دائم من نزعات تساوره وتغريه ببعض الناس حين يلتقى بهم فى الطريق ، هنا « يسقط » المريض مخاوفه الداخلية على الموقف الخارجى فإذا به يخشى السير فى الشارع . أما ما يجنيه من هذا فواضح لا يحتاج إلى بيان ، فهو يشعر أن فى سلوكه هذا ما يكفل له وقاية نفسه على نحو أفضل من غيره : ذلك أن المرء يملك أن يتقى الخطر الخارجى بالهرب ، فى حين أن محاولة الهرب من خطر داخلى أمر عسير .

لعلكم تذكرون أننى صرحت فى نهاية محاضراتى السالفة عن الحصر بأن النتائج المختلفة التى أدت إليها بحوثنا لا يتناقض بعضها مع بعض بالفعل وإن كانت غير ملتئمة كل الالتئام . فالحصر ، باعتباره حالة وجدانية ، استعادة لخبرة قديمة خطرة ، وهو يظل فى خدمة غريزة المحافظة على الذات يعلن عن وجود أخطار جديدة ، ثم إنه ينشأ من اللبيدو حين تعطل ولا تستعمل لسبب من الأسباب من بينها عملية الكبت ، كما يستعاض عنه بالإعراض لكنه يظل مع ذلك موثقا بها من الناحية النفسية — هذا كله

يشعرنا أن هناك حلقة مفقودة من شأنها أن تجمع بين هذه النتف بعضها وبعض وتجعل منها وحدة وكلا .

* * *

سيداتى وسادتى : إن تقسيم الشخصية النفسية إلى أنا وأنا أعلى وهى — وقد تكلمت عنه فى المحاضرة السابقة — اضطرنا أن نقف من مشكلة الحصر موقفا جديدا . فقد افترضنا أن الأنا هو المستقر الوحيد للحصر ، وأن الأنا وحده هو ما يستطيع أن يولد الحصر وأن يشعر به ، وقد أسلم بنا هذا الافتراض إلى أن نتخذ وضعا جديدا مأمونا تبدو فيه كثير من الوقائع بمظهر جديد . ذلك أنكم إن تأملتم فى الأمر شق عليكم أن تجدوا معنى للقول « بحصر الـهى » ، أو أن نعزو إلى الأنا الأعلى قدرة على الشعور بالحصر . ومن جهة أخرى فقد وجدنا تأييدا مرضيا لنظريتنا فى أن الأنواع الثلاثة الرئيسية من الحصر — الحصر الموضوعى والحصر العصابى والحصر الخلقى — يمكن أن ترد فى سهولة العلائق الثلاث للأنا : وهى العالم الخارجى والهى والأنا الأعلى . كذلك كان من شأن هذا الموقف الجديد أن أبرز لنا وظيفة الحصر كعلامة تشير إلى وجود خطر ، وهى وظيفة لم نكن نجهلها من قبل . على أننا لم نعد نحفل كثيرا بالتساؤل عم يصاغ منه الحصر ، وقد أصبحت العلاقات بين الحصر الموضوعى والحصر العصابى أكثر بساطة ووضوحا على نحو يبعث على الدهشة ، يضاف إلى هذا أننا أصبحنا نفهم حالات تولد الحصر المعقدة فى ظاهرها خيرا مما نفهم الحالات التى تبدو بسيطة .

لقد بحثنا منذ عهد قريب فى الكيفية التى يتمخض بها الحصر فى وجسات معينة ندرجها فى عداد الهستريا الحصرية . واخترنا لهذا البحث حالات من شأنها أن تجلو لنا الكبت الطرازى الخاص بالرغبات التى تصدر من عقدة أوديب . وكنا نتوقع أن نرى أن الشحنة اللبيدية التى تفرغ على الأم من حيث هى موضوع حب قد تحولت ، نتيجة للكبت ، إلى حصر ، وأنها تبدو الآن فى صورة عرض عالق بالبديل وهو الأب . على أنى لا أستطيع أن أطالعكم بجميع الخطوات التى سرنا عليها فى مثل هذا البحث ، فحسبكم أن أقول إننا ذهلنا لأن النتيجة كانت على عكس ما ننتظر . فلم يكن الحصر نتيجة للكبت ، بل كان الحصر جاثما فى أول الأمر وهو الذى أثار الكبت ! ترى أى نوع من الحصر يمكن أن يكون ؟ إنه لا يمكن إلا أن يكون خوفا من خطر خارجى داهم ، أى حصرا موضوعيا ، الحق إن الصبى يكون فى الحالة التى يحب فيها أمه خائفا

من مطالب طاقته الليبيدية ، ومن ثم يكون حصره حصرا عصابيا حقا . غير أن حبه أمه لا يبدو له خطرا داخليا إلا لأنه يتضمن خطرا خارجيا يتعين عليه أن يتفاداه بأن يذر الموضوع المحبوب . وقد وصلنا إلى هذه النتيجة نفسها فى كل حالة تناولناها بالبحث . بيد أننا يجب أن نعترف بأننا لم نكن على أهبة لأن نجد أن الخطر الغريزى الداخلى ليس إلا مركزا يقع فى منتصف الطريق الذى يؤدى إلى الخطر الخارجى الواقعى .

ترى ما أمر هذا الخطر الواقعى الذى يخافه الطفل من جراء حبه أمه ؟ إنه الخوف من العقاب بالخصاء ، الخوف من فقدان القضيب . ستعترضون بطبيعة الحال بأن هذا ليس بخطر واقعى ، نحن لا نخصى أولادنا لأنهم يحبون أمهاتهم إبان طور عقدة أوديب . غير أن الأمر ليس من البساطة ما يبدو لأول وهلة . وهو لا يتلخص فيما إذا كنا نقوم بالخصاء فعلا ، بل المهم إنه ينطوى على خطر يتهدد الصبى من خارج ، وإنه يؤمن بهذا الخطر . وللصبى بعض العذر فى اعتقاده هذا لأننا كثيرا ما نتهدده ببتر قضيبه إبان الطور القضيبى حين يأخذ فى مزاولة العادة السرية ، ومما لا شك فيه أن التلميح بالخصاء له فى تطور الجنس البشرى ما يعززه فى نفس الطفل . فنحن نعتقد أن الأب الغيور العاتى ، فى العهود الأولى للأسرة البشرية ، كان يخصى ابنه المراهق بالفعل . ولا يشق علينا أن نرى أن الختان — وهو شعيرة مشاعة فى طقوس سن البلوغ — ما هو إلا أثر لذلك الخصاء القديم. نحن نعرف إلى أى حد يبتعد رأينا هذا عن وجهة النظر العامة، لكنا نستمسك بموقفنا ، وهو أن الخوف من الخصاء من أقوى الدوافع إلى الكبت وأكثرها شيوعا ، ومن ثم إلى خلق الأمراض النفسية . وقد عزز رأينا هذا تعزيزا مقنعا ما رأيناه من تحليل الحالات التى أجرى فيها الختان — لا الخصاء نفسه فى الحق — على فريق من الأولاد باعتباره علاجا للعادة السرية أو عقابا عليها (وهذه سنة غير نادرة الذيوع بحال فى إنجلتره وأميركا) . ربما نشعر بإغراء شديد يدفعنا فى هذا المقام إلى المضى فى الحديث عن عقدة الخصاء ، لكنى أرى ألا نبتعد عن موضوعنا ، الحق أن الخوف من الخصاء ليس الدافع الوحيد للكبت بطبيعة الحال ، وليس له مكان فى نفسية النساء . صحيح إنهن يعانين عقدة الخصاء ، لكنهن بمنأى عن الخوف من الخصاء ، بل يستبدل به عندهن خوف من فقدان الحب . ومن الجلى أنه امتداد لخوف الرضيع حين يفتقد أمه . وهكذا ترون أن هذا النوع من الحصر يشير إلى خطر واقعى . ذلك أن الأم إن تغيبت أو حسرت عطفها عن الطفل ، لم يعد يطمئن إلى أن حاجاته سوف تقضى ، وقد يفضى به هذا إلى

أشد مشاعر التوتر إيلاما . ونحن فى حل من أن نعتقد أن هذا الخوف ليس فى صميمه إلا تكرارا للحصر الأصلى عند الولادة يوم انفصل الطفل عن أمه لأول مرة . والحق إننا إن أخذنا برأى اقترحه « فرنزى » (Frenczi) جاز لنا أن ندرج خوف الخصاء فى هذا النوع نفسه ، لأن فقدان القضيب ينجم عنه استحالة الاتصال بالأم أو ببديلة عنها فى الفعل الجنسى . وأشير عرضا إلى أن تخييل العودة إلى الرحم ، وهو تخييل مشاع ، بديل عن هذه الرغبة فى الجماع . أستطيع أن أخبركم فى هذا السياق عن وقائع أخرى كثيرة مما يبهر ويروع ، غير أنى يجب ألا أتجاوز حدود التمهيد للتحليل النفسى . فحسبى أن أوجه أنظاركم إلى أن الكشوف السيكولوجية فى هذه الناحية تسلم بنا إلى حدود الوقائع البيولوجية .

إن أوتو رانك (Otto Rank) ـــ الذى يدين له التحليل بكثير من الدراسات الرائعةـــ كان له الفضل أيضا فى توكيده أهمية عملية الولادة.والانفصال عن الأم وإبرازهما فى وضوح . ومع هذا فقد استحال علينا جميعا أن نقبل النتائج المشتطة التى انتزعها من هذا العامل بالنسبة لنظرية الأمراض النفسية ، وحتى بالنسبة للعلاج التحليلى . غير أنه كان قد كشف قبل ذلك عن السمة الجوهرية لمذهبه ، وهى أن معاناة الحصر عند الولادة هى الطراز الأول لجميع المواقف الخطرة فيما بعد . على أننا لو وقفنا لحظة عند هذه النقطة ، تسنى لنا أن نقول إن لكل مرحلة من مراحل النمو ظروفا للحصر خاصة بها ، أى موقفا خطرا يلائمها ويتمشى معها : فالخطر الذى يتصل بالعجز النفسى وقلة الحيلة يناظر المرحلة الباكرة التى يكون فيها الأنا فجا فطيرا ، والخطر الذى يدور على فقدان الموضوع أو فقدان الحب يناظر مرحلة الاتكال فى السنوات الأولى من الطفولة ، وخطر الخصاء يناظر الطور القضيبى ، ثم نلتقى أخيرا بالخوف من الأنا الأعلى الذى يحتل مكانا خاصا من نفس الصغير ، وهو يناظر فترة الكمون . وكلما اطرد نمو الفرد لزم أن تزول الدوافع القديمة للحصر ، لأن مواقف الخطر التى تناظرها تكون قد فقدت قوتها نظرا لنضج الأنا واشتداده . غير أن هذا لا يحدث فى الواقع إلا بدرجة منقوصة جدا . فجمهور كبير من الناس لا يستطيعون ألبتة أن يتغلبوا على الخوف من فقدان المحبة ، فلا يتسنى لهم إطلاقا أن يتحرروا تحررا كافيا من محبة الآخرين لهم ، ومن ثم يمضون فى سلوكهم على نحو ما يسلك الأطفال . أما الخوف من الأنا الأعلى فلا بد فى العادة أن يبقى على الدوام ، لأن الخوف من الضمير لا يمكن أن يستغنى

عنه فى الصلات الاجتماعية ، والفرد لا يفلح فى أن يستقل عن الجماعة إلا فى أحوال نادرة جدا . يضاف إلى هذا أن بعض مواقف الخطر القديمة تعمل أحيانا على أن تحتفظ بتأثيرها فيما يلى من الحياة بأن تلبس أسباب الحصر فيها لبوسا عصريا حديثا . فخطر الخصاء مثلا يبقى ويستتر فى قناع التوجس من الإصابة بالزهرى . ذلك أن الكبار الناضجين يعرفون حق المعرفة إن الانهماك فى الملذات الجنسية لم يعد يعاقب عليه بالخصاء ، لكنهم من جهة أخرى تعلموا من الخبرة أن الاستهتار بهذه الناحية مغامرة تنطوى على أمراض خطيرة . ولا مراء فى أن من نسميهم العصابيين يظلون أطفالا فى موقفهم إزاء الخطر ، ولا يفلحون ألبتة فى التحرر من الظروف القديمة لتكوين الحصر — هذه إحدى السمات البارزة التى يتميز بها العصابيون أما سببها فليس من اليسير معرفته .

عسى ألا تكونوا نسيتم ما كنا نتحدث عنه ، فاذكروا أننا كنا ندرس الصلات بين الحصر والكبت وقد كشف لنا هذا البحث عن حقيقتين جديدتين : أولاهما أن الحصر هو الذى يسبب الكبت وليس الأمر بالعكس كما كنا نظن . الثانية أن المواقف الغريزية المخوفة يمكن أن ترد آخر الأمر إلى مواقف خارجية خطرة . وسنبحث الآن فى كيفية حدوث الكبت بتأثير الحصر . أعتقد أن الأمور تجرى كما يلى : يشعر الأنا أن إشباع مطلب غريزى ليس من شأنه أن يستثير أحد مواقف الخطر التى يتذكرها جيدا . لذا يتحتم عليه أن يقمع هذه الشحنة الغريزية وأن يزيلها ويكسر شوكتها على أى وجه من الوجوه . ونحن نعرف أن الأنا يفلح فى هذا إن كان قويا ، وإن كان قد أفلح فى إدماج هذه النزعة فى تنظيمه . أما فى حالة الكبت فالنزعة لا تزال تنتمى إلى الهى ، ويشعر الأنا بأنه عاجز ضعيف . هنا يستنجد الأنا بوسيلة تشبه ، فى باطنها ، التفكير العادى كل الشبه . وما التفكير إلا محاولة تجريبية تتناول مقادير صغيرة من الطاقة ، مثله فى ذلك مثل قائد الجيش يأخذ فى تحريك تماثيل صغيرة على خارطة قبل أن يأمر جيوشه بالتحرك . على هذا النحو يسبق الأنا إشباع النزعة المريبة ، ويعينها على استعادة المشاعر الأليمة التى ترتبط ببداية موقف الخطر المخوف . عندئذ ينشط مبدأ اللذة والألم نشاطا آليا ويقوم بكبت النزعة الخطرة .

إخالكم تصيحون بى الآن : « تمهل ! لا نستطيع أن نمضى معك إلى هذا الحد ! » . فأنتم على حق ، وينبغى لى أن أضيف إلى ما قلت شيئا حتى يبدو مقبولا

لديكم ، كما يتعين على أن أسلم أولا أنى حاولت أن أترجم إلى لغة تفكيرنا العادية عملية من المحقق أنها ليست شعورية ولا قبشعورية ، بل تجرى بين شحنات من الطاقة فى مستوى عميق من النفس يشق علينا تصوره . غير أن هذه الصعوبة لا يتعذر الظهور عليها وإن تعذر تفاديها . وأهم من هذا أن نميز فى وضوح بين ما يجرى فى الأنا وما يجرى فى الهى خلال عملية الكبت . لقد وصفنا منذ لحظة ما يفعله الأنا : فهو يستخدم شحنة تجريبية ويستثير النشاط الآلى لمبدأ اللذة والألم بوساطة علامة للخطر . ومن الممكن إذ ذاك أن تحدث عدة استجابات أو خليط متشابك منها بنسب متفاوتة : فإما أن تظهر نوبة حصر بتمامها وينسحب الأنا بكليته إزاء التنبيه المريب ، وإما أن يستعيض الأنا عن الشحنة التجريبية بشحنة مضادة تتحد عندئذ بطاقة النزعة المكبوتة فتكون عرضا من الأعراض ، أو يستحوذ عليها الأنا فتكون بمثابة تكوين رديد[1] ، وتضخيم لاستعدادات معينة ، وتحوير دائم للأنا . وكلما اقتصر تولد الحصر على مجرد لمحة أو إشارة ، تعين على الأنا أن يزيد من الإجراءات الدفاعية ، واقتربت العملية من مستوى التحوير العادى للنزعة ، دون أن تصل إليه بتة بطبيعة الحال . وهنا أرى أن أستطرد قليلا : لا شك أنه يشق علينا أن نقدم تعريفا لما اصطلحنا أن نسميه بالخلق . ومع هذا فقد تسنى لكم أن تروا بأنفسكم أن الخلق ينتمي برمته إلى الأنا ، كما عرفنا بعض العوامل التى تسهم فى تكوينه : أولها إدماج الوظيفة الأبوية المبكرة فى بناء الأنا الأعلى — ومن المؤكد أن هذا أهم العوامل وأبلغها أثرا . يأتى بعد ذلك تقمص الأبوين ومن لهم نفوذ على الفرد ، ثم ضروب أخرى من التقمص هى بقايا صلات بالموضوعات المهجورة . ونستطيع الآن أن نضيف إلى هذه القائمة ، تلك التكوينات الرديدة التى تقوم على الدوام بدور فى تكوين الخلق ، والتى يكتسبها الأنا أول الأمر وهو يقوم بعملية الكبت ، وبعد ذلك وهو ينبذ النزعات المستهجنة بطريقة أكثر سواء .

ولنعد إلى النظر فى الهى فنتساءل عما يحدث للنزعات المرفوضة أثناء عملية الكبت . هذه مشكلة ليس من اليسير إيضاحها . أما السؤال الرئيسى الذى نريد أن نجد له جوابا فهو : ماذا يحدث للطاقة ، للشحنة اللبيدية للنزعة ، وكيف تستخدم ؟ تذكرون أننى كنت أظن عهدا طويلا أن هذه الطاقة تتحول إلى حصر من أثر الكبت بعينه . أما الآن

---

(١) Reaction-formation

فلا نجترئ أن نقول ذلك ، بل يجب أن نقنع بإجابة أكثر تواضعا من تلك فنقول إن مصير هذه الطاقة لا يكون واحدا على الدوام . وأكبر الظن أن هناك توافقا وثيقا بين ما يحدث فى الأنا وما يحدث فى الهى بالنسبة للنزعة المكبوتة . وهو توافق كان يجب معرفته . الواقع أننا بعد أن أبرزنا الدور الذى يقوم به فى عملية الكبت مبدأ اللذة والألم حين تستثيره علامة الخطر ، نستطيع أن نحور نظرتنا وتصورنا للموضوع . ذلك أن هذا المبدأ له نفوذ لا حد له على عمليات الهى ، وفى وسعه أن يحدث تغييرات بعيدة الغور فى النزعة المرفوضة . فلا غرابة إذن أن تختلف نتائج الكبت اختلافا كبيرا ، وأن يتفاوت مداها فيتسع حينا ويضيق حينا آخر . فقد تحتفظ النزعة المكبوتة بشحنتها اللبيدية فى كثير من الأحوال ، وتظل فى الهى دون أن يصيبها تغيير بالرغم من الضغط الموصول للأنا . وفى حالات أخرى يبدو أنها تلاشت تلاشيا تاما وأن شحنتها اللبيدية قد تحولت إلى مسالك أخرى . وقد افترضت أن هذا هو ما يحدث حين تحل عقدة أوديب حلا سويا : ففى مثل هذه الحالة الرضية لا تكون عقدة أوديب مكبوتة فحسب ، بل وتكون قد امحت بالفعل فى الهى . يضاف إلى هذا أن الخبرة الكلينيكية بينت لنا أنه يحدث فى حالات كثيرة أن تتضاءل اللبيدو وتنكص إلى مرحلة سابقة من تطورها ، وذلك بدل أن تحدث النتيجة العادية للكبت . وهذا كله لا يمكن أن يتم إلا فى الهى بطبيعة الحال . ومتى حدث فلا بد أن يكون بتأثير نفس الصراع الذى أثارته علامة الخطر . والعصاب الحواذى أظهر مثال لهذه الظاهرة إذ يتمشى فيه نكوص اللبيدو مع الكبت جنبا إلى جنب .

سيداتى وسادتى : أخشى أن يكون بيانى هذا غامضا يشق عليكم تتبعه ، ولعلكم تحدسون أنه ليس مكتملا بأية حال . على أنى آسف لما سببه لكم من حرج . إن هدفى الوحيد يتلخص فى أن أشعركم بطبيعة كشوفنا وبالصعوبات التى يتعين علينا أن نواجهها ونحن نعالج هذه الكشوف . وكلما تعمقنا دراسة الظواهر النفسية ، أدركنا ما هى عليه من ثراء وتعقيد . هذا إلى أن كثيرا من الصيغ البسيطة تلوح لنا فى أول الأمر وافية بالغرض ، ثم لا تلبث أن يظهر عقمها فيما بعد . فلا مناص إذن من أن نحورها ونتناولها بالتهذيب دون انقطاع . لقد حدثتكم عن نظرية الأحلام فى محاضراتى هذه ، فلم نكد نلتقى فى ميدانها بكشف واحد جديد خلال الخمسة عشر عاما التى خلت . والآن إذ نتناول موضوع الحصر ، فكل شىء فيه متغير متطور . على أن هذه الوقائع الجديدة لم

تدرس بعد دراسة عميقة ، وربما كان هذا هو السبب فى صعوبة عرضها . ومع هذا ينبغى لكم أن تصابروا ففى وسعنا أن ندع مسألة الحصر عما قليل ، وإن كان هذا لا يعنى أنها قد حلت حلا يبعث على الرضا . لكنى أرجو أن نكون قد خطونا إلى الأمام خطوة فى هذا السبيل . وأشير عرضا إلى أننا ظفرنا من ذلك بكثير من المعلومات الجديدة . منها أننا نستطيع الآن ، بفضل دراسة الحصر ، أن نضيف سمة جديدة إلى السمات التى ميزنا بها الأنا . لقد قلنا إن الأنا ضعيف فى موقفه إزاء الهى ، وإنه خادمها الأمين الذى يعمل على تنفيذ أوامرها وتحقيق مطالبها . ولسنا نريد أن نرجع عن هذا التصريح ، لكن يجب أن نعترف من ناحية أخرى بأن هذا الأنا هو خير جوانب الهى تنظيما لأنه يواجه عالم الواقع . على أننا يجب ألا نغلو كثيرا فى هذا الفصال بينهما ، كما يجب ألا ندهش إن كان للأنا ، من جانبه ، تأثير فى عمليات الهى . وأعتقد أن الأنا يقوم بمثل هذا التأثير حين يحرك مبدأ اللذة والألم — وهو مبدأ شديد القوة — عن طريق علامة الخطر . صحيح أنه لا يلبث أن يبدى ضعفه بعد ذلك مرة أخرى ، لأن عملية الكبت تجعله يتنازل عن شىء من تنظيمه الدفاعى ويضطر إلى السماح للنزعة المكبوتة بأن تبقى على الدوام بمنأى عن تأثيره .

بقيت ملحوظة واحدة تتصل بمشكلة الحصر . لقد تحول العصابى فى أيدينا إلى حصر موضوعى ، إلى حصر يشعر به الفرد إزاء بعض مواقف الخطر الخارجية . غير أننا لا نستطيع أن نترك الموضوع عند هذا الحد ، بل يجب أن نخطو خطوة أخرى ولو أنها خطوة تراجعية بمعنى ما . ترى ما هو الشىء الخطر بالفعل الذى يخافه الفرد بالفعل فى مثل هذا الموقف الخطر ؟ من الجلى أنه ليس الأذى الموضوعى ، فقد لا يكون لهذا الأذى ، من الناحية النفسية ، أهمية على الإطلاق ، لكنه شىء من شأن هذا الأذى أن يثيره فى النفس . فالولادة مثلا ، وهى الطراز الأول لحالة الحصر لا تكاد تعتبر أذى فى ذاتها ، وإن كانت تتضمن احتمال حدوث الأذى . والشىء الجوهرى فى الولادة ، كما فى كل موقف خطر ، أنها تثير فى النفس حالة من التوتر الشديد يألم منها الفرد ولا يمكن التخلص منها بالتفريغ والتصريف . ولنسم مثل هذه الحالة التى لا تجدى فيها جهود مبدأ اللذة بالعامل الصدمى (Traumatic) فإذا نظرنا الآن فى السلسلة المكونة من الحصر العصابى — الحصر الموضوعى — الموقف الخطر ، استطعنا أن نصل إلى نتيجة هى أن ما يخافه الفرد ، أى موضوع الحصر ، هو على الدوام انبعاث عامل صدمى

لا يمكن أن يستبعد ويعالج وفاقا لقواعد مبدأ اللذة . وهنا نرى على الفور أن فعل مبدأ اللذة ليس كفيلا أن يدرأ عنا الأذى الموضوعى ، بل لا يعدو أن يدرأ عنا ضررا معينا يتهدد تنظيمنا النفسى . فالشقة بعيدة بين مبدأ اللذة وغريزة المحافظة على النفس ، ويبعد أن يقوم بينهما تعاون متبادل من أول الأمر . على أننا نلحظ شيئا آخر ربما أتاح لنا الحل الذى ننشده . ذلك أننى أرى أننا نتناول طول الوقت مسائل تتصل بكميات نسبية . فجسامة التنبيه التى تحيل الانطباع إلى عامل صدمى هى وحدها التى تشل حركة مبدأ اللذة وتفرغ على موقف الخطر دلالة ومعنى . ولئن كان هذا ما يحدث حقا ، وكان من الممكن أن تحل المشكلة بمثل هذا الحل البسيط ، فلمَ لا يمكن أن تحدث أمثال هذه العوامل الصدمية فى الحياة النفسية حتى إن لم يكن هناك موقف خطر على الإطلاق ؟ فى مثل هذه الأحوال لا يكون الحصر مجرد علامة وإنذار ، بل ينبعث كأنه خلق جديد ولأسباب جديدة . وتعلمنا الخبرة الكلينيكية أن هذا هو ما يقع بالفعل ، فضروب الكبت المتأخرة هى وحدها ما يفصح عن هذه العملية التى وصفنا حيث يستدعى الحصر باعتباره علامة على موقف خطر سابق . أما أقدم ضروب الكبت فتنشأ مباشرة من عوامل صدمية حين يصطدم الأنا بمطالب لبيدية باهظة . وهذه العوامل الصدمية تولد حصرها الخاص بها لكنه يكون على غرار موقف الولادة . وقد يصدق هذا نفسه على تولد الحصر فى العصاب الحصارى الذى ينشأ من إصابة الوظيفة الجنسية بأذى جسمى . وعلى هذا فلن نصر بعد على أن اللبيدو ذاتها هى التى تتحول إلى حصر فى مثل هذه الحالات . غير أنى لا أرى بأسا فى أن أفترض للحصر مصدرا مزدوجا : فإما أن يكون لعامل صدمى ، أو إنه علامة على أن عاملا صدميا من هذا النوع يوشك أن يقع مرة أخرى .

* * *

سيداتى وسادتى

لقد انتهيت من موضوع الحصر ولا شك فى أنكم تبتهجون بهذا ، غير أن ابتهاجكم لن يدوم طويلا ، فالموضوع الذى سننظر فيه الآن ليس أقل منه حرجا ووعورة . واقترح أن أسير بكم رأسا إلى موضوع نظرية اللبيدو أو موضوع الغرائز ، فقد حدثت تطورات جديدة كثيرة فى هذا المجال أيضا . على أن التقدم الذى أحرزناه فى هذه الناحية لا يستحق أن نبذل فى سبيل معرفته جهدا كبيرا . وهو بعد مجال نناضل فيه نضالا عنيفا

لنظفر بشيء من الفهم والتوجيه . وحسبكم أن تكونوا شهداء على ما نبذله فيه من جهود . على أني سأكون مضطرا هنا أيضا أن أعيد كثيرا مما قدمت فى محاضراتى السابقة .

إن نظرية الغرائز هى أسطورة أصحاب التحليل إن جاز التعبير فالغرائز كائنات أسطورية فخمة ومبهمة فى الوقت نفسه . ومع أنه لا يسعنا أن نتغاضى عنها لحظة واحدة فى عملنا ، فلسنا واثقين ألبتة من أننا نتصورها تصورا واضحا جليا . تعرفون ما هو الرأى الدارج عن الغرائز . إنه يفترض من الغرائز المختلفة ما تقتضيه الحاجة : فغريزة للتسلط والسيطرة ، وأخرى للمحاكاة ، وثالثة للعب ، وغريزة اجتماعية ، وقدر آخر كبير من أمثال تلك . وهو يمسك بها ، إن صح التعبير ، ويجعل كل واحدة منها تؤدى عملها الخاص بها ثم يذرها مرة أخرى . ولقد كنا نشتبه دائما أن وراء هذا الجمع من الغرائز الصغيرة العارضة شيئا أقوى بكثير منها وأشد خطرا ، شيئا لا بد أن ندنو منه فى حيطة وحذر . وكانت خطواتنا الأولى فى هذا السبيل من قبيل المحاولة والخطأ . لقد كنا نشعر أنه لا يحتمل أن نضل ضلالا كبير إن بدأنا بالتمييز بين غريزتين رئيسيتين أو نوعين أو مجموعتين من الغرائز تناظران الحاجتين الرئيسيتين عندنا : الجوع والحب . وإنَّا وإن كنَّا قد دافعنا ، فى غير هذا المكان ، دفاعا غيورا عن استقلال علم النفس عن جميع العلوم الأخرى ، لكن لا يسعنا إلا أن نعترف أنه يتأثر فى هذه الناحية بحقيقة بيولوجية لا مراء فيها ، هى أن الكائن الحى يستهدف غايتين : هما المحافظة على نفسه والمحافظة على نوعه . ويبدو أن إحداهما مستقلة عن الأخرى وأنه لا يمكن رجعهما إلى مصدر واحد ، هذا إلى أنهما غالبا ما يتعارضان فى حياة الحيوان ويصطرعان . الواقع أننا نتناول هنا علم النفس البيولوجى ، وندرس الظواهر النفسية التى ترافق العمليات البيولوجية . ولقد أدخلنا « غرائز الأنا » و « الغرائز الجنسية » فى التحليل النفسى لأنها تصور هذا الاتجاه وتوضحه . ثم أدرجنا فى نطاق الغرائز الأولى كل ما له صلة بالمحافظة على الفرد ووقايته ورقيه . ونظمنا فى سلك الغرائز الأخرى ذلك المحتوى الوفير الذى تتضمنه الحياة الجنسية الطفلية والمنحرفة . ولقد أفضت بنا دراسة الأمراض النفسية إلى أن الأنا هو القوة الحاظرة الكابتة ، وأن النزعات الجنسية هى موضوع الحظر والكبت . ومن ثم حسبنا أننا لمسنا بأيدينا فرق ما بين هاتين المجموعتين من الغرائز ، وكذلك ما يقوم بينهما من صراع واصطدام . لقد اقتصرت دراستنا فى

أول الأمر على الغرائز الجنسية التى أسمينا طاقتها « باللبيدو » ، ومن دراستها حاولنا أن نكون لأنفسنا فكرة واضحة عن ماهية الغرائز وصفاتها . وهنا نصل إلى نظرية اللبيدو .

تختلف الغريزة عن المنبه فى أنها تنشأ من مصادر للتنبيه داخل الجسم نفسه ، وفى أنها تعمل كقوة ثابتة . هذا إلى أن الفرد لا يستطيع أن يتخلص منها بالهرب كما لو كان إزاء منبه خارجى . فالغريزة يمكن أن توصف بأن لها مصدرا وموضوعا وأنها ترمى إلى هدف . فأما مصدرها فحالة من الاهتياج تحدث داخل الجسم ، وأما هدفها فإزالة هذا الاهتياج . وفى أثناء الطريق الذى يصل بها من مصدرها إلى هدفها يبدو نشاطها فى الناحية النفسية . فنحن نتصورها مقدارا معينا من الطاقة يقتحم طريقه فى اتجاه معين . وقد اعتدنا أن نتكلم عن غرائز فاعلة وأخرى قابلة (Passive) والأدنى إلى الصواب أن نقول إن الغرائز ترمى إلى أهداف فاعلة أو قابلة لأنه لا بد من صرف للنشاط حتى لبلوغ هدف سلبى قابل . وقد يجد الفرد هذا الهدف فى جسمه الخاص أحيانا ، لكن موضوعا خارجيا يتدخل عادة فيتيح للغريزة تحقيق هدفها فيه . أما الهدف الداخلى فهو على الدوام تحوير جسمى يشعر به الفرد كنوع من الرضا والارتياح . ترى هل تكتسب الغريزة أية خصائص نوعية من صلتها بالمصدر الجسمى ، وإذا كان الأمر كذلك فما تلك الخصائص ؟ هذا أمر نجهله كل الجهل . وقد دلتنا الخبرة التحليلية دلالة قاطعة على أن الدفعات الغريزية النابعة من مصدرها يمكن أن تتحد بدفعات غريزية من مصدر آخر فتشترك معها فى نفس المصير . كما بينت لنا أن إشباع غريزة يمكن أن يستبدل به إشباع غريزة أخرى بوجه عام . على أننا يجب أن نسلم فى صراحة أن هذا كله لم يفسر بعد تفسيرا واضحا . كما أن صلة الغريزة بهدفها وبموضوعها قابلة للتغير كذلك ، إذ يمكن أن يستعاض عنهما بغيرهما ، بيد أن صلة الغريزة بموضوعها أسهل تبدلا وتغييرا . وهناك نوع خاص من تحور الهدف وتغير الموضوع يحسب فيه للقيم الاجتماعية حسابا ، وهذا هو ما نسميه بالإعلاء[١] . وثمة أيضا ما يدعونا إلى أن نميز ما نسميه بالغرائز المكفوفة الهدف[٢] ، وهى غرائز تنبع من مصادر معروفة ولها أهداف معينة ، لكنها لا تستطيع أن تظفر بإشباع نفسها ، فينجم عن ذلك نشوء شحنة موضوعية مستديمة وقوة دافعة

---

(١) Sublimation   (٢) Aim-inhibited Instincts

موصولة . من أمثالها الشعور بالعطف والمحبة ، الذى يصدر دون ريب من الحاجات الجنسية لكنه يعرض دائما عن إشباعها . وهكذا ترون أننا لا نزال نجهل الكثير من خصائص الغرائز وتاريخها . ولا يفوتنا أن نشير فى هذا المقام إلى فارق آخر بين الغرائز الجنسية وغرائز حفظ الذات ، وهو فارق لو انسحب على المجموعة بأسرها لكانت له أكبر أهمية من الناحية النظرية : ذلك أن الغرائز الجنسية تسترعى الانتباه بما لها من لدونة ومرونة ، وبما تتسم به من سهولة فى تغيير أهدافها ، وفى الاستعاضة عن شكل من أشكال الإشباع بآخر ، هذا إلى قدرتها على أن تظل فى حالة معلقة كما رأينا فى الغرائز المكفوفة الهدف . فحبذا لو تسنى لنا أن نثبت أن هذه الخصائص لا تنطبق على غرائز حفظ الذات أى أنها غرائز صلبة لا تنثنى ولا تلين ، ولا تمتثل للإرجاء والتأجيل ، وأنها أشد إلحاحا بكثير من الغرائز الجنسية ، وتستجيب للكبت وللحصر بطرق مختلفة . غير أننا إن أنعمنا النظر رأينا أن هذه الخصائص الأخيرة لا تنطبق على غرائز الأنا كلها ، بل على غريزتى الجوع والعطش فحسب ، وإنها ترجع إلى الطبيعة الخاصة لمصادرهما الغريزية . كذلك مما يوقعنا فى الحيرة والارتباك أننا لم نلق بالا قط إلى التحويرات التى تصيب الدفعات الغريزية التى تنتمى أصلا إلى الهى بتأثير الأنا المنظم .

على أننا لا نجد أنفسنا فى مثل هذا الوضع القلق لو درسنا الكيفية التى تخدم بها الحياة الغريزية الوظيفة الجنسية . ولقد ظفرنا فى هذه الناحية بمعلومات محددة حاسمة تعرفونها من قبل : فليس هنا ما يدعو إلى الاعتقاد بوجود غريزة جنسية واحدة تكون من أول الأمر مطية الحافز الجنسى إلى هدف الوظيفة الجنسية وهو اتحاد الخليتين الجنسيتين . بل الأمر على عكس هذا فنحن نلحظ عددا كبيرا من نزعات جزئية تنبعث من مختلف مناطق الجسم ، وتلح فى طلب الإشباع مستقل بعضها عن بعض بقدر قليل أو كبير ، وتجد هذا الإشباع فيما يمكن أن نسميه التلذذ من الأعضاء . والأعضاء التناسلية هى آخر المناطق الشهوية التى تنصب عليها الغريزة ، كما أن التلذذ العضوى المستمد بها يجب أن يسمى تلذذا « جنسيا » ما فى ذلك شك . ثم إن هذه النزعات الجزئية التى تلتمس اللذة لا تكون مندمجة كلها فى التنظيم النهائى للوظيفة الجنسية : فكثيرا منها يطرح جانبا لأنه لا غناء فيه ، وذلك عن طريق الكبت أو غيره من الوسائل ، كما أن بعضها يحيد عن أهدافه على النحو العجيب الذى وصفنا من قبل ، ويستخدم فى تقوية نزعات أخرى ، على حين يبقى البعض الآخر ليقوم بأدوار ثانوية فيكون غرضه التمهيد لوظيفة التناسل

نفسها واستثارة النشوة التى تسبقها . وتعرفون أن الوظيفة الجنسية تجتاز فى نموها وتطورها مراحل وأطوارا عدة من التنظيم المؤقت ، وأن تاريخها هذا يسمح لنا بتفسير ما يصيبها من زيغ واعوجاج فى النمو . وقد سمينا أول طور من الأطوار القبتناسلية[١] بالطور الشفوى لأن منطقة الفم الشهوية هى التى تسود ما يمكن أن نسميه النشاط الجنسى للرضيع فى هذه المرحلة من حياته نظرا لأنه يتغذى عن طريق فمه . يلى ذلك طور يكون فيه مركز الصدارة للنزعات السادية والشرجية التى يتفق ظهورها مع الاثغار واشتداد العضلات وضبط وظيفتى التبول والتبرز . ولقد تسنى لنا أن نعرف كثيرا من التفاصيل الطريفة لهذه المرحلة العجيبة من التطور بوجه خاص . أما الطور الثالث فهو الطور القضيبى ، وفيه يكون للقضيب عند الصبى (وما يناظره عند البنت) أهمية لا يمكن أن نغفل عنها . على أننا قد احتفظنا باسم الطور التناسلى للتنظيم الجنسى الأخير بعد البلوغ حيث يحظى العضو التناسلى للأنثى ، لأول مرة ، بالمكانة التى كان يحظى بها العضو التناسلى للذكر منذ عهد طويل .

هذا كله لا يعدو أن يكون تلخيصا لأشياء تعرفونها من قبل . ولا يتطرق إلى أذهانكم أن الأشياء التى حذفتها من بيانى هذا لم تعد بعد صحيحة . على أن هذا التلخيص كان تمهيدا لا بد منه للربط بين هذه المعلومات القديمة وما ظفرنا به من معلومات جديدة عن الموضوع . وإنا لنبتهج إذ أتيح لنا أن نعرف أشياء كثيرة عن موضوع التنظيمات الباكرة لليبدو ؛ ولأننا ازددنا فهما للظواهر التى نعرفها من قبل . وإليكم بضعة أمثلة أقدمها شاهدا على ما أقول : فقد استطاع إبراهام فى عام ١٩٢٤ أن يميز بين شقين فى الطور السادى الشرجى . فى أولهما يكون مركز الصدارة للنزعات الهدامة التى ترمى إلى تدمير الأشياء والتخلص منها . وفى الثانى تسود النزعات التى يبدو فيها الود والتحبب نحو الموضوعات ، والتى ترمى إلى حفظ الأشياء وإمساكها . ففى وسط هذا الطور إذن يبدو للمرة الأولى اهتمام الطفل بالموضوعات الذى هو طليعة صلاته الحبية فيما بعد . كذلك لدينا ما يبرر لنا أن نفترض أن الطور الفمى يمكن فصله ، هو الآخر ، شقين . فى الشق الأول منهما إدماج[٢] شفوى ، ليس غير ، ولا يكون ثمة تناقض وجدانى[٣] فى صلة الرضيع بالموضوع وهو ثدى الأم . وفى

---

(١) Pregenital (٢) Incorporation (٣) Ambivalence

الثانى تكون الأسنان قد بدأت فى الظهور وأخذ الطفل يستعملها فى العض والقضم ، ومن ثم يوصف هذا الشق بالسادى الشفوى . هنا تبدو طلائع التناقض الوجدانى التى تتضح وتبرز فى الطور التالى أى الطور السادى الشرجى . إن فائدة هذه التمييزات الجديدة لتتضح بوجه خاص حين نريد أن نكشف عن مراكز التثبيت فى تطور اللبيدو ، تلك المراكز التى تهيئ لبعض الأمراض النفسية كالحواز(١) والسواد(٢) . ولعلكم تذكرون ما نعرفه من قبل عن الصلة بين تثبيت اللبيدو وبين الاستعداد المهيئ والنكوص .

لقد تغير موقفنا ، بوجه عام ، بعض التغير من أطوار التنظيم اللبيدى . فقد درجنا من قبل على أن نؤكد الطريقة التى يخلى بها طور معين السبيل إلى الطور الذى يليه . أما اليوم فيتجه أكثر اهتمامنا إلى مقدار ما يعلق من كل طور سابق بالتنظيمات اللاحقة وما يبقى منه وراءها فيكون له أثر دائم فى تنظيم اللبيدو وفى خلق الفرد . وأهم من ذلك ، تلك البحوث التى بينت لنا فى مناسبات كثيرة حدوث النكوص إلى الأطوار السابقة فى الظروف المرضية ، وأن هناك ضروبا معينة من النكوص تتميز بها أمراض معينة . على أنى لا أستطيع أن أقتحم هذه المسألة هنا ، فهذا من شأن الرسائل الخاصة بسيكولوجيا الأمراض النفسية .

وقد تسنى لنا أن ندرس تحول(٣) الغرائز وأمثالها من الظواهر ، خاصة فيما يتصل بالشهوية الشرجية(٤) التى يكون مصدر النزعات فيها مستقرا فى المنطقة الشهوية الشرجية . وقد دهشنا لكثرة الاتجاهات التى يمكن أن تتخذها هذه النزعات الغريزية . لقد درجنا على أن ننظر إلى الدور الذى تقوم به هذه المنطقة أثناء نمونا نظرة مهنية ، وربما شق علينا أن نتخلص من هذه النظرة ، فليستقر فى أذهاننا ما يذكرنا به أبراهام من أن الشرج يناظر الفم البدائى من ناحية التكوين الجنينى ، ثم انحدر بعد ذلك حتى بلغ نهاية الأمعاء . ويبدو أن الفرد حين يستقبح برازه وفضلاته فيما بعد فإن اهتمامه الغريزى

---

(١) Obsessional neurosis

(٢) Melancholia يلاحظ أن فرويد يدرج هذا الاضطراب فى عداد الأمراض النفسية على خلاف ما يراه جمهرة أطباء العقول اليوم . (المترجم)

(٣) Transformation (٤) Anal-Erotism

الناجم عن مصادر شرجية « يزاح » إلى موضوعات يمكن أن تعطى كهدايا . وهذا عين الحق ، لأن البراز أول هدية يستطيع أن يقدمها الرضيع . وهو يتركه ويتخلى عنه من جراء حبه الشخص الذى يرعاه . ثم يعود إليه الاهتمام القديم فيما بعد على صورة إعزاز للذهب وللنقود ، كما أنه يساهم أيضا فى الشحنة الوجدانية العالقة بفكرته عن الطفل وفكرته عن القضيب . ذلك أن الطفل جميعا يعتقدون ، كما نعلم ، أن المولود يولد من الشرج كأنه قطعة من براز . فالتبرز أول طراز للولادة . وهم يتشبثون بهذه النظرية — نظرية المبرز[1] — عهدا طويلا . كذلك القضيب فله عندهم سابقة فى عمود الغائط الذى يملأ الغشاء المخاطى للأمعاء ويهيجها . فإذا اتفق للطفل أن يعلم أن هناك أشخاصا ليس لهم قضيب ، بدا له هذا العضو كأنه شىء يمكن أن ينتزع من الجسم ، ومن ثم فهو يشبه الغائط من كل الوجوه : لأن الغائط أول قطعة من مادة الجسم يتعين عليه أن يذرها . على هذا النحو يتحول قدر كبير من الشهوية الشرجية التى تفرغ على القضيب . غير أن الاهتمام بهذا العضو ربما كان له ، إلى جانب أساسه الشهوى الشرجى ، أساس أقوى فى الشهوية الفمية ، لأن القضيب بعد الفطام يرث شيئا من حلمة ثدى الأم .

فإذا جهلنا هذه الصلات والارتباطات البعيدة الغور ، استحال علينا أن نفهم التخييلات[2] الشائعة بين الناس ، أو الخواطر التى تبدر إلى أذهانهم بفعل اللاشعور ، أو لغة الإعراض . فى هذه الأحوال يكون الغائط والنقود والهدية والطفل كلمات متكافئة المعنى تصور بالرمز نفسه . ولا يعزب عن بالكم أننى لا أستطيع أن أزودكم عن هذا الموضوع إلا بمعلومات بتراء إلى حد كبير . على أنى أستطيع أن أضيف إلى ما قلت أن الاهتمام بالمهبل فيما بعد مشتق ، فى المقام الأول ، من الاهتمام الشهوى الشرجى . ولا عجب فى هذا ، فالمهبل على حد التعبير البديع للو أندرياس سالومى (Lou Andreas-Salomé) « مستأجر » من المستقيم . كما أن المهبل يحل محله الشرج فى حياة المستجنسين[3] وهم نفر لم يتجاوزوا إلا حدا محدودا فى تطورهم الجنسى . وكثيرا ما نرى فى الأحلام مكانا يكون فى أول الأمر حجرة مفردة ، ثم ينشطر بعد ذلك حجرتين بوساطة حاجز يتوسطه ، أو نرى عكس ذلك ، وهذا يشير دائما إلى

Cloaga Theory(١)   Phantasies (٢)   Homosexuals (٣)

صلة المهبل بالمستقيم . كذلك نستطيع أن نلاحظ ، فى وضوح تام ، الطريقة التى تتحول بها رغبة البنت فى أن يكون لها قضيب — وهى رغبة غير أنثية إطلاقا — إلى رغبة فى أن يكون لها طفل ، ثم إلى رغبة فى الرجل باعتباره مالك القضيب وواهب الطفل . وهنا نرى أيضا كيف يندرج ، فى التنظيم التناسلى اللاحق ، جانب من الاهتمام الشهوى الشرجى السابق .

لقد أتيح لنا أثناء دراستنا الأطوار القبتناسلية للبيدو أن نظفر بلمحات جديدة عن تكوين الخلق . فقد بان لنا أن هناك ثلاثا من الخصال تكاد تكون مجتمعة على الدوام : العناية بترتيب الأشياء ، والتقتير ، والعناد . واستخلصنا من تحليل الأشخاص الذين يتسمون بها أنها تنشأ من تشتت الشهوية السادية لديهم واستخدامها بطرق أخرى . ونحن نسمى هذا الثالوث العجيب بالخلق السادى[١] ونقابل بينه ، على نحو ما ، وبين الشهوية السادية التى لم يصبها تحوير . كذلك ظهر لنا أن هناك ارتباطا شبيها بهذا ، بل ربما كان أوثق منه ، بين الطموح وشهوية مجرى البول[٢] وقد وقعنا على إشارة عجيبة إلى هذا الارتباط فى الأسطورة التى تقول إن الإسكندر الأكبر ولد فى نفس الليلة التى أحرق فيها هيروستراتوس معبد أرتميس بمدينة أفسوس طمعا فى الشهرة والصيت . ألا يبدو لنا من هذا أن القدماء كانوا يفطنون إلى الارتباط الذى نتكلم عنه ؟ وتعرفون من قبل ما بين التبول والنار وإطفاء النار من ارتباط وثيق . على أن لنا أن نتوقع العثور على سمات خلقية أخرى تكون مشتقة كذلك من تنظيمات لبيدية قبتناسلية ، إما فى صورة بقايا ورواسب أو فى صورة « تكوينات رديدة »[٣] . لكننا ما نزال عاجزين عن إيضاح ذلك والبرهان عليه .

لقد آن لى أن أعود بكم إلى مرحلة سابقة من مشكلتنا هذه فأستأنف دراسة الحياة الغريزية فى أعم مظاهرها . وأذكر لكم أولا أن نظريتنا عن اللبيدو قامت على المقابلة بين غرائز الأنا والغرائز الجنسية . فلما شرعنا بعد ذلك فى دراسة الأنا دراسة أكثر تفصيلا ، ووصلنا إلى فهم فكرة النرجسية ، لم يعد هذا التمييز صالحا . ففى بعض الحالات النادرة يتخذ الأنا نفسه موضوعا له ، ويتصرف كما لو كان يعشق نفسه . من

---

(١) Anal Character

(٢) Urethral Eratisn

(٣) Reaction-formations

أجل هذا استعرنا لهذه الظاهرة كلمة النرجسية[1] من الأسطورة اليونانية . غير أن ذلك لا يعدو أن يكون شططا وإسرافا فى مجرى الأمور الطبيعى . ثم انتهينا إلى أن نفهم أن الأنا هو المستودع الرئيسى للبيدو على الدوم : تصدر منه الشحنات اللبيدية حين تفرغ على الموضوعات ، ثم تعود إليه مرة أخرى ، فى حين يبقى الشطر الأكبر من هذه اللبيدو فى الأنا أبدا . أى أن اللبيدو الأنوية تتحول دون انقطاع إلى لبيدو موضوعية ، والعكس بالعكس . غير أن الأمر إن كان كذلك فإن طبيعة إحداهما لا يمكن أن تختلف عن طبيعة الأخرى ، ولا يكون ثمة مجال للتفرقة بين طاقة إحداهما وطاقة الأخرى . فإما أن نذر اصطلاح « اللبيدو » على الإطلاق ، أو أن نستخدمه بمعنى الطاقة النفسية إجمالا .

على أننا لم نستمسك بوجهة النظر هذه وقتا طويلا . إذ لم تلبث فكرة القوى المتباينة فى ثنايا الحياة الغريزية أن أفرغ عليها معنى آخر أكثر دقة وتحديدا . ولا أريد أن أطالعكم هنا بجميع التفاصيل التى تنطوى عليها هذه الكشوف الجديدة . فحسبكم أن تعرفوا أن نظريتنا الجديدة عن الغرائز تقوم فى صميمها على اعتبارات بيولوجية ، وسأحيطكم بالنتائج التى وصلنا إليها . فنحن نفترض أن هناك نوعين من الغرائز يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا جوهريا : الغرائز الجنسية بأوسع معنى لهذه الكلمة (أو غرائز الحب إن أردتم اسم إيروس Eros)[2] وغرائز العدوان التى تهدف إلى الهدم والتدمير . لكن عرض المسألة على هذا النحو لا يشعركم أن فى الأمر شيئا جديدا ، وأنى لا أعدو أن أفخم ذلك التقابل المعروف بين الحب والعداوة تفخيما نظريا ، وهو تقابل ربما يناظر قطبية الجذب والتنافر التى يفترضها علم الفيزياء فى العالم غير العضوى . والمستغرب أن كثيرا من الناس اعتبروا هذا الفرض بدعة ، بل بدعة مستهجنة خطيرة يجب اطراحها بأسرع ما يستطاع . وأعتقد أن هذا النبذ يرجع إلى عامل وجدانى شديد القوة . ألم يطل بنا الزمن ، نحن أنفسنا ، حتى انتهينا إلى الاعتراف بوجود غرائز عدوانية ؟ ولمَ أسرفنا فى التردد فلم ندعم نظريتنا إلى الآن بما يعززها من وقائع تثب إلى العين ويعرفها كل إنسان ؟ ولو أننا عزونا إلى الحيوانات غريزة ترمى إلى مثل هذا الهدف ، لم نلتق ، فى

---

(١) Narcissism

(٢) Eros : إله الحب عند قدماء الإغريق . (المترجم)

أكبر الظن ، إلا بمعارضة يسيرة . لكن إدراجها فى الجبلة[١] الإنسانية يبدو مروقا وكفرا لأنه يتعارض مع كثير من الانحيازات الدينية والعرف الاجتماعى . كلا ! فالإنسان لا بد أن يكون بفطرته خيرا أو أن يكون على الأقل نزاعا إلى الخير . فإن عرض له أن يكون جافيا فظا عاتيا ، فما تلك إلا اضطرابات عابرة فى حياته الانفعالية تستثيرها الظروف فى أغلب الأحوال ، وربما لا تعدو أن تكون أثرا للنظام الاجتماعى المعيب الذى يضطرب فيه .

غير أن شواهد التاريخ وخبراتنا الخاصة لا تساند هذا الرأى للأسف ولا تدعمه ، بل الأدنى إلى الصواب أنها تبين لنا أن الاعتقاد بأن طبيعة الإنسان « خيرة » ما هو إلا أحد تلك الأوهام المؤسفة التى يرجو الإنسان من ورائها نوعا من تزيين حظه أو تحسينه ، بيد أنه فى الواقع خداع ليس من ورائه إلا المصائب والنكبات . ومع هذا يجدر بنا أن نذر هذا الجدل العقيم : فنحن لم نفترض غريزة خاصة بالعدوان والتدمير عند الإنسان بناء على شواهد وخبراتنا الخاصة بالحياة ، بل بناء على اعتبارات عامة معينة أوحتها إلينا ملاحظة ظاهرتى السادية[٢] والمازوخية[٣] . تعرفون أننا نستخدم كلمة « السادية » حين يكون الإشباع الجنسى مرتهنا بتألم الموضوع الجنسى وإذلاله وسوء معاملته ، كما نستخدم كلمة « المازوخية » حين يكون الإشباع مرهونا بألم الشخص نفسه وترضضه وعذابه . كذلك تعرفون أن هاتين النزعتين تقومان بدور معين فى العملية الجنسية السوية ، وأننا نسميهما « انحرافين » حين تستبعدان الأهداف الجنسية الأخرى ، وتفلحان فى الاستعاضة عنها بهدفيهما الخاصين . وأكبر الظن أنكم لاحظتم أن السادية ذات ارتباط وثيق بالذكورة ، وأن المازوخية مرتبطة بالأنوثة ، كأن بين هذه وتلك صلة خفية من نوع ما . وأسارع إلى القول بأننا لم نخط فى هذا السبيل أكثر من ذلك . إن كلا من هاتين النزعتين ، وخاصة المازوخية ، مما يتعذر تعليله بنظرية اللبيدو . ولا نعدو الحق إذا قلنا إن الحجر الذى كانت ترجم به النظرية الأولى قد أصبح حجر الزاوية للنظرية التى تلتها .

ذلك أننا نعتقد أن السادية والمازوخية مثالان رائعان لالتحام الغرائز الشهوية بالغرائز

---

(١) Constitution
(٢) Sadism
(٣) Masochism

العدوانية ، ونسلم اليوم أنهما نموذجان لهذا الالتحام ، وإن جميع النزعات الغريزية التى نستطيع أن ندرسها ما هى إلا سبائك وصيغ تنجم من التحام هذين النوعين من الغرائز ، ومن الطبيعى أنهما يمتزجان بنسب متفاوتة كل التفاوت مختلفة جد الاختلاف . فالغرائز الشهوية تفضى إلى هذا الخليط بجملة أهدافها الجنسية الكثيرة فى حين لا تقوم الغرائز الأخرى إلا بتخفيف الاتجاه الرتيب للغرائز الأولى وتدريجه . إن هذا الفرض يفتح أمامنا بابا للبحث قد يصبح فى يوم مّا ذا أهمية بالغة لفهم العمليات الباتولوجية . ذلك أن الالتحام قد ينفك وينحل ، والنزعات الغريزية إن انحلت فأكبر الظن أن يجر هذا الانحلال أخطر العواقب على الوظيفة . على أن وجهة النظر هذه ما تزال جديدة كل الجدة ولم يحاول أحد أن يستغلها استغلالا عمليا .

ولنعد إلى المشكلة الخاصة التى تثيرها المازوخية . فلو أننا لم نلق بالا إلى مكوناتها الشهوية مؤقتا ، لدلت هذه الظاهرة على وجود نزعة هدفها إتلاف النفس وتدميرها . لقد قررنا من قبل أن الأنا (والأدنى إلى الصواب أن نقول هنا الهى ، الشخصية بكليتها) يشتمل أصلا على جميع النزعات الغريزية . فلو صح هذا على غريزة الهدم أيضا لنتج عنه أن المازوخية أقدم من السادية ، وأن السادية هى غريزة الهدم موجهة إلى خارج مما يفرغ عليها طابع العدوان . ومع هذا فلا بد أن تبقى كميات متفاوتة من غريزة الهدم الأصلية فى الداخل ، ويبدو أننا لا نستطيع إدراكها إلا فى حالتين : حين تلتحم بالغرائز الشهوية فتنشأ عنها المازوخية ، أو حين تتهدد العالم الخارجى فى صورة اعتداء مشحون بقدر متفاوت من الشهوية . وهذا يفضى بنا إلى النظر فيما يؤول إليه أمر العدوان إن لم يجد لنفسه منصرفا فى العالم الخارجى لوجود موانع موضوعية . فى هذه الحال قد يرتد العدوان إن لم يجد لنفسه منصرفا فى العالم الخارجى لوجود موانع موضوعية . فى هذه الحال قد يرتد العدوان على صاحبه فيزداد نزوعه لإتلاف نفسه . وسنرى أن هذا ما يحدث بالفعل ، وأن هذه العملية على جانب كبير من الأهمية . فكأن العدوان ينجم عنه ضرر بليغ بالفرد متى عاقه عائق ، وكأن الفرد يتعين عليه أن يقوم بتدمير أشياء أخرى وأشخاص آخرين كى لا يدمر نفسه ، وحتى يقى نفسه من النزعة إلى إتلاف النفس . فيا لها من ظاهرة مؤسفة تؤذى نفس عالم الأخلاق !

غير أن علماء الأخلاق سيجدون عزاءً لأنفسهم ، ولعهد طويل ، فى أن تأملاتنا هذه بعيدة الاحتمال والتصديق . والحق أنها غريبة تلك الغريزة التى تشغل نفسها بتدمير

بيتها الخاص ! صحيح أن الشعراء يتكلمون عن أشياء من هذا القبيل ، لكن الشعراء قوم غير مسئولين ، ينعمون بما يجيزه لهم الشعر من ترخص وتحلل . على أن هذه الأفكار ليست غريبة ، آخر الأمر ، عن علم وظائف الأعضاء ، فنحن نرى مثلا أن الغشاء المخاطى للمعدة يهضم نفسه . غير أنه يتعين علينا أن نسلم أن وجود غريزة لإتلاف النفس يقتضى توكيدا أكبر مما قدمنا . إذ ليس فى مقدورنا أن نصوغ فرضا شاملا بعيد المدى كهذا الفرض لا يرتكز إلا على بضعة نفر من الحمقى التعساء الذين يميلون إلى الأغراب فى أسلوب إشباعهم الجنسى . وأعتقد أننا نستطيع أن نجلو هذه الناحية لو تعمقنا دراسة الغرائز . إن الغرائز لا تتحكم فى الحياة النفسية فحسب ، بل تسود الحياة النباتية أيضا ، ولهذه الغرائز العضوية خاصة خليقة أن نعيرها أكبر اهتمام والتفات . وسواء كانت خاصة عامة تشترك فيها الغرائز جميعا ، أو لم تكن كذلك ، فمسألة لا نستطيع القطع فيها إلا فيما بعد . يلوح أن هذه الغرائز تهدف إلى إعادة حالة سابقة أصابها تغيير إلى ما كانت عليه ، ففى وسعنا أن نفترض أنه كلما تغير وضع معين واضطرب ، فسرعان ما تنبعث غريزة لتعيد الأمور سيرتها الأولى ، وذلك عن طريق ظواهر نستطيع أن نسميها التكرار القهرى . فتكون الأجنة لا يخرج عن أن يكون تكرارا قهريا . ولو تأثرنا السلسلة الحيوانية إلى أصولها البعيدة ، وجدنا لدى الحيوان قدرة على أن يعيد تكوين الأعضاء التى يفقدها . كما أن غريزة الشفاء[1] التى ندين لها بما لدينا من قدرة على استرداد الصحة ، بالإضافة إلى وسائلنا العلاجية ، قد تكون بقية من تلك القدرة التى يبدو أثرها بارزا على نحو عجيب ، عند الحيوانات الدنيا . ثم إن هجرة الأسماك لوضع البيض ، وربما كانت هجرة الطيور وجميع مظاهر الغريزة عند الحيوان ، كل أولئك يحدث بتأثير التكرار القهرى الذى يعبر عن الطبيعة المحافظة للغرائز . كذلك الحال فى مجال النفس ، إذ لا يشق علينا أن نقع على أدلة تشهد بوجود تلك الدفعة القهرية. فمما كان يثير دهشتنا دائما أن نرى الأحداث المنسية المكبوتة للطفولة الباكرة تعيد نفسها فى الأحلام وفى استجابات المريض أثناء العلاج بالتحليل ، وخاصة الاستجابات المتضمنة فى ظاهرة « الطرح »[2] ، بالرغم من أن استيقاظها على هذا

---

(١) لعل المؤلف يريد غريزة المحافظة على النفس . (المترجم)

(٢) Transference

النحو يتعارض مع متطلبات مبدأ اللذة : ذلك أن التكرار القهرى فى مثل هذه الأحوال يتغلب حتى على مبدأ اللذة نفسه . بل نستطيع أن نشهد هذه الوقائع نفسها خارج نطاق التحليل أيضا . فهناك أناس يعيدون طول حياتهم استجابات بعينها دون أن يأخذوها بالتصويب والتصحيح ، وبالرغم مما يصيبهم منها من أذى ، أو يلوح إنهم ضحايا حظ عاثر عات يطاردهم أبدا . لكنا إن أنعمنا النظر فى حالاتهم ، بان لنا أنهم هم الذين يجلبون هذا الحظ السيىء لأنفسهم على غير علم منهم . ومن ثم فنحن نفسر ما يسمى بالخلق الشيطانى بأنه نتيجة للتكرار القهرى .

لقد قلنا إن الغرائز ذات طبيعة محافظة ، فكيف تعيننا هذه الخاصة على فهم النزعة إلى إتلاف الذات ؟ وما تلك الحالة الأولى التى تحاول الغريزة أن تعيدها إلى ما كانت عليه ؟ أما الجواب عن هذا السؤال فحاضر ميسور ، وهو يفتح أمامنا آفاقا شاسعة . فلو صح أن الحياة نشأت أصلا من مادة غير حية ، فى ماض سحيق مسرف فى السحق وبطريقة يعز علينا تصورها ، فلا بد — وفاقا لما افترضناه — أن انبعثت فى ذلك العهد غريزة تهدف إلى محو الحياة وإعادتها إلى الحالة غير العضوية التى كانت عليها من قبل . وإذا كانت تلك الغريزة تنطوى على النزعة إلى هدم النفس ، فيما يذهب إليه فرضنا ، أمكننا أن نعتبر هذه النزعة مظهرا لغريزة الموت تتفصح فى كل العمليات الحيوية دون استثناء . من هذا نستطيع أن نقسم الغرائز التى نسلم بوجودها مجموعتين : الغرائز الشهوية التى تسعى أبدا إلى جمع المادة الحية بعضها إلى بعض فى وحدات كبيرة يطرد كبرها ، وغرائز الموت التى تناهض هذا الميل وتعمل على رد المادة الحية إلى حالة غير عضوية . ومن تضافر هاتين القوتين وتنافرهما تنشأ ظواهر الحياة حتى يختم عليها الموت .

كأنى بكم تهزون أكتافكم وتقولون : « ليست هذه نظرية علمية ، إن هى إلا فلسفة شوبنهاور ! » . وهل على المفكر الجرىء حرج أن يحدس شيئا يقوم البحث الرزين الشاق بتوكيد تفاصيله فيما بعد ؟ ومع هذا فهل غادر الأقدمون من شىء لم يقولوه ، بل ألم يقل كثير من الناس بمثل هذه الأفكار من قبل شوبنهاور بزمان طويل ؟ ثم إن ما ذكرته ليس بعينه ما قاله شوبنهاور . فنحن لم نقرر أن الموت هو الهدف الوحيد للحياة ، ولم نغفل عن وجود الحياة إلى جانب الموت ، بل نعترف بغريزتين أساسيتين ، وننسب إلى كل منهما هدفها الخاص أما كيف تمتزج الغريزتان فى العمليات الحيوية ،

وكيف تقسر غريزة الموت — خاصة حين تتجه إلى خارج فى صورة اعتداء — وتعمل على خدمة الغرائز الشهوية ، فمسألتان يرتهن حلهما ببحوث المستقبل . وأما نحن فحسبنا أنا أمطنا اللثام عن آفاق جديدة ، وسنقف عند هذا الحد . وعلى هذا فلن نتعرض للبحث فيما إذا كانت الغرائز جميعها دون استثناء تتسم بطابع محافظ ، وفيما إذا كانت الغرائز الشهوية تعمل ، هى الأخرى ، على استعادة حالة سابقة حين تجهد فى تكوين وحدات أكبر من المادة الحية .

لقد ذهبت بنا شجون الحديث بعيدا عن موضوعنا . فأذكركم بأن نقطة البدء فى تأملاتنا هذه عن نظرية الغرائز كانت نفس النقطة التى حملتنا على إعادة النظر فى الصلة بين الأنا واللاشعور : وهى المقاومة التى يبديها المريض أثناء العلاج بالتحليل ، والتى لا يفطن إليها إطلاقا فى الكثير الغالب من الأحيان . على أنه لا يكون غير شاعر بمقاومته فحسب ، بل ولا يشعر بالدوافع إليها أيضا . وكان لزاما علينا أن نبحث عن الدافع أو الدوافع إلى المقاومة . ولشد ما كانت دهشتنا حين وجدنا إلى حاجة ملحة إلى عقاب النفس لم نر بدا من أن ندرجها فى زمرة الرغبات المازوخية . إن الأهمية العملية لهذا الكشف لا تقل خطرا عن أهمية النظرية ، لأن هذه الحاجة إلى عقاب النفس أكبر عقبة تعترض جهودنا فى العلاج . فهى حاجة يرضيها الألم الذى يصطبغ به العصاب ، ومن ثم فهى تتشبث بالمرض تشبثا مكينا . ويبدو أن هذا العامل — وهو الحاجة اللاشعورية إلى عقاب النفس — يقوم بدور فى كل مرض عصابى . يشهد على صدق هذا الرأى بصورة لا يرقى إليها الشك ، تلك الحالات التى يختفى فيها الألم العصابى حين يظهر ألم من نوع آخر . وإليكم مثالا على ما أقول : لقد أفلحت ذات مرة فى تحرير عانس نصف من زملة أعراض[1] كانت تنغض حياتها خلال خمسة عشر عاما ، وتحول بينها وبين الأخذ من الحياة بأى نصيب . فلما شعرت أن صحتها ردت إليها ، انطلقت تسهم فى الحياة بنشاط موفور كى تنمى مواهبها التى لم تكن ضئيلة بحال ، وكى تعوض ما تفتقده من المتعة والنجاح والتقدير قبل أن يفوت الفوت . غير أن محاولاتها جميعا باءت بالفشل : فقد وضح لها أو خيل إليها أنها بلغت سنا لا تتيح لها أن تنجز شيئا من هذا القبيل . وكان المنتظر أن تنتكس إلى المرض كلما تحقق لها شىء من ذلك ، لكن احتماءها

---

(١) Syndrome

بالمرض لم يعد ممكنا . فكانت تصيبها بدل المرض حوادث تقعدها إلى حين وتسبب لها ألما : كأن تقع فيصيبها رض فى قدمها أو أذى فى ركبتها ، أو تجرح يدها وهى تقوم بعمل شىء . وحالما فطنت إلى الدور الكبير التى تقوم به هى نفسها فى وقوع هذه الحوادث التى تبدو محض مصادفة ، عملت على تغيير خطتها هذه إن صح هذا التعبير . فبدل هذه الحوادث أصبح يحل بها فى نفس الظروف وعكات خفيفة كالزكام والتهاب الحلق وحالات الإنفلونزا أو التورم الروماتزمى . فلما صح عزمها آخر الأمر على أن تستسلم لتصورها انتهى كل شىء مما كان يعرض لها .

أما عن أصل هذه الحاجة اللاشعورية إلى عقاب النفس ، فأرى أنه لم يعد مثار شك . ذلك أن هذه الحاجة تتصرف كما لو كانت جزءا من الضمير ، كما لو كانت امتداد الضمير فى اللاشعور ، أى أنها بمثابة قطعة من العدوان تبطنها الفرد واستحوذ عليها الأنا الأعلى . وقد كنا نستطيع أن نسمى هذه الحاجة « بالإحساس اللاشعورى بالذنب » ، لكنها عبارة تنطوى على تناقض لفظى . على أن لوصفها بهذا الوصف ما يبرره من الناحية العملية . أما من الناحية النظرية فالواقع أننا لا نزال فى مجال الشك : أيتعين علينا أن نفترض أن كل العدوان المرتد من العالم الخارجى يستحوذ عليه الأنا الأعلى ، ويستخدمه ضد الأنا على هذا النحو ؟ أم يجوز لنا أن نعتبر أن شطرا من هذا العدوان يقوم كذلك بنشاطه الصامت الرجيم فى الأنا والهى كأنه غريزة هدم طليقة . يبدو أن الفرض الثانى أقرب الفرضين احتمالا ، لكن هذا كل ما نستطيع أن نقوله عنه . ومن المؤكد أن شطر العدوان الذى يفضى إلى تكوين الأنا الأعلى فى بدء نشأته هو عدوان الطفل الموجه إلى أبويه ، ذلك العدوان الذى لم يجد له الطفل منصرفا فى الخارج نظرا لتثبيته الحبى ولموانع خارجية ، وهذا هو السبب فى أن صرامة الأنا الأعلى لا تتمشى بالضرورة مع صرامة التربية . وأكبر الظن أن العدوان كلما قمع فى الظروف التالية اتخذت الغريزة المسلك الذى كان مفتوحا أمامها فى تلك المرحلة الحاسمة .

أما من يستبد به هذا الإحساس اللاشعورى بالذنب إلى حد كبير ، فيعرفون أثناء العلاج التحليلى باستجاباتهم السلبية — وهذا نذير سوء فى سير المرض . العادة أننا إذا أعنا مريضا على حل عرض يشكو منه ، ترتب على هذا اختفاء العرض مؤقتا على الأقل . لكن الأمر على عكس هذا مع هؤلاء المرضى ، إذ تكون النتيجة أن تشتد سورة العرض اشتدادا مؤقتا مع ما يصاحبه من ألم وعذاب . بل يكفى غالبا أن ينطلق المحلل بكلمة

يطرى فيها سلوك المريض أثناء العلاج أو توحى بالأمل فى تقدم التحليل حتى تسوء حالة المريض على نحو لا يخطئه التقدير . وإن شخصا لا عهد له بالتحليل ليقولن إن هؤلاء تعوزهم « الرغبة فى الشفاء » ، أما أصحاب التحليل فيرون فى سلوكهم مظهرا لإحساس لا شعورى بالذنب يعزز المرض وما يصاحبه من آلام وتعطيل . وأشير إلى أن المشاكل التى يثيرها الإحساس اللاشعورى بالذنب وصلته بالأخلاق والتربية والجريمة والجناح هى المجال الأثير لبحوث التحليل النفسى فى الوقت الحاضر . وهذا يخرجنا على حين فجأة من غيابة النفس ومجاهلها إلى وضح النهار والحياة الجارية . على أنى لا أستطيع أن أمضى بكم إلى أبعد من هذا وإن كنت أريد أن أستوقفكم بضع لحظات لأطلعكم على اعتبار آخر قبل أن أختتم : لقد درجنا على أن نقول إن حضارتنا تقوم على حساب نزعاتنا الجنسية التى يكتنها المجتمع فيكبت بعضها ويستخدم البعض الآخر لأهداف جديدة . ومهما أخذنا الزهو مما أنجزناه من صروح للثقافة ، فلا بد من التسليم بأنه ليس من اليسير بحال أن نرضى متطلبات الحضارة وأن نعيش فى كنفها هونا ، لأن كبح الغرائز يبهظنا بعبء نفسى ثقيل . وإن ما يصدق على الغرائز الجنسية يصدق أيضا إلى نفس الحد ، إن لم يكن إلى حد أبعد على الغرائز الأخرى ، غرائز العدوان . فهذه الغرائز تجعل الحياة فى جماعة أمرا عسيرا ، بل تتهدد بقاء الجماعة أيضا . وإن أول تضحية يتطلبها المجتمع من كل فرد من أفراده ، بل ربما كانت أشق تضحية هى أن يغل عدوانه ويكبحه . وقد عرفنا بأية طريقة بارعة يراض هذا العنصر الجموح . فقيام الأنا الأعلى ، الذى يجتذب إلى نفسه النزعات العدوانية الخطرة ، مثله كمثل إدخال حامية فى منطقة توشك أن تثور . غير أننا من جهة أخرى لو نظرنا إلى الأمر من ناحية نفسية محضة ، فلا مناص من أن نسلم بأن الأنا لا يرتاح إطلاقا حين يجد أنه قد ضحى بنفسه على هذا النحو لمطالب المجتمع ، وحين يتعين عليه أن يرضخ ويسلم نفسه للنزعات العدوانية الهدامة التى كان يود نفسه أن يوجهها إلى الآخرين . فكأن دنيا النفس يسودها ذلك المبدأ الذى يسود العالم العضوى : كل أو فأنت مأكول . لكن غرائز العدوان لا تكون ، لحسن الطالع ، منعزلة وحدها ألبتة ، بل تتحد معها على الدوام غرائز شهوية . وعلى هذه الغرائز الشهوية أن تخفف الشىء الكثير وأن تتفادى الشىء الكثير فى ظروف الحضارة التى خلقها الإنسان لنفسه .

المحاضرة الثالثة والثلاثون

نفسية المرأة

سيداتى وسادتى . لقد كنت أحس فى قرارة نفسى بحرج كبير طول الوقت الذى كنت أعد فيه هذه المحاضرات . وأشعر أنى لست متأكدا من الحدود التى يرخص لى فيها القول . فالحق الذى لا ريب فيه أن التحليل النفسى قد ربا وتغير خلال الخمسة عشر عاما التى خلت ، ومع هذا فمن الممكن أن يظل « التمهيد للتحليل النفسى » كما هو عليه دون أن يتناوله بسط أو تغيير . وإنى ليقر فى نفسى على الدوام أن ليس ثمة داع لهذه المحاضرات : فهى بالنسبة إلى المحللين نزر يسير وليس فيها على الإطلاق شىء جديد ، فى حين أنها تعرض عليكم أكثر مما ينبغى عرضه ، وتروى لكم أشياء لستم مهيئين لفهمها وليست مهيأة لأذهانكم . وقد طفقت ألتمس الاعتذار وحاولت تبرير كل محاضرة منها بمبررات مختلفة . فأما المحاضرة الأولى التى تدور على نظرية الأحلام فكانت ترمى إلى أن تعود بكم على التو إلى جو التحليل ، وإلى أن تبين لكم كيف صمدت فروضنا وبقيت على مر الزمن . وأما المحاضرة الثانية التى تتأثر الصلة بين الأحلام وما يسمى بالظواهر الغيبية فقد أغرانى بعرضها ما تتيحه لى من فرصة أقول فيها شيئا عن مجال للبحث يقوم فيه صراع عنيف بين أناس أعماهم التشيع وخصوم مضطرمين ، وقد أفسحت لنفسى الأمل فى ألا تعرضوا عن مصاحبتى فى هذه الجولة على أن يكون رائدكم الحكم الذى مرن على التسامح وسعد به — سنة التحليل النفسى ومثاله ، وقد تناولت المحاضرة الثالثة تشريح الشخصية النفسية ، وليس من شك أنها عنفت بكم تعنيفا شديدا إذ كان موضوعها على درجة كبيرة من الغرابة ، غير أنه كان من المحال أن أحجب عنكم هذه الإضافة الأولى إلى سيكولوجيا الأنا ، ولو كانت تلك المادة لدينا منذ خمسة عشر عاما لكنت ذكرتها لكم فى ذلك الحين . أما المحاضرة الأخيرة ، وأكبر الظن أنكم لقيتم فى تتبعها عنتا كبيرا ، فكانت تشتمل على بعض تصويبات ضرورية ومحاولات جديدة لحل أهم المشكلات ، ولو كنت سكت عنها لكان تمهيدى هذا أدنى أن يمشى بكم إلى ضلال من دون شك . وهكذا ترون أن المرء متى حاول أن يطلب المعذرة لنفسه ،

انتهى به الأمر أن يرى أن كل ما فعل لم يكن منه بد ، وأن كل ما حدث كان حقا مقضيا من قبل . لذا فأنا أذعن للأقدار وأرجو أن تقتدوا بى فى هذا .

ليست محاضرة اليوم ، هى الأخرى ، مما ينبغى أن يزج به فى « تمهيد للتحليل » ، لكنها قد تعطيكم مثالا للعمل المفصل الذى يقوم به التحليل . وهناك شيئان آخران أستطيع أن أضيفهما تبريرا لعرضها عليكم : فهى لا تحتوى إلا على وقائع صادرة عن الملاحظة ، وتكاد تخلو من كل إضافات تقوم على النظر والتأمل ، هذا إلى أنها تتصل بموضوع يكاد يسترعى اهتمامكم أكثر من أى موضوع آخر . فقد كانت المرأة لغزا حير الناس على اختلاف أنواعهم فى كل العصور :

قال الشاعر « هينه » (Heine) فى (بحر الشمال) (Nordsee)

رءوس فى قبعات غريبة
ورءوس فى عمامات وعمائر سود
ورءوس مضفرة وآلاف أخر
من رءوس مسكينة تنضح بالعرق

ولعلكم فكرتم كذلك فى هذه المشكلة بوصفكم رجالا . أما النساء فيمن بينكم فلا ينتظر منهن هذا ، لأنهن اللغز أنفسهن . إنكم متى التقيتم بكائن بشرى ، عرفتم على التو ما إذا كان رجلا أو امرأة ، بل إن هذا التمييز هو أول ما يثب إلى أعينكم ، وقد ألفتم أن تقوموا به عن يقين تام . وإن علم التشريح ليشارككم هذا اليقين فى نقطة واحدة ليس غير . فأما الذكر فهو الإفراز الجنسى الذكرى ،ز هو الحيوان المنوى وما يحمل هذا الحيوان ، وأما الأنثى فهى البيضة والجسم الذى يحتويها . ولقد تكونت فى كل من الجنسين أعضاء معينة تخدم الوظائف الجنسية وحدها ليس غير ، ومن المحتمل أنها نمت من أصل بعينه ثم تفرعت تكوينين مختلفين . يضاف إلى هذا أن الأعضاء الأخرى ، فى كلا الجنسين ، كالأنسجة وشكل الجسم تتأثر بالجنس (الخصائص الجنسية الثانوية) ، غير أنه تأثير متفاوت الدرجة غير منتظم . وأخيرا يحدثنا العلم عن شىء أكبر الظن أنه لم يكن فى حسبانكم بل فيه ما يدعو إلى ارتباك مشاعركم . فهو يريكم أن أجزاء من الجهاز الجنسى الذكرى توجد كذلك عند الأنثى ، ولو أنها توجد لديها بصورة بدائية أثرية ، والأمر بالمثل عند الذكر . ويرى العلم فى هذه إشارة إلى الجنسية المزدوجة

فى الإنسان ، « الخنثية » . كأن الفرد ليس ذكرا خالصا أو أنثى صريحة ، بل هو كلاهما فى الوقت عينه ، إلا أن يسود جانب على الآخر . ثم ينتظر منكم بعد ذلك أن تألفوا الفكرة الآتية وهى أن النسبة التى تمتزج بها الذكورة والأنوثة فى الفرد قابلة لتغيرات واسعة المدى إلى حد بعيد جدا . ومع أن الفرد لا يوجد لديه إلا نوع واحد من المادة الجنسية — البيض أو الخلايا المنوية — (هذا باستثناء حالات نادرا جدا) ، فلا يذهب بكم الظن أن تعزوا إلى هذا العامل أهمية حاسمة ، بل يتعين عليكم أن تنتهوا إلى أن ما يكون الذكورة أو الأنوثة هو عنصر مجهول ليس فى قدرة التشريح إدراكه .

فهل فى وسع علم النفس أن يعلمنا ما هو خير من هذا ، فيحل لنا هذه المشكلة؟ لقد اعتدنا أن نعتبر الذكورة والأنوثة سمتين نفسيتين أيضا . كما أدخلنا كذلك فكرة الخنثية فى الحياة النفسية . فنحن نقول عن الشخص — ذكرا كان أم أنثى — إنه يسلك سلوكا مذكرا أو مؤنثا . غير أنكم سرعان ما تلحظون إننا بهذا لا نعدو أن نتبع خطوات العرف وعلم التشريح . الواقع أنكم لا تستطيعون أن تخلعوا على مفهومى الذكورة والأنوثة مضمونا جديدا . فالفارق بينهما ليس فارقا سيكولوجيا . وأنتم حين تقولون هذا « مذكر » فأنتم تعنون فى العادة إنه « ناشط فاعل » ، وحين تقولون هذا « مؤنث » فأنتم تريدون أنه « قابل[1] منفعل » ، والحق أن هناك ارتباطا من هذا النوع بين السمتين والوصفين . فالخلية الجنسية الذكرية ناشطة متحركة تبحث عن الخلية الأنثية ، على حين أن هذه الأخيرة ، وهى البيضة ، ثابتة تنتظر دون أن تبدى نشاطا . فالسلوك الذى تسلكه هاتان الخليتان الجنسيتان البسيطتان يشبه بقدر قليل أو كبير سلوك أفراد الجنسين فى عملية الاتصال الجنسى . فالذكر يطارد الأنثى ابتغاء الاتصال الجنسى بها ، وهو يمسك بها ويقتحم طريقه فيها . غير أنكم بهذا تقصرون سمة الذكورة من الناحية السيكولوجية ، على عامل العدوان وحده . وسيساوركم الشك فى صحة لقيامكم هذه ، متى عرفتم أن الأنثى فى صنوف كثيرة من الحيوانات ، أقوى من الذكر وأشد منه عدوانا ، وأن الذكر لا يكون فاعلا ناشطا إلا فى عملية السفاد ليس غير . وتلك حال العناكب مثلا . كما أن رعاية الصغار وتربيتهم ، وهى وظيفة تبدو لنا أنثية فى جوهرها ، ليست حكرا للإناث دائما فى عالم الحيوان . ففى بعض أنواع الحيوانات العليا يشترك الجنسان فى

---

(١) Passive

القيام بواجبات رعاية الصغار ، أو يكرس الذكر نفسه لهذا العمل من دون الأنثى . وحتى فى مجال الحياة الجنسية عند الإنسان لا نلبث أن نرى أن اختصاص السلوك المذكر بالفاعلية والنشاط ، والسلوك المؤنث بالقابلية والمطاوعة ، أمر لا يتمشى مع الواقع . فالأم فى صلاتها بطفلها فاعلة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . وفى وسعنا أن نقول إنها ترضع طفلها أو إنها تدعه يرضع من ثديها . فإذا ابتعدنا عن المجال الجنسى بمعناه الضيق ، اتضح لنا أن الفكرتين لا تنطبقان . ففى وسع النساء أن يبدين نشاطا كبيرا فى اتجاهات شتى ، على حين أن الرجال لا يستطيعون أن يعيشوا معا إن لم يتسموا بقدر كبير من الطواعية القابلة . فإن قلتم إن هذه الوقائع بعينها تدل على أن الرجال والنساء خناثى من الناحية السيكولوجية ، استنتجت من هذا أنكم قررتم أن توحدوا بين الفاعلية والذكورة وبين القابلية والأنوثة . لكنى أنصح لكم ألا تفعلوا ، إذ يلوح لى أن هذا الاتجاه لا يؤدى إلى غرض مفيد ولا يطالعنا بشىء جديد .

وقد نحاول أن نميز الأنوثة من الناحية السيكولوجية بأن نقول إنها تتضمن ميل الأنثى للأهداف القابلة ، وليس هذا عين القابلية بطبيعة الحال ، إذ أن بلوغ هدف سلبى قد يتطلب قدرا كبيرا من الفاعلية والنشاط . أو أن نذهب إلى أن الدور الذى تقوم به النساء فى الوظيفة الجنسية يسلم بهن إلى الجنوح للسلوك القابل والأهداف القابلة ، وأن هذا الجنوح يمتد أثره إلى حياتهن العادية بقدر قليل أو كبير ، على حسب ما يكون لحياتهن الجنسية المحتذاة من تأثير بالغ أو محدود . لكننا يجب أن نحذر فلا نغض من تأثير المواصفات الاجتماعية التى تقسر النساء على اتخاذ مواقف سلبية قابلة . على أن الأمر كله ما يزال غامضا إلى حد كبير — وعلينا ألا نغفل عن صلة نجدها ثابتة بوجه خاص بين الأنوثة والحياة الغريزية . فالمجتمع والجبلة الخاصة بالنساء يفرضان على المرأة أن تكبت العدوان فى نفسها ، وهو أمر يساعد على تكوين نزعات مازوخية قوية لديها ، وهذا من شأنه أن يطبع النزعات الهدامة المرتدة إلى ذاتها بطابع شهوى . وعلى هذا تكون المازوخية ، كما يقال ، من شيم النساء حقا . غير أننا حين نلتقى بالمازوخية عند الرجال ، كما هى الحال فى كثير من الأحيان ، فهل من سبيل إلا أن نقول إن هؤلاء الرجال تتسم أخلاقهم بسمات أنثية ظاهرة ؟

وهكذا ترون أنفسكم مستعدين لأن تعترفوا بأن علم النفس ليس فى وسعه أن يحل لغز الأنوثة . وأعتقد أن الحل لا بد أن يأتى من ناحية أخرى غيره ، ولا سبيل إلى ذلك

إلا إذا عرفنا على الإجمال كيف حدث التمايز بين الجنسين فى الكائنات الحية . الواقع إننا لا نعرف شيئا عن هذا الموضوع ، مع أن تمايز الجنسين خاصة من أظهر خواص الحياة العضوية ، ومما يفصل بينها وبين الطبيعة غير الحية فصلا حاسما . على أن أمامنا فى الوقت الحاضر مجالا فسيحا لدراسة أولئك الأفراد الذين يتميزون بالأنوثة تميزا صريحا أو غالبا لما لهم من أعضاء تناسلية أنثية . ليس من شأن التحليل النفسى أن يحاول وصف ماهية المرأة — فهذا عمل يتعذر عليه القيام به — لكنه يبحث فى الكيفية التى يصبح بها الطفل ذو الاستعدادات الخنثية امرأة . وفى السنوات الأخيرة حاول كثير من زميلاتنا الممتازات أن يدرسن هذه المسألة ، أثناء التحليل ، مما جلى لنا كثيرا من نواحيها . على أن الاختلاف بين الجنسين أحاط مناقشة هذا الموضوع بجو لاذع تغشاه بعض المضاضة ، لأننا ، نحن الرجال المحللين ، كلما عقدنا موازنة يشتم منها شىء فى غير صالح السيدات ، لم نسلم من ارتيابهن فينا وظنهن أننا لم نظهر بعد على بعض ما لدينا من تحيزات راسخة ضد النساء ، ومن ثم فبحوثنا يشوبها التشيع والمحاباة . غير أنه لم يشق علينا ، من ناحية أخرى ، أن نتحصن بفكرة الخنثية فنتفادى بها كل ما يشير إلى عدم التأدب معهن ، فما كان علينا إلا أن نقول لهن : « رويدكن ، هذا لا ينطبق عليكن ، فأنتن أقرب إلى الذكورة منه إلى الأنوثة فى هذه الناحية ! »

نحن نصدر عن رأيين سابقين حين نتناول دراسة النمو الجنسى للمرأة : أولهما أن جبلتها لا تتكيف لوظيفتها دون مقاومة ، مثلها فى ذلك مثل الرجل . الثانى أن التغييرات الحاسمة تتهيأ أو تتم قبل سن البلوغ . وقد ظهر أن لكل من هذين الرأيين السابقين ما يبرره . ثم إن الموازنة بين نمو الصبى ونمو البنت ترينا أن تطور البنت إلى امرأة سوية أكثر عناء وتعقيدا ، لأن عليها أن تظهر على صعوبتين ليس ثمت ما يناظرهما عند الصبى . ولنتتبع هذه الموازنة من بدايتها . لا شك أن هناك فوارق بين الصبى والبنت من حيث تكوينهما الأصلى — وهذا شىء لا يحتاج إلى التحليل النفسى للكشف عنه . فالفارق فى تكوين أعضائهما التناسلية تصاحبه فوارق جسمية أخرى معروفة بحيث لا تحتاج إلى بيان . كما أن هناك فوارق معينة فى استعدادهما الغريزى تسمح لنا أن نحدس ما ستكون عليه طبيعة المرأة فيما بعد . فالبنت الصغيرة تكون فى العادة أقل عدوانا وعنادا وأقل اكتفاء بنفسها من الولد الصغير . ويبدو أنها فى حاجة أكبر إلى العطف ، لهذا فهى أكثر طواعية واعتمادا على الغير منه . كما أنها تتعلم ضبط مثانتها وأمعائها أسرع

وأسهل منه ، وأكبر الظن أن يكون هذا نتيجة لطواعينها . فالبول والبراز ، كما نعلم ، أول هديتين يستطيع الطفل أن يقدمهما لمن يرعاه ويقوم بشئونه : فتعليم الطفل ضبطهما أول امتياز يغتصب من حياته الغريزية . كذلك يلوح أن البنت الصغيرة أكثر ذكاء وحيوية من الصبى فى نفس عمرهما ، وهى أدنى إلى مياسرة العالم الخارجي والتساهل معه ، كما أنها تكون فى الآن نفسه أشد تعلقا بموضوعاته . ويقال إنها أسبق فى نموها من الصبى ، ولست أدرى ما إذا كان هذا الرأى أيدته ملاحظات دقيقة . لكنه من الجلى ، على كل حال ، أن البنت الصغيرة لا يمكن أن تعتبر متخلفة عنه من الناحية العقلية . بيد أن هذه الفوارق الجنسية ليست ذات أهمية بالغة ، فقد تبزها الفوارق الفردية وترجح عليها . لذا نستطيع ألا نلقى إليها بالا من حيث الهدف المباشر الذى نرمى إليه .

يلوح أن أفراد الجنسين يجتازون الأطوار الباكرة من النمو اللبيدى على منوال واحد . والمرتقب أن تكون البنت دون الصبى عدوانا فى الطور السادى الشرجى ، لكن الأمر غير ذلك . فقد وجدت المحللات من النساء ، من تحليلهن ألعاب الأطفال ، إن الدوافع العدوانية عند صغار البنات لا ينقصها العنف والوفرة . وحين يحل الطور القضيبى تصبح الفوارق بين الجنسين أقل بروزا بكثير من أوجه الشبه بينهما — ومن ثم يتعين علينا أن نعترف بأن البنت الصغيرة تكون إذ ذاك رجلا صغيرا . نحن نعرف أن الصبى ، فى هذا الطور ، يكتشف كيف يظفر بإحساسات لذيذة من قضيبه الصغير ، وأنه يربط بين هذا التهيج وبين تصوره الفعل الجنسى . كذلك يكون موقف البنت الصغيرة من بظرها الذى يزيد فى صغره على القضيب . فكأن كل ما تقوم به من عبث بعضوها التناسلى يدور على هذا المكافئ للقضيب . ويبدو أن المهبل الأنثى الحقيقى يظل أمره إلى هذا العهد خافيا على كل من الصبى والبنت . صحيح أن هناك روايات شتى تشير إلى وجود إحساسات مهبلية باكرة ، لكنه ليس من اليسير تمييز هذه الإحساسات الشرجية أو عن إحساسات الدهليز المهبلى ، كما أنها لا يمكن أن تقوم بدور كبير فى أية حال . وقد يكون لنا أن نفترض أن البظر هو المنطقة الشهوية الغالبة عند البنت فى الطور القضيبى . غير أنه لا يقضى عليه أن يبقى على هذه الحال ، إذ يجب أن يسلم حساسيته إلى المهبل تدريجيا بتقدم البنت نحو الأنوثة ، وبذا تنتقل أهميته إلى المهبل إما برمتها أو بمقدار . هذه إحدى الصعوبتين اللتين يتعين على المرأة أن تتغلب عليهما أثناء نموها . أما الرجل ، وهو أسعد منها حظا فى هذه الناحية ، فليس عليه إلا أن يمضى إبان نضجه الجنسى فيما بدأه

من قبل منذ ازدهرت لديه الوظيفة الجنسية .

سنعود فيما بعد إلى الدور الذى يقوم به البظر . أما الآن فسنعرض للصعوبة الثانية التى تبهظ النمو الجنسي للبنت . إن أول موضوع لحب الصبى الصغير هو أمه ، وإنه ليبقى متعلقا بها أثناء تكون عقدة أوديب ، بل قد يبقى حبها ملازما له طول حياته . كذلك الحال عند البنت الصغيرة ، فأول موضوع لحبها هى الأم أو من يقمن مقامها : كالحاضنات أو الخادمات وغيرهن . ذلك أن الشحنات الوجدانية الأولى التى تفرغ على الموضوعات تشتق من إشباع الحاجات الحيوية الأساسية ، وأن ظروف حضانة الأطفال واحدة لكل من الجنسين . لكن الأب يصبح موضوع حب البنت الصغيرة فى الموقف الأوديبى ، ولكى يتم نموها بصورة سوية ، يجب أن يتحول حبها من أبيها إلى موضوع اختيارها الأخير . وهكذا يتعين على البنت إبان نموها أن تغير موضوع حبها ومنطقتها الشهوية جميعا ، فى حين يحتفظ بها الصبى دون أن ينالها تغيير . وهنا يبدو لنا أن نتساءل عن الطريقة التى يتم بها هذا التغيير ، وخاصة كيف يتاح للبنت الصغيرة أن تحول تعلقها بأمها إلى تعلقها بأبيها ؟ وبعبارة أخرى كيف تجتاز الطور الذكرى إلى الطور الأنثى الذى رسمته لها طبيعتها البيولوجية ؟

نجد لهذا السؤال حلا مثاليا فى بساطته لو تسنى لنا أن نفترض أن جاذبية أحد الجنسين للجنس الآخر تفصح عن نفسها بصورة بسيطة ابتداء من سن معينة ، وهذا ما يجتذب البنت الصغيرة نحو الرجال ، ويدع الصبى متعلقا بأمه . بل فى وسعنا أن نفترض أكثر من هذا فنقول إن الأطفال يسيرون فى طريق يرسمه لهم آباؤهم إذ يفضل كل جنس منهم أطفال الجنس الآخر . غير أن الحقيقة ليست بسيطة إلى هذا الحد ، ويشق علينا أن نعرف ما إذا كان لنا أن نعتقد اعتقادا جادا فى تلك القوة الخفية التى لا يمكن تحليلها والتى يتغنى بها الشعراء فى حماسة بادية . لقد تمخضت بحوث شاقة عن نتائج تخالف هذا الاعتقاد كل الاختلاف ، وهى بحوث ليست مادتها عزيزة المنال بحال . لا بد أنكم تعرفون أن عددا كبيرا من النساء يبقين عهدا طويلا متعلقات بحب موضوعات من قبيل آبائهن ، بل بحب الأب نفسه . ولقد ظفرنا بكشوف رائعة غاية الروعة من هؤلاء النسوة الموثقات بعشق آبائهن إيثاقا مكينا موصولا . وكنا نعرف بطبيعة الحال أنهن كن متعلقات بأمهاتهن فى مرحلة باكرة من مراحل نموهن ، لكننا لم نكن نعرف أن هذه المرحلة تبقى طويلا إلى هذا الحد ، كما لم نكن نعرف ما تنطوى عليه من أهمية ،

وما يتمخض عنها من عواقب بما تتيحه من فرص كثيرة للتثبيت ولاستعدادات مهيئة شتى . فى هذه المرحلة لا يكون الأب أكثر من منافس محرج متعب ، وفى حالات كثيرة يبقى التعلق بالأم إلى ما بعد الرابعة من العمر ، بل يكاد كل شيء نلتقى به فى الموقف الأوديبى بعد ذلك يكون موجودا من قبل فى ثنايا ذلك التعلق ، ثم يتحول بعد ذلك إلى الأب . وموجز القول لقد اقتنعنا أننا لا نستطيع أن نفهم المرأة إلا إذا راعينا هذا التعلق السابق للموقف الأوديبى بالأم ونظرنا إليه على وجهه الصحيح .

لا بد أننا نتوق الآن إلى أن نعرف فيما تتلخص هذه الصلات اللبيدية بين البنت الصغيرة وأمها . والجواب عن هذا أنها صلات عدة ، وأنها تدوم خلال الأطوار الثلاثة للجنسية الطفلة جميعا ، وتتخذ خصائص كل طور منها ، فتفصح عن نفسها برغبات شفوية وسادية شرجية وقضيبية . وهذه الرغبات تمثل نزعات فاعلة وأخرى قابلة ، إذا نحن رددناها إلى تمايز الجنسين (وهذا ما يجب أن نتفاداه ما وسعنا الأمر) قلنا إنها نزعات ذكرية وأنثية . يضاف إلى هذا أنها نزعات متناقضة[١] كل التناقض من الناحية الوجدانية ، أى أنها ذات طبيعة ودية وعدائية فى آن واحد . ويحدث كثيرا ألا تظهر الرغبات العدائية إلا بعد أن تكون قد تحولت إلى أفكار مشحونة بالحصر . على أنه ليس من اليسير دائما أن نبين الطريقة التى تتفصح بها هذه الرغبات الجنسية الباكرة . وأظهر هذه الرغبات إفصاحا هى الرغبة فى تحبيل الأم بطفل ، وكذلك الرغبة المناظرة وهى إنجاب طفل من الأم ، وكلتا الرغبتين تنتميان إلى الطور القضيبى وتبدوان على جانب كبير من الغرابة ، لكن المشاهدات التحليلية قد أيدت وجودهما على نحو لا يرقى إليه أى شك . ولنذكر أن روعة هذه البحوث ترجع إلى غرابة الكشوف التى تميط عنها اللثام .
من تلك مثلا ما يكشفه التحليل من أن الخوف من القتل أو من التسمم — الذى قد يصبح نواة لاضطراب هجاسى[٢] فيما بعد — يرجع تاريخه إلى هذا العهد السابق للموقف الأوديبى ، ويكون موجها ضد الأم . أو خذوا مثالا آخر أستمده من حادثة طريفة فى تاريخ البحوث التحليلية ، تلك البحوث التى أذاقتنى الألم ساعات طوالا : ففى العهد الذى كان جل اهتمامى موجها فيه إلى الكشف عن الصدمات الجنسية الطفلية ، كاد كل المريضات من النساء يصرحن لى بأنهن كن موضع إغواء من آبائهن .

---

(١) Ambivalent

(٢) Paranoic

وقد اضطررت آخر الأمر إلى أن أستخلص أنها قصص زائفة ، وعلى هذا النحو عرفت أن الأعراض الهستيرية تنشأ من تخييلات[١] لا من حوادث واقعية . ولم يتسن لى أن أعرف ، إلا فيما بعد ، أن هذا التخييل الذى يدور على إغواء الأب ما هو إلا تعبير عن عقدة أوديب الخاصة بالمرأة . وها نحن أولاء نلتقى الآن بتخييل الإغواء مرة أخرى فى المرحلة السابقة للموقف الأوديبى عند البنت ، لكن الأم هى التى تقوم بالإغواء فى هذه الحال . على أن لهذا التخييل أساسا من الواقع ، لأن الأم هى التى تستثير الإحساسات اللذيذة الأولى فى الأعضاء التناسلية للصغيرة وهى تتعهد حاجاتها الجسمية المعتادة .

لا شك أنكم ستصفون ما قلت بالغلو والإسراف ، لأنكم تحسبون أن الصلات التى تربط البنت الصغيرة بأمها ليست من القوة أو من الكثرة ما أزعم . وستقولون إنكم لاحظتم صغار البنات فى مناسبات كثيرة ، فلم تشهدوا شيئا من هذا القبيل . غير أنه اعتراض لا سند له . ففى وسع المرء أن يرى كثيرا من أمثال هذه الأشياء عند الأطفال متى عرف كيف يلاحظهم ، ولا تنسوا فضلا عن هذا أن الطفل لا يستطيع أن يعبر عن رغباته الجنسية تعبيرا قبشعوريا[٢] أو أن ينقلها إلى غيره . ومن ثم فلنا الحق فى أن ندرس آثار هذه العواطف وعواقبها فى الأفراد الذين تبدو لديهم هذه الظواهر التطورية بدرجة ملحوظة أو بدرجة مشتطة . وتعرفون أن علم الأمراض يعيننا دائما على إدراك الصلات التى تكون خافية مستترة فى الأحوال العادية ، وذلك بعزل هذه الصلات وتجسيمها . وبما أننا أجرينا بحوثنا على أفراد ليسوا مسرفين فى الشذوذ بحال ، فأعتقد أننا نستطيع أن نعتبر نتائجها جديرة بالثقة .

عرفنا أن تعلق البنت الشديد بأمها ينتهى بأن يزول ، وسنرى الآن كيف يزول هذا التعلق وكيف يحل محله التعلق بالأب . وهنا تقع على حقيقة توجهنا الاتجاه الصحيح : الواقع أن الأمر لا يتلخص فى مجرد تغيير يصيب موضوع الحب ، بل فى تحول حقيقى يحدث فى جو من الخصام ، أى أن التعلق بالأم ينقلب إلى كراهية وعداء . وقد تكون هذه الكراهية شديدة جدا ، وتبقى طوال العمر ، أو تعوض فيما بعد تعويضا مسرفا فى حرص وكياسة . والعادة أن يبقى جانب منها على حين يغلب الجانب الآخر على أمره . ومن الطبيعى أن تتأثر نتيجة ذلك تأثرا شديدا بالحوادث الفعلية التى تقع فى الأعوام

---

(١) Phantasies (٢) Preconscious

التالية . وسنقتصر على دراسة هذه الكراهية فى الوقت الذى يحدث فيه التحول إلى الأب ، كما سنبحث عن دوافعها . إذ ذاك نلتقى بسلسلة طويلة من الظلامات والشكاوى توجهها المريضات إلى أمهاتهن : ظلامات وشكاوى تتفاوت قيمتها تفاوتا كبيرا ، والمراد بها تبرير المشاعر العدائية للطفلة . وإن كثيرا منها تبريرات لا ريب فيها حتى لتحدو بنا أن نبحث عن المصدر الحقيقى للعداء . وآمل أن تفسحوا لى صدوركم إذا أنا قدتكم من أجل هذا خلال كل التفاصيل التى يقتضيها بحث نفسى تحليلى .

إن أقدم الشكاوى التى توجه إلى الأم وأبعدها غورا هى أنها لم تعط الطفل (ذكرا كان أم أنثى) قدرا كافيا من اللبن . وهذا دليل على قصور فى حبها إياه . والحق أن لتلك الشكاة ما يبررها فى الأسر الإنسانية المتحضرة ، فكثيرا ما لا يكون لدى الأمهات قدر كاف من اللبن لأطفالهن ، فيقنعن بإرضاعهم تسعة أشهر أو ستة أو ما دون ذلك ، على حين أن الأطفال فى الشعوب البدائية تلازم الثدى حولين أو ثلاثة أحيانا . ونشير هنا إلى أن صورة المرضع تندمج عادة فى صورة الأم ، فإن لم يحدث هذا الاندماج ، اتهم الطفل أمه اتهاما آخر فحواه أنها أرادت العاجلة فاستغنت عن المرضع وهى ما تزال على استعداد للمضى فى إرضاع الطفل . ومهما يكن من أمر فهذه الشكاوى من الكثرة والتواتر ما يجعلنا نشك فى أن لها ما يبررها على الدوام . بل نحن أدنى إلى الاعتقاد بأن رغبة الطفل فى غذائه الأول رغبة لا يمكن إشباعها إطلاقا ، وأنه لا يستطيع ألبتة أن يظهر على الألم الذى ينجم عن فقده ثدى الأم . وأعتقد أنه لو قدر لى أن أقوم بتحليل فرد من الشعوب البدائية فإنه لا بد سيطالعنى بمثل هذه الشكاوى ، بالرغم من أن الأطفال فى هذه الشعوب تستمر فى الرضع من ثدى الأم حتى سن المشى والكلام . ومن المحتمل أيضا أن يكون الخوف من التسمم مرتبطا بالحرمان من ثدى الأم . فالسم هو الغذاء الذى يسبب المرض ، وربما نسب الطفل أمراضه الأولى إلى ذلك الحرمان . ذلك أن الاعتقاد فى وقوع الأشياء مصادفة واتفاقا يقتضى قدرا معينا من الثقافة والتدريب العقلى ، فالإنسان البدائى وغير المثقف والأطفال من دون شك يستطيعون أن يقدموا سببا لكل شىء يحدث ، وربما كان هذا السبب فى الأصل دافعا إحيائيا[١] . بل إن الناس فى كثير من الطبقات الاجتماعية التى تعيش فى يومنا هذا ، تعتقد أن الإنسان لا يمكن أن

---

(١) Animistic

يموت إلا إذا ساقه إلى الموت شخص آخر ، والعادة أن يكون الطبيب هو المسئول عن الموت . هذا إلى أن الاستجابة العادية للعصابى حين يموت شخص يرتبط به ارتباطا وثيقا ، هى أن يتهم نفسه بأنه السبب فى هذا الموت .

أما التهمة الثانية التى توجه إلى الأم فيشتد أوارها حين تنجب الأسرة مولودا جديدا . ومن المحتمل أن تكون هذه الشكوى مرتبطة بالحرمان الفمى : فالأم لا تعود تريد أو لا تعود قادرة على إرضاع الطفل الأكبر لأنها فى حاجة إلى اللبن لإرضاع الوليد الجديد . على أن لهذه الشكوى أساسا واقعيا فى الحالات التى يتقارب فيها ميلاد طفلين تقاربا كبيرا بحيث يؤثر الحمل الثانى فى إفراز اللبن ورضاع الأول . ومما يستلفت النظر أن أكبر الطفلين يستطيع أن يفطن إلى هذه الحال حتى إن لم يكبر الوليد إلا بأحد عشر شهرا فقط . على أن اللبن ليس وحده ما يثير حفيظة الطفل على منافسه الفضولى غير المرغوب فيه ، بل كذلك كل ما تبديه الأم للضيف الطفيلى من عناية ورعاية . فهو يشعر أن حقوقه قد اغتصبت وأنه خلع عن عرشه ، لذا فهو يلقى على أخيه أو أخته الأصغر منه شعورا بالكراهية والغيرة ، ويستاء من أمه التى لم تبق على ولائها له ، وغالبا ما يبدو أثر هذه المشاعر فى اصطناعه ألوانا من السلوك السيىء : فإذا به يبدأ فى المشاقة ، ويبدو شموسا حاد الطبع سريع التهيج ، وإذا به يفقد ما كسبه من قدرة على ضبط مثانته وأمعائه . هذا كله مما يعرفه الناس منذ عهد طويل ، ويقبلونه على أنه بديهى غنى عن البيان . غير أننا يندر أن نخرج بفكرة صحيحة عن عنف هذه الغيرة ، وعن تأثيرها العميق فى النمو التالى للطفل . فهى تستثار وتذكى على الدوام فى كل مرة يولد فيها للطفل أخت أو أخ جديد ، ومن ثم تكون لها أهمية خاصة فى نموه . وحتى إن ظل الطفل أثير أمه ترعاه بعطف خاص ، لم تتغير الحال عما ذكرت تغيرا كبيرا . فحاجة الطفل إلى العطف لا حد لها ، وهو يتطلب اهتماما يقصر عليه دون سواه ، ولا يسمح لأحد أيا كان أن يشاركه فيه .

ومن المصادر الفعالة لموقف الطفل العدائى من أمه رغباته الجنسية الكثيرة التى تتغير بتطور اللبيدو عنده ، والتى لا يمكن إشباع أغلبها . على أن أشد ما يمنى به من زمت[1]

---

(١) Frustration

وحرمان يكون فى الطور القضيبى حين تمنعه أمه من نشاطه الاستمنائى[1] اللذيذ ، مع أنها هى نفسها التى تستثيره فى الطفل وتنبهه إليه . وغالبا ما يقترن هذا المنع بتهديدات غليظة وأمارات شتى من الاستهجان . وقد يظن أن هذه الدوافع تكفى لتفسير إعراض البنت الصغيرة عن أمها ونفورها منها . فإليكم ما نراه فى هذا الموضوع : إن هذا الإعراض ينجم حتما عن طبيعة الجنسية الطفلية نفسها ، وعن حاجة الطفل غير المحدودة إلى الحب ، وعن رغباته الجنسية التى لا تشبع . بل قد يظن أن هذه الصلة الحبية الأولى مقضى عليها بالفناء لأنها الصلة الأولى بالذات ، ذلك أن الشحنات الوجدانية الباكرة التى يفرغها الطفل على الموضوعات تكون دائما شحنات متناقضة إلى حد بعيد ، فإلى جانب الحب المشبوب الذى يستشعره الطفل توجد نزعة عدائية شديدة على الدوام ، وكلما عنف الطفل فى حبه موضوعا من الموضوعات ، زادت حساسيته لأوجه الحرمان وخُلف الظن التى تصدر عن هذا الموضوع . حتى ينتهى الأمر بالحب أن يمتثل ويستسلم للعداء المتراكم . وقد يذهب البعض إلى إنكار هذا التناقض الوجدانى البدائى فى الشحنات الليبيدية ، ويرى أن الطبيعة الخاصة للصلة بين الأم والطفل هى التى تفضى بالضرورة إلى اضطراب حبه ، لأن أهون أشكال التربية وأكثرها اعتدالا لا يسعها أن تتجنب القسر والقيد ، وإن كل تضييق على الحرية لا بد أن يستجيب له الطفل بنزعة إلى التمرد والعدوان . وأعتقد أن مناقشة هذه الاحتمالات قد تكون على جانب كبير من الأهمية والطرافة ، غير أننا لا نلبث أن نواجه اعتراضا يحملنا على أن نوجه اهتمامنا وجهة أخرى . ذلك أن هذه العوامل جميعا — ضروب الازدراء ، وخلف الظن فى الحب ، والغيرة ، والإغراء الذى يتبعه الحظر والتحريم — تكون فعالة بالمثل فى الصلة بين الابن الصغير وأمه ، ومع هذا فهى لا تكفى لصده وازوراره عنها . فلا بد أن يكون لدى البنت عامل نوعى لا يوجد عند الصبى إطلاقا ، أو لا يوجد بنفس الطريقة . ولئن لم يتسن لنا أن نكشف عن هذا العامل ، لم نستطع أن نفهم كيف ينتهى تعلق البنت بأمها .

أعتقد أننا كشفنا عن هذا العامل النوعى فى المكان الذى كنا نتوقعه فيه تحديدا . لكنه كان فى صورة تبعث على الدهش ، ولم يكن للمكان الذى كنا نتوقعه فيه غير

---

(١) أطلقنا كلمة الاستمناء على العادة السرية عند الأطفال من قبيل التجوز والتشابه فى الشكل . (المترجم)

« عقدة الخصاء » . لا غرابة أن يكون للفارق التشريحى بين الجنسين أثره وصداه فى الحياة النفسية ، لكن ما بدا لنا غريبا هو ما كشفه لنا التحليل من أن البنت ترى أن أمها هى المسئولة عن حرمانها من القضيب ، فهى لا تغفر لها هذا الحرمان إطلاقا .

من هذا ترون أننا نعزو إلى الأنثى عقدة خصاء كما نعزوها إلى الذكر . ولدينا أسباب قوية لذلك . غير أن مضمون هذه العقدة عند البنات يختلف عن مضمونها عند الأولاد . فهى تتكون عند الصبى بعد أن يطلع على الجهاز التناسلى للأنثى فيرى أن القضيب — وهو عضو له قيمة كبيرة فى نظره — ليس جزءا لازما فى كل جسم إنسانى . إذ ذاك يذكر ما كان يوجه إليه من تهديدات حين يعبث بقضيبه ، ويبدأ فى الإشفاق من تنفيذها ، ومن هنا يأخذه الخوف من الخصاء الذى يصبح عندئذ أقوى محرك لنموه التالى . كذلك تنشأ عقدة الخصاء عند البنت حين تطلع على الأعضاء التناسلية للجنس الآخر . إذ ذاك لا تلبث أن تلحظ الفارق وأن تفطن أيضا — وهذا ما يجب أن نسلم به — إلى ما ينطوى عليه من دلالة . ومن ثم تشعر بما لديها من قصور شعورا عميقا ، وكثيرا ما تصرح بأنها تود أن يكون لها « شىء مثله » ، وهكذا تقع فريسة ما يسمى حسادة القضيب[1] ، وهى حسادة تترك فى تكوين خلقها وفى نموها آثارا لا تمحى ، ولا يمكن التغلب عليها ، حتى فى أنسب الظروف ، إلا بعد بذل عناء نفسى كبير . أن تفطن البنت إلى أنها محرومة من القضيب لا يعنى قبولها هذا الحرمان هونا واستسلاما . بل إنها على العكس تظل مدة طويلة وهى تأمل أن يكون لها شىء مثله ، كما تظل أعواما طوالا عراضا وهى تعتقد أنه أمل من الممكن أن يتحقق . وحتى بعد أن تعرف الحقيقة فيزول رجاؤها فى تحقق هذا الأمل ، فإن التحليل يكشف لنا أنه يظل مستسرا فى ثنايا لا شعورها ، يحتفظ بشحنة ضخمة من الطاقة . بل إن الرغبة فى امتلاك القضيب قد تكون من الدوافع التى تحمل المرأة الكبيرة الراشدة على طلب العلاج بالتحليل . على أن ما ترجو أن تظفر به من العلاج ، كمعونتها على امتهان مهنة عقلية مثلا — وهو رجاء معقول للغاية — قد لا يكون فى الغالب إلا صورة معلاة لهذه الرغبة المكبوتة .

إن حسادة القضيب ذات خطر لا يمكن أن ينكر . فقد عاب الرجال على النساء أن الحسد والغيرة يقومان فى حياتهن النفسية بدور أكبر مما يقومان فى في حياة الرجال :

---

(١) Penis - envy

وربما ترون فى هذا شاهدا على تحيز الرجل وبعده عن الإنصاف . ولست ممن يعتقدون أن الرجال بمنجاة من هاتين الخصلتين أو أن حسادة القضيب هى العامل الوحيد فى خلقهما عند المرأة . لكنى أميل إلى أن أعزو فضلتهما عند النساء إلى تأثير هذه الحسادة . على أن كثيرا من المحللين يميلون إلى الغض من أهمية الدفعة الأولى لحسادة القضيب فى الطور القضيبى ، ويرون أن العلامات التى تشير إلى هذا الاتجاه النفسى عند النساء تنشأ غالبا من تكوين ثانوى ينجم عن النكوص إلى هذه النزعة الطفلية الباكرة من جراء صراع نفسى لاحق . وهذه مشكلة من المشكلات العامة لعلم نفس الأعماق . ففى كثير من الاتجاهات الغريزية المرضية — أو غير العادية فحسب — كما هو الشأن فى جميع الانحرافات الجنسية ، ثمة مجال للتساؤل من مبلغ ما يعزى من قوتها إلى ضروب التثبيت فى الطفولة الباكرة من ناحية ، وما يعزى إلى تأثير الحوادث والتطورات اللاحقة من ناحية أخرى . وهذه النسبة تكاد تكون دائما « علاقة تتام » عرفنا نظائر لها ونحن ندرس أسباب الأمراض النفسية . فكل من هذين العاملين يساهم بنصيبه فى تسبيب الاضطراب ، والنقص فى أحدهما تعوضه زيادة فى الآخر . على أن عامل الطفولة هو الذى يمهد الطريق فى كل حالة من الحالات ، وهو ليس العامل الحاسم على الدوام ، ولو أنه يكون كذلك فى أغلب الأحيان . أما فيما يتصل بحسادة القضيب فإنى أميل إلى القطع بغلبة العامل الطفلى .

إن اكتشاف البنت ما هى عليه من خصاء نقطة تحول حاسمة فى حياتها وتطورها ، وهى نقطة تتفرع منها ثلاثة طرق : طريق يفضى إلى التعطل الجنسى أو إلى المرض النفسى . والثانى إلى تحوير فى الخلق بتكوين « عقدة ذكورة » ، والثالث إلى الأنوثة السوية . وقد عرفنا الشىء الكثير عن هذه الاتجاهات الثلاثة ، وإن كنا لم نعرف كل شىء عنها . أما المضمون الجوهرى للاتجاه الأول فهو أن البنت الصغيرة التى كان مثلها قبل ذلك الحين كمثل الصبى الصغير ، فكانت تظفر باللذة من تهييج بظرها ، وتربط هذا الإشباع بالرغبات الجنسية (الفاعلة غالبا) الموجهة نحو أمها — نقول إن البنت الصغيرة تجد أن التذاذها بالجنسية القضيبية قد خفت وفسد بتأثير حسادة القضيب . وهى توازن نفسها بالصبى ، وترى أنه قد أتيح له من الحظ ما لم يتح لها ، لا تلبث أن تصاب فى كبريائها ، فتنصرف عن طلب اللذة من العادة السرية البظرية كما تعزف عن حب أمها ، وغالبا ما تكبت فى الوقت عينه قدرا كبيرا من نزعاتها الجنسية بوجه عام .

وليس من شك فى أن إعراضها عن أمها لا يحدث دفعة واحدة ، لأنها تعتبر خصاءها فى أول الأمر مصيبة شخصية ، ثم تكتشف بعد ذلك تدريجا أن الخصاء من حظ إناث أخر من بينهن أمها . لقد كان حبها موجها إلى أم ذات قضيب وليس إلى أم مخصية ، فإذا انكشفت لها الحقيقة أصبح من الممكن أن تنصرف عن حبها لأمها وأن تدع بواعث العداء تبرز وتسود — وهى بواعث كان يتراكم بعضها فوق بعض منذ عهد طويل . وجملة القول أن فقدان القضيب من شأنه أن يغض من المرأة فى عين البنت كما يغض منها فى عين الصبى ، وربما فى عين الرجل فيما بعد .

ليس منكم من يجهل الأهمية البالغة التى يعزوها العصابيون إلى مزاولة الاستمناء . فهم يرون أنه مسئول عن كل متاعبهم . ويشق علينا كثيرا أن نقنعهم بأنهم خاطئون ، غير أنه ينبغى لنا فى الحق أن نسلم بأنهم مصيبون ، لأن العادة السرية هى الأداة التنفيذية للجنسية الطفلية ، تلك الجنسية التى يتعذب هؤلاء من جراء نموها المعيب . والفارق أن العصابيين ينحون باللوم على الاستمناء فى مرحلة البلوغ ، أما العادة السرية فى مرحلة الطفولة ، وهى وحدها المسئولة فى الواقع ، فقد طوى النسيان أكبر شطر منها فى أعماق نفوسهم . وأرجو أن تتاح لى فرصة أبين لكم فيها خطورة جميع التفاصيل الواقعية للعادة السرية فى عهد الطفولة ، وما يمكن أن يكون لها من أثر فى تعيين خلق الفرد أو المرض النفسى الذى يصيبه فيما بعد — من أمثال هذه التفاصيل : افتضاح أمر هذه « العادة » أو بقاؤها مستورة ، وموقف الأبوين المتسامح أو المتعنت منها ، والطريقة التى كانا يكبحانها بها ، وهل أفلح الفرد فى قمعها بنفسه ، إلى غير تلك من التفاصيل التى تترك فى نمو الفرد آثارا تستعصى على الزوال . غير أنى مغتبط فى الحق إذ أرانى مضطرا أن أعفى نفسى الآن من مثل هذا التكليف الشاق العويص ، لأنه لن يفوتكم آخر الأمر أن تضعونى فى موضع مربك فتطلبون أن أقدم لكم نصائح عملية فيما ينبغى أن يكون عليه موقف الأب أو المربى إزاء العادة السرية عند صغار الأطفال . على أن تاريخ نمو البنات ، وهو الموضوع الذى أحدثكم عنه ، يقدم لنا مثالا للجهود التى يبذلها الطفل نفسه للتخلص من العادة السرية ، وهى جهود تكون عقيمة فى الغالب . فحين تثير حسادة القضيب ميلا قويا عن العادة السرية البظرية ، ثم لا تذعن هذه العادة وتزول ، يشب فى نفس البنت نضال داخلى عنيف ، تقوم فيه البنت نفسها بدور أمها المهجورة ، وتفصح عن كل ما يعتلج فى نفسها من سخط لامتلاكها هذا البظر الدون ، بأن تجهد عازفة عن

اللذة التى تستمدها منه . وبعد سنوات عدة من هذا ، أى حين تكون العادة السرية قد قمعت منذ عهد طويل ، لا يفوتنا أن نلحظ آثارا باقية من ذلك النضال تحاول أن تدرأ به عن نفسها الإغراء الذى لا تزال فى خوف منه : من هذه الآثار شعورها بعطف نحو الأشخاص الذين ترى أنهم يعانون صعوبات شبيهة بما تعانيه ، ودوافع تحملها على الزواج ، بل وقد تعين لها اختيار زوجها أو خليلها . والحق أن الاقلاع عن العادة السرية الطفلية ليس أمرا هينا أو غير ذى بال .

وحين تقلع البنت الصغيرة عن ممارسة العادة السرية البظرية ، تتنازل عن قدر معين من نشاطها القضيبى ، وعندئذ يغلب الجانب السلبى القابل عليها ويسود حياتها النفسية . فإذا ما اتجهت بعاطفتها نحو أبيها كان أهم ما يعينها على هذا التحول نزعات غريزية قابلة . من هذا ترون أن مثل هذه الخطوة فى نمو الطفلة لا بد أن تمهد لها الطريق إلى الأنوثة . فإن لم يكن الكبت على درجة كبيرة من الغلو ، فالمحتمل أن تكون هذه الأنوثة طبيعية سوية . ولا شك فى أن الرغبة التى تتجه بها البنت إلى أبيها ليست فى أصلها إلا الرغبة فى امتلاك قضيب : ذلك القضيب الذى ضنت به الأم عليها ، والذى تأمل أن تظفر به الآن من أبيها . على أن موقف الأنثى لا يتوطد ويستقيم حقا إلا متى استعيض عن الرغبة فى القضيب بالرغبة فى الظفر بطفل ، فأصبح الطفل بديل القضيب (ونشير فى هذا الصدد إلى أن الطفل مكافئ رمزى قديم للقضيب) . ولا يعزب عن بالنا أن البنت كانت تتوق إلى الحصول على طفل فى مرحلة سابقة لهذه المرحلة قبل أن يتعرض الطور القضيبى للاضطراب الذى يصيبه . وهذا يفسر لنا إغرامها السابق باللعب بالدمى . غير أن هذا اللعب لم يكن فى الواقع تعبيرا عن أنوثتها ، بل كان يعبر ، على الأصح ، عن تقمصها شخص أمها كى تستعيض عن موقفها السلبى القابل بموقف إيجابى فاعل . فقد كانت تقوم فى لعبها بدور الأم ، فى حين كانت الدمية تمثلها هى نفسها ، وبذا كان يتسنى لها أن تصنع بدميتها وأن تعاملها بمثل ما اعتادت الأم أن تعاملها نفسها به . على أن الطفل الذى تشخصه الدمية لا تصبح الطفل المرجو من الأب إلا فى مطلع شوقها إلى القضيب ، ومن ثم يصبح أقوى رغبة أنثية لديها . فيا حبذا لو صحت الأحلام وتحققت هذه الرغبة الطفلية فيما بعد ، خاصة إن كان الوليد ذكرا يحمل القضيب المرموق من عهد بعيد ! ونذكر أن المرأة ، إذ ترغب فى الظفر بطفل من الأب ، يكون تفكيرها متجها فى الأغلب إلى الطفل لا إلى الأب . وفى هذا شاهد على

أن رغبتها الذكرية القديمة فى أن يكون لها قضيب ما تزال تعتلج من وراء أنوثتها المكتملة النمو . غير أنه ربما كان الأدنى إلى الصواب أن نعتبر هذه الرغبة فى القضيب سمة أنثية فى صميمها وجوهرها .

ومتى تحولت الرغبة فى الطفل والقضيب إلى الأب ، دخلت البنت فى موقف عقدة أوديب . هنا يجد عداؤها السابق لأمها ما يذكيه ويؤرثه تأريثا . ذلك أن أمها تصبح منافسة لها ، تظفر من الأب بكل ما تريده البنت لنفسها . ونشير هنا إلى أن عقدة أوديب النسوية حجبت عنا لمدة طويلة تعلق البنت بأمها فى العهد السابق لهذه العقدة ، وهو تعلق على جانب كبير من الأهمية ، يترك وراءه مراكز تثبيت تبقى على مر الزمن . والواقع أن الموقف الأوديبى خاتمة مرحلة طويلة شاقة من النمو عند البنت ، يكون بمثابة حل مؤقت لمشكلتها ، أو هو حالة من الاستجمام والتوازن لا تتخلى عنها فى غير عناء ، خاصة لأن مطلع مرحلة الكمون غير بعيد . وهنا نلحظ فارقا بين الجنسين من حيث العلاقة بين عقدة أوديب وعقدة الخصاء . وأكبر الظن أنه فارق خطير مثقل بالعواقب . فعقدة أوديب التى تدفع الصبى إلى الرغبة فى أمه والتخلص من أبيه المنافس له ، تتكون بطبيعة الحال إبان الطور القضيبى . غير أن التهديد بالخصاء يقسره على التخلى عن موقفه هذا ، فإذا به يهجر عقدة أوديب خوفا من فقد قضيبه ، ومن ثم تكبت العقدة بل وتتلاشى بأسرها فى أكثر الحالات سواء ، فيرثها أنا أعلى صارم شديد . أما ما يحدث فى حالة البنت فيكاد يكون عكس هذا . ذلك أن عقدة الخصاء تمهد الطريق عندها لعقدة أوديب بدل أن تقضى عليها ، فإذا بالبنت تندفع بتأثير حسادة القضيب مولية الأدبار لأمها ، وتفزع إلى الموقف الأوديبى كما لو كان ملجأ لها وأمنا . يضاف إلى هذا أن الخوف من الخصاء متى زال من نفس الصبى ، زال معه الدافع الرئيسى الذى أكرهه على قهر عقدة أوديب ، أما البنت فتظل فى الموقف الأوديبى فترة غير محدودة ولا تذره إلا فى مرحلة متأخرة من حياتها وعلى نحو غير مكتمل . فى مثل هذه الظروف لا بد أن يتأثر تكوين الأنا الأعلى فلا يتسنى له أن يصل إلى تلك الدرجة من القوة والاستقلال التى تخلع عليه قيمته الثقافية . وهذا أمر لا يرتاح إليه أنصار المرأة ، فهم يضيقون بنا حين نبرز أهمية هذا العامل وخطره فى تكوين الخلق النسوى بوجه عام .

ولنعد الآن إلى الوراء قليلا : لقد أسلفنا أن رد الفعل الثانى الذى يحتمل حدوثه بعد أن تكتشف البنت ما هى عليه من خصاء ، هو تكون عقدة ذكورة قوية لديها .

ويقصد بهذا أن البنت ترفض قبول هذه الحقيقة المرة ، فتدفعها سورة التحدى إلى المزيد من الغلو فيما كانت تبديه من ذكورة قبلئذ ، وإلى التشبث بنشاطها البظرى ، وتنشد الأمن والسلام فى تقمص الأب أو الأم ذات القضيب . ترى ماذا يكون العامل الذى يسلم إلى هذه الحال ؟ لا شك فى أنه عامل جبلى : هو امتلاكها فضلا من النشاط مما يتسم به الذكر فى العادة ، على أن الشىء الجوهرى فى هذه العملية هو أنها فى تلك المرحلة من مراحل نموها تتنكب الطريق الذى يطبعها بالطابع السلبى القابل ، وهو الطريق الذى يسلم بها إلى الأنوثة . ويبدو أن أقصى ما تفضى إليه عقدة الذكورة هذه هو التأثير فى اختيار موضوع الحب ، فإذا به ينحرف إلى الاستجناس[1] الصريح . والحق أن التحليل يعلمنا أن الاستجناس عند النساء لا يكون استمرارا مباشرا للذكورة الطفلية إطلاقا ، أو لا يكون كذلك إلا فى القليل النادر . ويلوح أن المستجنسات من النساء يتخذن الأب (فى طفولتهن) موضوعا لحبهن فترة من الزمن ، ويتورطن فى الموقف الأوديبى ، لكن ما يمنين به من فشل وخلف للظن إذ يلقاهن الأب بإعراض لا محيص عنه يحملهن عندئذ إلى النكوص إلى عقدة الذكورة القديمة . على أننا يجب ألا نغلو فى أهمية هذا الفشل وخلف الظن ، فهما كذلك من حظ البنات اللاتى ينتهى بهن الأمر إلى الأنوثة السوية ، لكنهما لا يفضيان بهن إلى نفس العواقب . ويبدو أن العامل الجبلى يقوم هنا بالدور الأول غير منازع ، غير أن طورى النمو للاستجناس النسوى ينعكسان انعكاسا رائعا فى سلوك المستجنسات ، فسواء لديهن أن تقوم إحداهما إزاء الأخرى بدور الأم والطفل أو بدور الزوج والزوجة .

إن ما كنت أحدثكم عنه يمكن أن يسمى ما قبل تاريخ المرأة . وهو فى جهود المحللين فى بضع السنوات الأخيرة ، وفى وسعكم أن تعتبروه مثالا للعمل المفصل فى التحليل النفسى . وبما أن موضوعنا يدور على النساء فسآذن نفسى فى أن أذكر لكم أسماء بضع نساء يدين لهن البحث بجهود وإضافات هامة . فقد كانت الدكتورة « روث ماك برنشفيك » (Ruth Mack Brunswick) أول من وصف حالة عصابية ترجع إلى تثبيت فى المرحلة السابقة للموقف الأوديبى فلم يتسن للمريضة أن تصل قط إلى هذا الموقف . وقد اتخذت الحالة شكل جنون هجاسى[2] مع أهجسة غيرة ، وظهر أنها لا تستعصى

---

(١) Homosexuality

(٢) Paranoia

على العلاج . كما برهنت الدكتورة جان لامب ده جروت (Janne Lamp de Grogt) من ملاحظات لا لبس فيها على وجود أوجه النشاط القضيبي للبنت حيال أمها — تلك الظاهرة التي يصعب تصديقها . كذلك بينت الدكتورة هيلين دويتش Helene) (Deutsch أن السلوك الشهوى بين المستجنسات صورة معادة للصلة بين الأم وطفلها .

لا أريد أن أقتفى أثر الأنوثة إلى أبعد من هذا فأتتبعها خلال سن البلوغ حتى سن النضج . فمعلوماتنا عن هذه الناحية ليست كافية ، وسأجتزئ فيما يلى بذكر بضعة تفاصيل منفصل بعضها عن بعض . ثمة حقيقة أود أن أوكدها فيما يتصل بالتاريخ الباكر للأنوثة : تلك أن تطور الأنوثة يظل معرضا لاضطرابات تنجم عن الآثار التى تخلفها مرحلة الذكورة السابقة لها . فالنكوص إلى مراكز التثبيت المستقرة فى الطور السابق للموقف الأوديبى مما يحدث فى الكثير الغالب من الأحوال . وإنا لنلحظ بالفعل أن مرحلتى الذكورة والأنوثة تتناوبان كثيرا من النساء ويتواتر تناوبهما فيكون لإحداهما مركز الصدارة تارة وتحتل الأخرى هذا المركز تارة أخرى . ومن المحتمل أن ما نسميه نحن الرجال « لغز المرأة » يدور إلى حد ما على هذه الجنسية الثنائية فى حياة المرأة . غير أن هذه البحوث سمحت لنا أن نحل مشكلة أخرى : فلقد أسمينا القوة المحركة للحياة الجنسية « باللبيدو » ، ورأينا أن هذه الحياة الجنسية تهيمن عليها ظاهرة القطبية(١) : الذكورة والأنوثة ، فمن الطبيعى إذن أن ندرس الصلة بين اللبيدو وهذه القطبية . ولن يكون بمستغرب لو ظهر أن لكل صورة من صورتى الجنسية صورة من اللبيدو خاصة بها ، بحيث يرمى نوع من اللبيدو إلى أهداف الجنسية الذكرية ، فى حين يرمى الآخر إلى أهداف الجنسية الأنثية . لكن الواقع غير ذلك . فليس هناك إلا لبيدو واحدة تقوم على خدمة الوظيفة الجنسية الذكرية بقدر ما تخدم الوظيفة الأنثية ، وليس فى وسعنا أن نعزو إليها جنسا خاصا ، فإذا رأينا أن نسميها لبيدو ذكرية تمشيا مع تلك المشابهة العرفية بين الفاعلية والذكورة ، فلا يعزب عنا أنها تشتمل أيضا على نزعات ذات أهداف سلبية قابلة . ومهما يكن من أمر فاصطلاح « اللبيدو الأنثية » لا يمكن أن يكون له ما يبرره . ويخيل إلينا أن اللبيدو تعانى كبتا أكبر حين تكره على خدمة الوظيفة الأنثية ،

---

(١) Polarity

وأن الطبيعة — إن جاز لنا أن نتكلم بأسلوب غائى — لم تعر متطلبات الوظيفة الأنثية من الاهتمام والعناية ما أعارته لوظيفة الذكورة . وربما كان السبب فى هذا أن تحقيق الغاية البيولوجية موكل إلى عدوان الذكر وأنه مستقل إلى حد ما عن موافقة الأنثى .

إن البرودة الجنسية عند النساء ظاهرة لم تفهم بعد فهما كافيا ، ويبدو أن فى شيوعها تأييدا لما أشرنا إليه من جور الطبيعة على المرأة . وهذه البرودة إن كانت نفسية المنشأ أمكن أن تعالج ، غير أننا مضطرون فى حالات أخرى إلى أن نفترض أنها مشروطة بعوامل جبلية ، أو أنها تترتب — ولو إلى حد معين — على عامل تشريحى .

لقد وعدت أن أعرض عليكم مزيدا من الخصائص النفسية للأنوثة المكتملة كما تبدو لنا فى ضوء التحليل النفسى . إن ما لدينا من آراء عن هذا الموضوع لا يعدو أن يكون صحيحا فى جملته ، وليس من اليسير دائما أن نميز بين ما يرجع إلى تأثير الوظيفة الجنسية وما يرجع إلى التربية الاجتماعية . فنحن نرى أن حظ النساء من النرجسية أكثر من حظ الرجال منها (وهذا يؤثر فى اختيارهن موضوع حبهن) بحيث أن حاجتهن إلى أن يكن موضوع محبة من الغير أقوى من حاجتهن إلى أن يحببن الغير . وأن ما يتسمن به من زهو وعجب هو ، إلى حد ما ، أثر آخر من آثار حسادة القضيب لديهن . فهن مدفوعات إلى الغلو فى إظهار محاسنهن الجسمية كما لو كان ذلك تعويضا لاحقا عما لديهن من نقص جنسى أصيل . أما الحياء — وهو ما يعتبره الناس شيمة من الشيم التى اختصت بها النساء ، ولو أنه يخضع للعرف والمواضعات أكثر مما يظن — فنعتقد أنه ذريعة تصطنع أصلا لستر ما بأعضائهن التناسلية من نقص . ولم يفتنا أنه يتخذ وظائف أخرى فيما بعد . ومما هو مشاع بين الناس أن النساء لم تفض إلى كشوف الحضارة ومخترعاتها إلا بالقليل النادر ، لكن ربما كان لهن الفضل آخر الأمر فى الكشف عن عملية فنية واحدة هى عملية النسيج والتضفير . فإن كان هذا حقا ، مال بنا إلى أن نحدس الدافع اللاشعورى الذى يقوم وراء هذا الابتكار . إذ من الممكن أن نعتبر أن الطبيعة نفسها قد قدمت النموذج الذى يحتذى فى هذه العملية بأن جعلت شعر العانة ينبت وينمو فى مرحلة النضج الجنسى بحيث يستر الأعضاء التناسلية . فلم يبق على النساء إلا جدل الشعر ووصل بعضه ببعض دائما أبدا ، ذلك الشعر الذى يظل مغروزا فى الجسم مهوشا ليس غير . ولئن رأيتم فيما أقول إسرافا وإغرابا ، فاتهمتونى بأن لدى « فكرة ثابتة » عن تأثير فقدان القضيب فى نمو الأنوثة ، فلست أملك الدفاع عن نفسى بطبيعة الحال .

إن الشروط التى تعين اختيار المرأة موضوع حبها غالبا ما تحجبها اعتبارات اجتماعية حتى ليشق علينا تعرفها . ولو قدر لهذا الاختيار أن يفصح عن نفسه حرا دون قيد ، لرأينا أنه يحدث غالبا وفق المثل النرجسى للرجل الذى كانت تود البنت أن تكونه . فإن ظلت الفتاة متعلقة بأبيها أى لو أنها بقيت فى قبضة عقدة أوديب ، لكان اختيارها وفاقا لطراز الأب . وبما أنها حين ترغب عن أمها وتتجه إلى أبيها ، يبقى الشطر العدائى من مشاعرها المتناقضة موجها إلى أمها ، فلا بد أن يكفل لها مثل هذا الاختيار زواجا سعيدا . غير أنه يحدث غالبا أن ينبعث عامل يتهدد عادة حل الصراع الذى ينجم عن التناقض الوجدانى ، إذ قد يمتد العداء المتخلف إلى التعلق الإيجابى ويلقى بنفسه على الموضوع الجديد . فإذا بالزوج الذى ورث مكانته بادئ ذى بدء من الأب ، قد احتل على مر الأيام مركز الأم كذلك . وبذا لا يكون من العسير أن يستنفد الشطر الثانى من حياة المرأة فى نضال مع زوجها ، كما استنفد الشطر الباكر القصير فى ثورة وتمرد على أمها . حتى إذا ما استهلكت هذه الاستجابة ونفدت ، فالمحتمل أن يكون الزواج الثانى خيرا من سابقة وأبقى . وقد يحدث تغير آخر فى موقف المرأة بعد ميلاد الطفل الأول ، وهو تغير لا يتوقعه كل من الزوجين . فقد تبعث الأمومة فى نفس الزوجة تقمصها القديم لشخص أمها (ذلك التقمص الذى كانت تكافحه وتدرأه عن نفسها حتى وقت زواجها) ، وقد تستغل كل ما فى حوزتها من لبيدو من أجل هذا التقمص ، بحيث تدفعها « الاستعادة القهرية »[1] إلى أن تعيد على مسرح حياتها تمثيل زواج تعس كان يكابده أبواها . أما العامل القديم وهو فقدان القضيب فلا يزال إلى الآن محتفظا بقوته ، وآية ذلك أن استجابة المرأة لولادة طفلها تختلف باختلاف جنسه . والشىء الوحيد الذى يرضى الأم إرضاء كاملا هو صلتها بطفل ذكر ، فهذه أتم صلة يمكن أن تقوم بين شخصين ، وأكثرها تحررا من التناقض الوجدانى . ذلك أن الأم تستطيع أن تحول إلى شخص ابنها كل طموح اضطرت إلى أن تقمعه فى نفسها ، كما تستطيع أن تأمل فى أن تظفر منه بإرضاء ما بقى لديها من عقدة الذكورة . بل إن الزواج لا تثبت دعائمه إلا حين تفلح المرأة فى أن تتخذ من زوجها طفلا لها وأن تقوم بدور الأم نحوه .

إن تقمص المرأة شخص أمها يبدو فى طورين : الطور السابق للموقف الأوديبى

---

(١) Repetition - Compulsion

وهو طور يغلب فيه التعلق الودود بالأم ، وتتخذ فيه الأم نموذجا ومثالا ، والطور الأوديبى وفيه تحاول البنت التخلص من الأم ، وأن تقوم مقامها من الأب . وإن كلا من هذين الطورين يترك وراءه آثارا عدة يجوز لنا أن نقول إنها لا تمحى على الإطلاق إمحاء تاما خلال التطور التالى للبنت . بيد أن طور التعلق الرفيق السابق للموقف الأوديبى هو الطور الذى يكون له فى مستقبل المرأة أبلغ الأثر . فهو الذى يمهد لها الطريق أن تكسب الصفات التى ستعينها فيما بعد على أن تقوم بدورها فى الوظيفة الجنسية على وجه مرض ، وأن تقوم بأوجه نشاطها الاجتماعية التى يقصر عنها التقدير . يضاف إلى هذا أن ذلك التقمص يكسبها فى عين الرجل تلك الجاذبية التى تذكى تعلقه الأوديبى بأمه وتحيله حبا . غير أن ما يحدث غالبا هو ألا يظفر الزوج نفسه بما يريد ، بل يظفر به ابنه فيما بعده . وهكذا يلوح لنا أن حب المرأة يفصله عن حب الرجل فارق من أطوار نفسية .

ومما يجب التسليم به أن حظ النساء من روح العدل قليل ؛ ولا شك فى أن هذا يرجع إلى غلبة الحسد على حياتهن النفسية . فالإحساس بالعدل يقتضى تحوير الحسد ويحدد الظروف التى يجوز للمرء فيها أن يحسد . كذلك نقول إن اهتمام النساء بالشئون الاجتماعية أقل منه عند الرجال ، وأن قدرتهن على إعلاء غرائزهن دون قدرة الرجال . ولا شك أن الخصلة الأولى تنشأ عن الطابع غير الاجتماعى الذى توسم به الصلات الجنسية جميعا . فالمتحابان يستكفى كل منهما بصاحبه ، والأسرة نفسها تقاوم الاندماج فى جماعات أوسع منها . أما القدرة على الإعلاء فقابلة لفوارق فردية بعيدة المدى . وبالرغم من ذلك لا أستطيع أن أكتمكم انطباعا أخرج به على الدوام من التحليل . ذلك أن الرجل فى الثلاثين من عمره يبدو شابا ، بل يبدو غير مكتمل النمو بمعنى ما ، فنحن نرجو منه أن يصبح قادرا على الانتفاع بإمكانيات النمو التى يمهدها له التحليل . لكن المرأة فى هذه السن تقريبا غالبا ما تدهشنا بجمودها النفسى واستعصائها على التغيير : فكأن طاقتها اللبيدية قد استقرت فى معاقلها الأخيرة وبدت عاجزة عن أن تتركها إلى مواقع أخرى ، وقد سدت أمامها السبل فلا تملك أن تتقدم فى النمو أكثر مما هى عليه ، كما لو كانت عملية النمو قد استنفدت بأسرها ولم يعد لها مجال أن تتأثر بعد ذلك ، أو كما لو كانت عملية التطور الشاقة قد استغرقت كل إمكانيات الأنثى . ولا يسعنا كمعالجين إلا أن نبتئس لهذه الحال حتى إن أفلحنا فى إزالة متاعبها بحل

صراعها العصابى .

هذا كل ما كان على أن أقوله لكم عن نفسية النساء . ولا ريب أنه قول منقوص أبتر ، بل إنه لم يكن مستملحا قط أحيانا . غير أنه يجب عليكم أن تذكروا أننا لم ندرس المرأة إلا على قدر ما تكون طبيعتها مرتهنة بوظيفتها الجنسية ، وليس من شك فى أن لهذه الوظيفة أثرا بعيد المدى إلى حد كبير ، لكن يجب ألا يفوتنا أن المرأة يمكن دراستها ، من الناحية الفردية ، باعتبارها كائنا بشريا بصرف النظر عن هذه الوظيفة . فإذا أردتم أن تستزيدوا من معرفة الأنوثة ، فسائلوا تجاربكم الخاصة ، أو التمسوا شعر الشعراء ، أو ما عليكم إلا أن تنتظروا أن يخرج عليكم العلم بمعلومات أعمق من تلك وأكثر تماسكا والتئاما .

المحاضرة الرابعة والثلاثون

تفسيرات وتطبيقات وتوجيهات

سيداتي وسادتي : لقد مللت الحديث إليكم عن موضوعات جافة ، فهل لي أن أحدثكم الآن عن موضوعات ليس لها من الناحية النظرية إلا أهمية طفيفة ، لكنها ستروقكم وتنال من اهتمامكم ، باعتباركم أصدقاء للتحليل النفسي ومريديه ؟ لنفرض أن أحدكم تناول قصة ألمانية أو أمريكية أو إنجليزية في ساعة من ساعات الاستجمام ، يرجو أن يجد فيها وصفا للناس أو للظروف والأحوال كما هي عليه اليوم . فماذا عساه أن يجد في هذه القصة ؟ إنه سيلتقي بعد بضع صفحات بإشارة إلى التحليل النفسي ، ثم لا يلبث أن تعرض له إشارة أخرى حتى إن لم يكن السياق والملابسات مما يستدعي أمثال هذه الإشارات . فلا تحسبوا أن لهذا صلة على الإطلاق بتطبيق « علم نفس الأعماق » كي يزداد فهم القارئ لأشخاص القصة أو لسلوكهم (ولو أن هناك آثارا أدبية جادة تستهدف هذا الغرض بطبيعة الحال) . كلا ، فأمثال هذه الإشارات هي في أغلب أمرها ملحوظات تهكمية يريد بها الكاتب أن يظهر سعة إطلاعه أو تفوقه الفكري . بل ستشعرون أحيانا أن المؤلف غير ملم بالموضوع الذي يعالجه على هذا النحو . أو لنفرض أن أحدكم ضمته حلقة اجتماعية — ليس من الضروري أن تكون في فيينا — فانقلب الحديث بعد لحظة إلى التحليل النفسي ، فماذا عساه أن يسمع في هذا الحديث ؟ ألوانا من الناس يبدون آراءهم في التحليل ويتحدثون عنه في يقين جازم عادة . أما النغمة التي تسود هذه الأحاديث فهي في العادة نغمة مهينة ، وغالبا ما تكون بذيئة ، أو تغشاها السخرية والاستهزاء على أقل تقدير . فإن لم يكن هذا السامع منكم على درجة كافية من الحرص فبدر منه أنه يعرف شيئا عن الموضوع ، تلقفته أيدي المتحدثين من كل مكان يسألونه ويستفسرونه ، فلا يلبث أن يؤمن بعد لحظة أن كل تلك الأحكام الظالمة لم تبن على أساس من المعرفة ، وأنه لا يكاد يوجد بين هؤلاء الخصوم واحد قرأ كتابا في التحليل ، فإن كان منهم من قدر له أن يقرأ ، فأكبر

الظن أنه عجز عن أن يتغلب على المقاومة الأولى التى تعترض المرء حين يمس موضوعا جديدا .

ربما تتوقعون أن أشير عليكم فى هذا « التمهيد للتحليل النفسى » بنوع الحجج التى تستطيع أن تفحم خصوم التحليل ، وبنوع الكتب التى توصون بها من يريد الاستزادة من الموضوع ، أو حتى بنوع الأمثلة التى يمكن أن تقتبسوها من خبراتكم ومطالعاتكم حتى يسكت المماري عن مماراته ، فأرجو ألا يدخل شيء من هذا فى روعكم ، إذ لا جدوى منه ولا طائل فيه . وخير ما تصنعون هو أن تخفوا معلوماتكم الخاصة إخفاء تاما . فإن لم يكن هذا ممكنا ، فليس لكم إلا أن تقولوا إن التحليل النفسى ، على قدر ما تعرفونه ، فرع خاص من فروع العلم ، ومن العسير جدا فهمه والحكم عليه ، هذا إلى أنه يشغل نفسه بأمور غاية فى الحرج والخطورة فمن العبث اتخاذه وسيلة للتندر والمفاكهة ، ومن الخير أن نختار موضوعا آخر نزجى به الوقت ونشغل به الحديث . ومن الطبيعى ألا تشتركوا فى أية محاولة لتفسير أحلام يرويها غير ذوى الحزم من الناس ، وأن تصدوا عن كل إغراء يميل بكم أن تتخذوا مما قام به التحليل من شفاء زلفى تقربه إلى نفوس الناس .

على أنكم قد تتساءلون عما يحمل هؤلاء الناس على أن يتجنوا على التحليل فى كتاباتهم وأحاديثهم ، وستميلون إلى الظن بأن السبب فى هذا لا يرجع إلى هؤلاء القوم أنفسهم فحسب ، بل ويرجع إلى التحليل النفسى أيضا . وهذا هو الرأى عندى كذلك . فالانحياز الذى يبدو فى الأدب وأحاديث الناس ما هو إلا صدى ذلك الحكم القديم الذى أصدره ممثلو العلوم « الرسمية » على علمنا الناشئ . ولقد سبق لى أن شكوت من ذلك فى استعراض تاريخى للموضوع ، فلا أريد أن أعود إليه — إن خصومى العلميين لم يدخروا وسيلة للتهجم على بل لقد امتد أذاهم حتى جرح المنطق وأدب اللياقة والذوق السليم . لقد كان الموقف شبيها بما يحدث بالفعل فى القرون الوسطى حين كان الآثم ، بله الخصم السياسى ، يشد إلى آلة التعذيب ، ويترك نهبا لعقاب الجماهير والدهماء . ولعلكم لا تتصورون إلى أى حد تسود روح الدهماء مجتمعنا الحاضر ، وإلى أى حد يندفع الناس حين يشعرون أنهم جزء من جمهور لا تحدهم التبعة الشخصية . لقد كنت أقف وحدى تقريبا حيال هذا التيار فى ذلك العهد ، وسرعان ما رأيت أن الجدل والمساجلة لا يغنيان شيئا ، وأن الشكوى

والالتجاء إلى العقول المستنيرة لا معنى لهما ، فإلى أى محكمة أحتكم ؟ إذ ذاك اتخذت طريقا آخر : فطبقت التحليل النفسى لأول مرة بأن فسرت سلوك الجماهير على أنه مظهر لنفس المقاومة التى يتعين على أن أقهرها عند مختلف مرضاى . ومن ثم أمسكت عن كل جدل ، وأقنعت أتباعى الذين كانوا يتزايدون على درج بأن يتخذوا هذا الموقف بعينه . فلم تلبث هذه الذريعة أن آتت ثمارها . ومنذ ذلك الحين رفعت اللعنة التى كانت تحيق بالتحليل فى هذه الأيام ، لكن شيئا من أثر ذلك الازدراء القديم الذى كان يستهدف التحليل فى الدوائر العلمية لا يزال باقيا إلى اليوم فى أدب الأدباء وكلام المحدثين ، شأنه فى ذلك شأن المعتقد القديم يعرض الناس عنه فيبقى فى صورة خرافة ، وشأن النظرية يعرض عنها العلم فتبقى فى صورة اعتقاد شعبى . فلا تعجبوا إذن من موقف هؤلاء وسلوكهم إزاء التحليل .

ومع أن التحليل يعتبر اليوم علما من العلوم وقد اتخذ مكانه فى الجامعة ، إلا أن المعركة التى تدور حوله لم تنته بعد ، وإن اتخذت شكلا أكثر وقارا واحتراما ... وشىء آخر جديد : فقد ظهرت فى الدوائر العلمية طائفة يتوسطون بين التحليل وخصومه ، وهم قوم يسلمون ببعض مفروضات التحليل مع إحاطتها بتحوطات لا تخلو من طرافة ، وينبذون أخرى فينشرونها على الملأ جميعا . ليس من العسير أن نحزر ما يملى عليهم هذا الاختيار إلا أن يكون الميل الشخصى فيما يبدو . من ذلك أن بعضهم يعترضون على الجنسية ، وآخرين على اللاشعور ، ويلوح أن موضع الرمزية مما لا يستسيغونه بوجه خاص . لقد فات هؤلاء « المنتقون » إن التحليل النفسى — ولو أن بناءه لم يتم بعد — يؤلف كلا موحدا ، فمن المحال أن ينتزع المرء منه بعد — يؤلف كلا موحدا ، فمن المحال أن ينتزع المرء منه بضعة عناصر وفق نزواته الخاصة . على أنى لم أشعر قط أن هؤلاء الأنصار « المتوسطين » يصدرون فى اختيارهم أو رفضهم عن فحص دقيق جدى . وأشير إلى أن عددا كبيرا من الرجال الممتازين ينتمون إلى زمرة هؤلاء . ولا شك أن لهذا النفر أعذارهم ، فهم يكرسون أوقاتهم واهتمامهم لأشياء أخرى ، للموضوعات التى أفلحوا أن يحكموها ويبرزوا فيها . غير أن الأمر ما دام كذلك ، ففيم إذن هذا الانحياز العنيف ؟ ألم يكن خيرا لهم أن يتحفظوا فى أحكامهم ؟ لقد وفقت ذات مرة أن أرد واحدا من هذه الشخصيات الكبيرة عن رأيه ردا سريعا ، فقد كان ناقدا ذا شهرة عالمية ، يتتبع التيارات الفكرية المعاصرة فى استبصار نافذ . ولم

تتح لى معرفته إلا بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، لكنه كان ما يزال محدثا ساحرا . فهل عرفتم من أشير إليه ، إخال أنه لا يشق عليكم أن تحزروه . ولم أكن أنا البادئ بإثارة موضوع التحليل ، بل بدأه هو فقال فى تواضع جم : « لست إلا أديبا ، وأنت رجل علم ومكتشف ، لكن هناك شيئا واحدا أود أن أقوله لك وهو : أنى لم أشعر قط شعورا جنسيا نحو أمى » . فأجبته : « ليس هناك ما يدعو على الإطلاق إلى أن تشعر بهذا ، فأمثال هذه الظواهر تكون لا شعورية عند الكبار الناضجين » . فأجابنى الرجل وهو يضغط يدى وقد سرى عنه إلى حد كبير : « آه ، هذا هو رأيك » . ثم مضينا نتحدث لبضع ساعات ونحن على وفاق تام . ثم سمعت فيما بعد أنه ظل يتحدث عن التحليل فى ود وصداقة ما بقى من حياته ، وأنه كان يحب أن يستخدم كلمة « الكبت » وكانت كلمة جديدة عليه .

ثمة قول معروف يوصينا أن نتعلم من أعدائنا ، وأصرح أننى لم أستطع قط أن أعمل بهذا القول . لكنى رأيت أن أحدثكم الآن عن جميع ما وجه إلى التحليل من لوم واعتراض — ولا شك أن فى هذا ما يزيد من معرفتكم به — ثم أشير بعد ذلك إلى ما ينطوى عليه من أخطاء منطقية وتحريف واضح . بيد أنى حين راجعت نفسى وجدت أن هذه المحاولة لن تكون شائقة على الإطلاق ، بل ستكون شائكة مملة ، هذا إلى أنها مخالفة فى الواقع للاتجاه الذى ظللت مستمسكا به إلى اليوم. لذ أستميحكم العذر إذا أنا أمسكت عن ذلك ، وأعفيكم عن سماع الأحكام التى يصدرها من يسمون خصومنا العلميين . إنهم فى الأعم الأغلب نفر ليس لدينا ما يبرر نشر آرائهم إلا عدم انحيازهم — وقد اكتسبوه من جهلهم المطبق بحقائق التحليل النفسى . غير أنى أعرف حق المعرفة أن وصفهم بالجهل لا ينطبق عليهم كافة ، إذ أن فريقا منهم لهم بالتحليل خبرة ودراية ، بل ربما أجرى عليهم التحليل أنفسهم ، وكان كثير منهم زملاء لى بالفعل حقبة من الزمن ، ثم انصرفوا عنى وأسسوا مدارس مستقلة للتحليل النفسى بعد أن وصلوا إلى نتائج أخرى وصاغوا نظريات أخرى . وإخالكم ترقبون أن أبين لكم دلالة هذه التيارات المنشقة ، وكيف أمكن ظهورها ، تلك التيارات التى كثر تواترها فى تاريخ التحليل .

إذن فلكم ما تطلبون . غير أنى لن أعدو الإيجاز فيما سأقول لأنه لا يلقى من الضوء على طبيعة التحليل ما تحسبون . وأنا على يقين أن أول ما خطر ببالكم هو « علم النفس

الفردى » لآدلر الذى ينظر إليه القوم فى أميركا مثلا على أنه عدل التحليل النفسى فى الأهمية ، فهم يضعونه فى نفس مستواه ، ويقرنون اسمه بالتحليل النفسى دائما . والحق أن علم النفس الفردى لا تكاد تكون له صلة بالتحليل ، غير أنه يعيش على حسابه عيشة طفيلية لأسباب تاريخية معينة . لذا فما عزوناه من الصفات إلى هذه المجموعة من الخصوم لا ينسحب على مؤسسى علم النفس الفردى إلا إلى حد محدود جدا . « بل التسمية نفسها قد جانبها التوفيق ، ويبدو أنها وليدة الحيرة وخيبة الأمل فى العثور على تسمية سواها ، فهى لا تعنى أكثر من كونها الاصطلاح المقابل « لعلم النفس الجمعى » بيد أن ما ندرسه أيضا نحن (رجال مدرسة التحليل) ما هو إلا من صميم علم نفس الفرد من بنى الإنسان » ، . لست أريد (البتة) الآن أن أقدم لكم نقدا موضوعيا لعلم النفس الفردى لآدلر ، فليس لهذا النقد مجال فى خطة محاضراتى هذه . هذا إلى أنى لم أغير شيئا من الأفكار التى سبق أن سقتها عن هذا الموضوع فى غير هذا المكان . بيد أنى سأصور لكم الانطباع الذى تتركه هذه المدرسة فى النفس بأن أقص عليكم حادثة صغيرة عرضت لى فى السنوات التى سبقت ظهور التحليل :

فإلى جوار البلدة الصغيرة التى ولدت فيها بمورافيا ، والتى تركتها طفلا فى الثالثة من عمرى ، يوجد منتجع صحى متواضع تحفه الأرض الخضراء فتزيده جمالا . وكثيرا ما كنت أقضى إجازاتى هناك وأنا تلميذ بالمدرسة . ثم أتاح لى مرض قريب لى أن أزور هذا المكان مرة أخرى بعد مرور عشرين عاما . وفى معرض حديث لى مع الطبيب الذى يتعهد قريبى هذا ، سألته عن أحواله مع المزارعين السلوفاكيين — فيما أعتقد — الذين كانوا عملاءه الوحيدين أثناء الشتاء . فأخذ يصف لى الطريقة التى يزاول بها نشاطه المهنى : لقد كان المرضى يدلفون إلى حجرته فى ساعة الاستشارة فيصطفون صفا ، ثم يتقدمون إليه واحدا بعد آخر يخبره كل بشكواه : وجع فى الظهر ، أو ألم فى المعدة ، أو تعب فى الساقين إلى غير ذلك ، فيفحصه الطبيب ثم يخبره بنوع مرضه بعد تشخيصه ، وكان التشخيص فى كل حالة واحدا بعينه يتلخص فى أن المريض « مسحور » . وقد ذهلت لما سمعت فسألته ألم يكن المرضى يعترضون إذ يجدهم مصابين جميعا بمرض واحد ؟ فأجابنى : « كلا ، إنهم يسرون كل السرور لما أقول ، لأن هذا ما يرجونه على التحديد ، فكان الواحد منهم إذا عاد إلى مكانه فى الصف ، قال للآخرين بنظراته وإيماءاته : يا له من شخص يعرف بيت الداء ! » . ولم يدر بخلدى فى ذلك الحين إنى سأشهد مثل هذا الموقف فى ظروف أخرى .

ذلك موقف علم النفس الفردى الذى يؤمن به آدلر وأتباعه . فسواء عرض له منحرف

يشتهى أفرادا من جنسه أو ينزع إلى الفسق بالموتى ، أو هسترى يبهظه الحصر ، أو حواذى منطو على نفسه ، أو مخبول يهذى ويهرف ... فهو يعزو القوة المحركة فى كل حالة من هذه الحالات إلى رغبة المنحرف أو المريض فى السيطرة وتأكيد ذاته ، وتعويض ما لديه من قصور تعويضا زائدا ، إلى رغبته فى أن يعلو ويسود غيره ، وفى أن يرتفع عن المستوى الأنثى إلى مستوى الذكورة . لقد اعتدنا أن نسمع أمثال هذه التفاسير يوم كنا طلابا شادين نتدرب فى المستشفى . فكان يقال لنا أن المصابين بالهستريا يستحدثون أعراضهم ليسترعوا الانتباه إليهم والاهتمام بهم . أليس مما يثير الدهش والانذهال أن تبقى هذه المبادئ البالية العتيقة على مر الزمن ! غير أن هذه البضاعة المزجاة من علم النفس لم تكن تبدو لنا كافية لتفسير لغز الهستريا حتى فى ذلك الحين ، فهى لم تستطع أن تفسر لنا ، مثلا ، لم يصطنع الهستريون لبلوغ غايتهم هذه الوسائل بعينها لا وسائل غيرها . إن مذهب علم النفس الفردى ينطوى بطبيعة الحال على بضع مفروضات صحيحة ، لكن أصحابه يرون أن تفسيرهم الأبتر تفسير كامل . فغريزة حفظ الذات تحاول أن تفيد من كل موقف من المواقف ، كما يعمل الأنا على أن يظفر بشىء من الربح حتى عن طريق المرض . وهذا ما نسميه فى التحليل النفسى « الربح الثانوى للمرض » . غير إننا إن تأملنا فى ظواهر كالمازوخية أو الحاجة اللاشعورية إلى العقاب والنزعة العصابية إلى الإضرار بالذات ، لاح لنا أن كل تلك الظواهر تقتضى وجود نزعات غريزية تعارض غريزة حفظ الذات . وهذا من شأنه أن يجعلنا نرتاب فى صحة الأساس الضحل الذى يقوم عليه الهيكل النظرى لعلم النفس الفردى . لكن مثل هذا المذهب لا بد أن يلاقى من سواد الناس ترحيبا بالغا ، فهو ينأى عن التعقيدات ولا يقدم لهم آراء جديدة أو عويصة ، هذا إلى أنه ينكر اللاشعور ، ويطيح بمسألة الجنسية فى ضربة واحدة ، تلك المسألة التى تثقل على كل نفس ، كما يقف نفسه على كشف الحيل التى يحاول الناس بها أن يجعلوا الحياة سهلة مساغة . ذلك أن سواد الناس يؤثرون الراحة والعافية ولا يتطلبون أكثر من سبب واحد لما ينشدونه من تفاسير ، ولا يرحبون بالعلم لما ينطوى عليه من تعقيدات مربكة ، هذا إلى إنهم يفضلون الأجوبة البسيطة ، ويحبون أن تحل مشاكلهم دفعة واحدة . فمتى عرفنا هذا كله ، لم يشق علينا أن نرى كيف يستجيب « علم النفس الفردى » لهذه الأمانى ويحققها ، ولم يسعنا إلا أن نذكر ذلك البيت من الشعر فى رواية « شيلر » المسماة « والنشتين » (Wallenstein) .

« إن لم تكن براعة الفكرة فوق حد الوصف   مال المرء إلى اعتبارها غاية من السخف »

وبينما يوجه النقاد المحنقون سهامهم إلى التحليل النفسى فى غير هوادة أو لين ، إذا هم — فى العادة — يتناولون علم النفس الفردى بأصابع رفيقة مكسوة بالمخمل ، الحق أن طبيبا من أنبه أطباء العقول فى أمريكا نشر مقالا ضد آدلر عنوانه « كفى » عبر فيه تعبيرا قويا عن عدم رضائه عن « التكرار القهرى » الذى يتسم به علم النفس الفردى . ولئن بدا غيره أكثر رفقا وتلطفا بهذا المذهب ، فذلك يرجع من دون شك وإلى حد بعيد إلى نفورهم من التحليل النفسى .

ليست بى حاجة إلى الإفاضة فى الحديث عن المدارس الأخرى التى انشقت علينا . فوقع هذا الانشقاق ليست بذاته حجة لجانب التحليل النفسى أو عليه . فحسبكم أن تفكروا فى العوامل الوجدانية القوية التى يشق معها على كثير من الناس أن يتعاونوا مع غيرهم ، أو أن يكونوا لهم أتباعا . هذا إلى صعوبة أكبر من هاتين تتضمنها الحكمة اللاتينية : « بقدر الرؤوس تتعدد الآراء » . ومتى تجاوزت خلافات الرأى حدا معينا ، فأفضل شىء هو الانفصال ، وأن يعمل كل حزب على شاكلته ، خاصة إذا ما تضمن الخلاف فى الرأى تحويرا فى الخطة العملية للتحليل . ولنفرض على سبيل المثال أن محللا لا يلقى بالا يذكر إلى ماضى المريض وما له من أثر من نفسيته فلا يلتمس أسباب العلة إلا من حاضر المريض وما يرقبه من أحداث مستقبلة . إن محللا هذا شأنه يهمل بطبيعة الحال تحليل مرحلة الطفولة ، ويصطنع خطة أخرى للعلاج تختلف عن خطتنا الأصلية الاختلاف كله ، ويرى نفسه مضطرا إلى أن يستعيض عن تحليل حوادث الطفولة بنفوذه الخاص وفرض تعاليمه على المريض مباشرة كأن يوصيه باستهداف غايات معينة فى حياته . وربما كان هذا ضربا من الفلسفة والحكمة ، غير أنه ليس من التحليل فى شىء . أو لنتصور من جهة أخرى أن محللا يذهب إلى أن الحصر (القلق المرضى) الذى يصيب الفرد عند ولادته هو نواة كل اضطراب عصابى يصيبه فى مستقبل حياته ، فمن الطبيعى أن يقصر التحليل على آثار ذلك السبب الوحيد ، وأن يعد بالشفاء بعد ثلاثة أشهر أو أربعة من بدء العلاج . ولعلكم لاحظتم إننى اخترت مثالين تقع فروضهما على طرفى نقيض . فمما تكاد تتميز به هذه التيارات المنشقة جميعها أن يستحوذ كل حزب منها على جانب واحد فقط من مفروضات التحليل النفسى والدوافع الوفيرة التى كشف عنها ويتبناه لمدرسته : كغريزة حب التسلط والسيطرة مثلا ، أو الصراع الخلقى ، أو عقدة الأم ، أو الوظيفة التناسلية إلى غير ذلك ، ثم يبنى استقلال مدرسته على أساس من هذا التبنى . فإن بدا لكم أن حوادث الانشقاق أصبحت اليوم أكثر شيوعا فى تاريخ التحليل النفسى منها فى أية حركة فكرية

أخرى ، فإنى فى ريب مما تظنون . ولئن كان الرأى ما ترون ، تعين علينا أن نعزو تبعة هذا الشقاق وتواتره إلى الصلات الوثيقة التى تربط الآراء النظرية بطريقة العلاج فى التحليل النفسى . ولو اقتصر الأمر على مجرد خلاف فى الرأى لهان احتماله . إن الناس يميلون إلى اتهامنا نحن رجال التحليل بالتصلب وعدم التسامح . وبرهانهم الوحيد على هذا العيب البغيض فينا هو ، على التحديد ، انفصالنا عن قوم لا نشاطرهم آراءهم دون أن نبغى الافتئات عليهم . والحق أنهم أصبحوا فى نعيم . فهم بابتعادهم عنا قد تخلصوا من أحد الأعباء الثقيلة التى نرزح تحتها : مثل معرة الجنسية الطفلية ، ومهزلة الرمزية . ومن ثم أصبح العالم أجمع ينظر إليهم نظرة شبيهة بالاحترام ، على حين ينظر إلينا ، نحن المتخلفون ، كما ينظر إلى الدجالين والمشعوذين . يضاف إلى هذا أن هؤلاء المنشقين جميعا ، باستثناء حالة واحدة جديرة بالاعتبار ، هم الذين بدأوا بالقطيعة والانفصال .

وماذا تطلبون منا باسم التسامح أكثر من هذا ؟ أتريدون منا أن نقول لمن يدلى برأى نراه خاطئا فى أساسه : « نشكرك كل الشكر لأنك تنقض آراءنا ، لقد أنقذتنا من التورط فى الزهو والغرور ، وأتحت لنا فرصة نبرهن فيها للأمريكيين أننا بلغنا من اتساع الأفق والعقل أقصى ما يأملون ، نحن لا نؤمن بكلمة واحدة مما تقول ، لكن هذا أمر لا أهمية له . فأكبر الظن أنك على حق كما نحن على حق . لكن لعمرى من يدرى أينا على حق ؟ ويتعين عليك بالرغم مما بيننا من خلاف أن تأذن لنا فى أن نبرز آراءك فى نشراتنا . وفى مقابل هذا نأمل أن تكون رفيقا فتدافع عن آرائنا وإن كنت لا تؤمن بها » . لا شك فى أن هذا سوف يكون عرف الدوائر العلمية فى المستقبل ، يوم تطبق نظرية النسبية لأينشتين تطبيقا أعشى لا تعقل فيه ولا تمييز . لكنا فى الوقت الحاضر ، لم نبلغ بعد مثل هذه المرحلة ، بل التزمنا خطتنا التقليدية العتيقة التى تفرض علينا ألا نعلن إلا عن معتقداتنا ، ولئن كان فى هذا ما يعرضنا للتورط فى الخطأ ، فهذا أمر لا يستطيع أحد أن يتحاشاه . كما أننا ننبذ كل ما يناقض آراءنا ، أما حقنا فى تغيير آرائنا كلما وجدنا خيرا منها فقد استخدمناه إلى أقصى حد لصالح التحليل .

لقد أعاننا التحليل النفسى على فهم طبيعة الفرد الذى كان يبديه الناس لنا من جراء جهودنا التحليلية . وكان هذا من أولى النتائج العملية للتحليل . على أن هناك تطبيقات أخرى ، تهدف إلى أغراض موضوعية ، قد تكون ذات أهمية أعم وأشمل . لقد كان مقصدنا الأول ، كما تعلمون ، أن ندرس اضطرابات النفس الإنسانية ، لأنه راعنا

ما كشفت عنه تجاربنا من أن دراسة هذه الاضطرابات تكاد تعنى علاجها ، حيث كان فهم طبيعة الأعراض يؤدى إلى البرء منها . ولقد ظل هذا هدفنا الوحيد زمنا طويلا . ثم لم نلبث أن تكشفت لنا الصلة الوثيقة — بل التطابق الباطنى فى الواقع — بين العمليات المرضية والعمليات المسماة بالسوية . وبذا أصبح التحليل النفسى « علم نفس الأعماق » . وبما أنه ما من تصرف يأتيه الإنسان أو عمل يعمله إلا يتعذر فهمه وتفسيره بغير الاستعانة بعلم النفس ، فقد ظهرت تطبيقات للتحليل من تلقاء ذاتها ، وفرضت نفسها على ميادين شتى من العرفان ، خاصة ميدان العلوم النفسية ، فكان من شأنها أن أثارت الاهتمام ببحوث جديدة وأعمال جديدة . غير أن هذه الجهود قد ارتطمت لسوء الطالع بعقبات خاصة لصيقة بطبيعة الموقف نفسه ، وهى عقبات لا تزال قائمة إلى اليوم . فالتطبيق يقتضى الإلمام بمعلومات فنية لا يملكها التحليل ، فى حين أن من يحيطون بهذه المعلومات ، وهم الخبراء المختصون ، لا يعرفون شيئا عن التحليل ، وربما لا يريدون أن يعرفوا عنه شيئا . وقد ترتب على هذا أن ولج المحللون ميادين شتى لعلوم كعلم الأساطير وتاريخ الحضارة وعلم أصول السلالات البشرية وعلم الدين وغير تلك ، فتناولوها كأنهم هواة يتفاوت مقدار ما لديهم من مادة يجمعونها على عجل فى أغلب الأحيان . ولقد تصدى لهم المحنقون فى هذه الميادين الذين توطدت أقدامهم فيها . فعاملوهم بمثل ما يعامل به الفضوليون المتطفلون ، ورفضوا مناهجهم كما رفضوا نتائج بحوثهم حين كان يقدر لها أن تستثير اهتمامهم على أى وجه من الوجوه . غير أن الموقف آخذ فى التحسن باطراد فى جميع الميادين ، كما أن عدد من يدرسون التحليل لاستخدامه فى بحوثهم الخاصة آخذ فى الازدياد ، مثلهم فى ذلك كمثل المستعمرين يحلون محل من سبقهم من الرواد . ولا شك أنها حركة تبشر بفيض من أفكار ومعلومات جديدة . يضاف إلى هذا أن فى تطبيقات التحليل تأكيدا لتعاليمه ومفروضاته على الدوام . على أن البحث العلمى كلما تعددت نواحى تطبيقه العملية وتشعبت ، اشتد الإمعان فى محاربته والتهجم عليه بغلظة : فهذه هى القاعدة العامة .

أشعر بميل شديد إلى أن أعرض عليكم جميع التطبيقات التى حظى بها التحليل النفسى فى ميدان علوم النفس ، فهى أشياء يرى كل مثقف أنها خليقة بالمعرفة . وفى سردها عليكم فرصة تتيح لنا أن لا نسمع شيئا عن موضوع الشذوذ والأمراض ولو برهة على الأقل نستجم فيها ونستريح . غير أنه ينبغى لى ألا أنساق لهذا الإغراء ، لأن

هذا الاستعراض ينأى بنا كثيرا عن موضوع هذه المحاضرات ، وأصار حكم أنى لا أجد نفسى أهلا للقيام بهذا العمل . نعم ، لقد خطوت الخطوة الأولى فى بعض هذه الميادين ، لكننى لم أعد أستطيع أن أستوعب المجال كله فى نظرة شاملة ، ولا معدى لى عن أن أنفق وقتا طويلا فى الدرس حتى يتسنى لى أن أحيط بكل ما أضيف إلى الموضوع منذ محاولاتى الأولى . فمن ساءه إحجامى هذا ففى وسعه أن يعوض ذلك بأن يقرأ مجلتنا (Imago) التى خصصناها للتطبيقات غير الطبية للتحليل .

على أن هناك موضوعا لا أستطيع أن أمر به هونا ، لا لأنى أعرفه حق المعرفة ، أو لأنى أشبعته درسا وتمحيصا ، بل على العكس لم أكد أشغل نفسى به قط . غير أنه موضوع على جانب كبير من الخطورة ، يعقد عليه المستقبل آمالا كثيرة . والحق أنه ربما كان أهم الموضوعات التى درسها التحليل النفسى جميعا . وأعنى بهذا تطبيق التحليل فى التربية وتنشئة الأجيال المقبلة . ويسرنى على الأقل أن أقول أن ابنتى « أنا فرويد » قد كرست جهودها لهذا الموضوع فعوضت بذلك إهمالنا إياه . لا يشق علينا أن نرى الطريق الذى أسلم بنا إلى تطبيق التحليل فى هذا الميدان . فكلما حاولنا أن نتأثر أسباب الإعراض عند العصابيين من الكبار ، رجع بنا هذا الاستقصاء إلى الطفولة الباكرة للمريض . أما معرفة العوامل العلِّية بعد هذا العهد فلم تكن كافية سواء لفهم حالة المريض أو لشفائه . ومن ثم اضطررنا إلى أن نحيط بالخصائص النفسية لسنى الطفولة الباكرة ، فظفرنا من ذلك بأشياء كثيرة جدا ، ما كان لنا أن نكشف عنها من دون التحليل . كما أتيح لنا أن نصحح طائفة من الآراء الشائعة عن الطفولة . فوجدنا أن السنوات الأولى من الحياة (حتى الخامسة من العمر تقريبا) ذات أهمية خاصة وذلك لأسباب عدة . ففى هذه السنوات تزدهر النزعات الجنسية عند الفرد لأول مرة ، ذلك الازدهار الذى يقرر مصير الحياة الجنسية عند الراشد فيما بعد . هذا إلى أن الانطباعات التى يخبرها الطفل فى هذه المرحلة تعرض « الأنا » لا يزال ضعيفا فجا ، ومن ثم يكون أثرها فيه كأثر الصدمات . وليس فى وسع هذا الأنا أن يقى نفسه من الأعاصير الانفعالية التى تستثيرها هذه الانطباعات إلا عن طريق الكبت . على هذا النحو يكتسب الأنا فى عهد الطفولة كل ما يهيؤه للاضطرابات الوظيفية فى المستقبل . كذلك عرفنا أن الطفولة مرحلة من الحياة يجد الطفل عناء فى اجتيازها ، إذ يتعين عليه فى فترة وجيزة من الزمن أن يمثل فى شخصه الصغير كل ما حصله الرقى الثقافى للإنسان فى

أحقاب زادت على عشرات الآلاف من السنين ، أى يتعين عليه أن يتعلم أو أن يبدأ فى أن يتعلم كيف يضبط غرائزه ويتكيف للبيئة الاجتماعية . والطفل لا يملك أن يحور شخصه بنفسه على هذا النحو إلا تحويرا يسيرا ، أما القسط الأوفر من هذه المهمة فيفرض عليه جبرا عن طريق التربية . وليس بمستغرب أن تتم هذه المهمة فى أغلب الأحيان من جانب الطفل على وجه منقوص . إن عددا كبيرا من الأطفال تصيبهم فى هذه السنوات الأولى حالات شبيهة بالأمراض النفسية ، وهذا يصدق من دون ريب على من تبدو لديهم هذه الأمراض بصورة صريحة فى مستقبل حياتهم . ففى حالات غير قليلة لا ينتظر المرض النفسى حتى يشب الطفل وينضج بل يندلع فى الطفولة ويكون مصدرا لمتاعب كثيرة تقلق بال الآباء والأطباء .

لم يكن لنا سبيل إلى التردد فى استخدام العلاج التحليلى مع أمثال هؤلاء الأطفال سواء بدت لديهم أعراض عصابية لا لبس فيها ، أم كانوا فى الطريق الذى يسلم بهم إلى صفات خلقية معيبة . أما القلق الذى يبديه خصوم التحليل على الطفل خشية أن يصيبه أذى من جراء عملية التحليل ، فقد ظهر أنه لا يقوم على أساس سليم إطلاقا . وقد استطعنا بفضل هذا التحليل أن نجد فى دراسة الفرد الحى تأييدا عمليا لما كنا لا نستطيع أن نظفر به إلا عن طريق الاستنتاج من الوثائق التاريخية فى حالة الكبير الناضج . أما الطفل الذى جفاه الأطفال أنفسهم فكان يبعث على الرضا إلى حد بعيد . وقد ظهر أن الطفل فرد موات للعلاج التحليلى بوجه خاص ، وأن نجاح التحليل فى علاجه شامل باق . غير أنه كان علينا بطبيعة الحال أن نصطنع فى تحليل الطفل خطة محورة تختلف فى كثير عن خطة تحليل الكبار ، لأن الطفل يختلف عن الكبير من الناحية النفسية : فالأنا الأعلى لم يتكون لديه بعد ، كما أن استخدام طريقة « التداعى الطليق » معه لا يؤدى إلى نتائج تستحق الذكر ، هذا إلى أن ظاهرة « الطرح »[1] تقوم بدور مختلف عنده ، لأن والديه لا يزالان على قيد الحياة . أما المقاومات الداخلية التى تعرض لنا عند الراشد الكبير فتحل محلها على الأغلب مشاكل ومقاومات خارجية فى حالة الطفل . ومتى كان الأبوان مصدر هذه المقاومة تعرض هدف التحليل بل وعملية التحليل نفسها للخطر — لذا يتحتم غالبا أن يقترن تحليل الأطفال بقدر معين من التأثير فى آبائهم وتبصرتهم عن

---

(١) Transference

طريق التحليل . على أن هناك عاملا من شأنه أن يقلل الفوارق الحتمية بين تحليل الأطفال وتحليل الكبار . ذلك أن عددا كبيرا من المرضى الكبار لا يزالون يحتفظون بكثير من السمات الخلقية لعهد الطفولة بحيث لا يسع المحلل — وهو يحاول أن يكيف خطته لنفسية المريض — إلا أن يصطنع مع هؤلاء جوانب معينة من خطة تحليل الأطفال . ومما يتمشى مع طبيعة الأشياء أن تحليل الأطفال أصبح ميدانه خاصا بالمحللات من النساء .

لقد قلنا إن أغلب أطفالنا يمرون بطور عصابى أثناء نموهم ، وهذا يستثير من تلقاء نفسه سؤالا يتعلق بالصحة النفسية الوقائية للأفراد : أليس من الحكمة أن نستعين بالتحليل النفسى على تحريز الطفل من المرض النفسى حتى إن لم تبد لديه علامات تدل على اضطراب نفسى ، كما نحصن اليوم الأطفال الأصحاء من مرض الدفتريا دون أن ننتظر إصابتهم به ؟ إن مناقشة هذا السؤال لا تعدو اليوم أن تكون موضوع اهتمام نظرى ليس غير ، على أن لدى من الجرأة ما أستطيع أن أحدثكم عنه . إن الفريق الأكبر من المعاصرين قد ينظرون إلى هذا المشروع كأنه ملطخ بالدنس ، فإذا أضفنا إلى هذا موقف أغلب الآباء من التحليل ، فليس بد من أن نقطع الأمل فى تحقيقه اليوم . إن مثل هذا الإجراء الوقائى من الأمراض النفسية ، وهو فى أكبر الظن إجراء مثمر ناجع يقتضى مجتمعا يختلف تنظيمه عن المجتمع الحاضر اختلافا تاما . أما تطبيق التحليل فى التربية فيجب أن ننظر إليه اليوم من زاوية أخرى . وليقر فى أذهاننا أن الهدف الرئيسى للتربية هو تعليم الطفل ضبط غرائزه : إذ من المحال أن نمنحه حرية تامة وأن نسمح له بأن يطيع كل نزعاته دون قيد . ولو قام علماء نفس الطفل بتجربة هذه الحرية لتعلموا منها الشىء الكثير ، لكنها تجعل حياة الآباء أمرا لا يطاق ، كما أنها تضر بالأطفال أنفسهم ضررا بليغا فى حياتهم الحاضرة وفى مستقبل أيامهم . فمهمة التربية إذن هى أن تمنع وأن تردع وأن تقمع . وقد أدت رسالتها فى جميع العصور على نحو يبعث على الإعجاب . لكن التحليل النفسى علمنا أن قمع الغرائز هو ، على التحديد ، ما يهيئ للمرض النفسى . ولعلكم تذكرون أننا تناولنا بشىء من التفصيل كيف يحدث هذا . لذا يتعين على التربية أن تشق لنفسها طريقا بين محظورين : إطلاق العنان للغرائز أو خنقها وإحباط مسعاها . ولئن لم تكن هذه المشكلة مما يستعصى حله على أى وجه من الوجوه ، فلا بد من الكشف عن أفضل تربية تحقق للإنسان أكبر جانب من الخير وأقل قدر من الشر والأذى . وبذا

تتلخص المسألة فى البحث عما يجب منعه وتحريمه ، وفى أية ظروف نقوم بهذا المنع ، وبأية الطرق ؟ كما يجب أن نراعى فوق ذلك أن الأطفال يتفاوتون تفاوتا كبيرا من حيث استعداداتهم الفطرية ، ومن ثم يجب ألا يكون سلوك المربى واحدا إزاء الأطفال جميعا ، إذ أن ما يصلح لأحدهم قد لا يصلح لغيره . ولو أمعنا النظر قليلا لبان لنا أن التربية تؤدى وظيفتها إلى يومنا هذا على وجه معيب جدا ، وإنها تلحق بالأطفال ضررا بليغا . فلئن تسنى لنا أن نقع على أفضل تربية تقوم بمهمتها على خير وجه ، لكان لنا أن نأمل فى استبعاد أحد العوامل التى تسبب المرض النفسى : ألا وهو تأثير الصدمات العارضة فى عهد الطفولة . أما العامل الآخر ... وهو قوة الجبلة الغريزية الشموس ، فلا يمكن التخلص منه عن طريق التربية إطلاقا . وعلى هذا فلو تأملنا التكاليف الشاقة التى تواجه المربى إذ يتعين عليه أن يراعى الجبلة الخاصة لكل طفل على حدة ، وأن يحدس من الأمارات الطفيفة ما يجرى فى عقله الفج وأن يعطيه القسط الذى يستحقه من المحبة والعطف مع الاحتفاظ بقدر معقول من السلطة والنفوذ ، لو تأملنا هذا كله ، لم يسعنا إلا أن نعترف بأن الإعداد الصحيح لمهنة التربية لا يكون إلا بتنشئة المربى على أساس عريض من التحليل النفسى . وخير ما يمكن عمله أن يجرى التحليل عليه نفسه ، لأن المرء لا يتسنى له أن يفهم التحليل دون أن يخبره بنفسه . ويبدو أن تحليل المعلمين والمربين إجراء وقائى أيسر تنفيذا من تحليل الأطفال أنفسهم ، إذ لا تعترضه أمثال تلك العقبات الكبرى التى تعترض تحليل الأطفال .

لن أزيد فى هذا السياق على أن أذكر لكم فائدة أخرى غير مباشرة تجنيها تربية الأطفال من التحليل ، وهى فائدة قد يكون لها فى النهاية أهمية بالغة . تلك أن الآباء الذين أجرى عليهم التحليل أنفسهم ، فأفادوا من ذلك فوائد شتى ، منها معرفتهم بالعيوب والأخطاء التى اتسمت بهم تربيتهم الخاصة — نقول إن هؤلاء الآباء يكونون أدنى إلى معاملة أطفالهم بقدر أكبر من التفهم والاستبصار فلا يورطونهم فى كثير مما تورطوا فيه أنفسهم . إلى جانب هذه الجهود التى يبذلها أصحاب التحليل فى تقويم التربية ، تقوم بحوث أخرى فى أسباب الجناح والجريمة وطرق منعهما . وسأقتصر هنا أيضا على أن أفتح أمامكم باب هذه البحوث وأريكم ما يقع خلفه دون أن ألج بكم داخلها . فإن بقيتم على اهتمامكم بالتحليل ، تسنى لكم أن تعرفوا الشىء الكثير عن هذه

الموضوعات مما هو جديد ومفيد . على أنى لا أستطيع أن أترك موضوع التربية دون أن أشير إلى وجهة نظر خاصة . فقد قيل — وبحق ما قيل — إن كل تربية تقوم على الانحياز والتعصب ، فهى تهدف إلى مواءمة الطفل للنظام الاجتماعى القائم دون اعتبار لقيمة هذا النظام أو للمصير الذى ينتظره . ولئن آمنا بما تنطوى عليه التنظيمات الاجتماعية فى وقتنا الحاضر من نقائص وعيوب ، لم نر من الصواب أن نهيئ التربية التى يوصى بها التحليل النفسى حتى توائم هذه التنظيمات ، بل الأولى أن نضع أمام هذه التربية هدفا آخر أسمى لا تقيده المعايير الاجتماعية السائدة فى وقتنا هذا . غير أنى أعتقد أن هذه حجة غير صحيحة ، وأن هذه المهمة ليست من شأن التحليل النفسى . فالطبيب الذى يستدعى لعلاج مريض بالتهاب رئوى لا يشغل نفسه بأن يعرف ما إذا كان المريض رجلا صالحا أو مجرما أو يطلب الانتحار ، وما إذا كان جديرا بأن يبقى على قيد الحياة ، أو كان من صالحه أن يحتفظ بحياته . فهذا الهدف الجديد الذى يراد بالتربية أن تضعه نصب أعينها من شأنه أن يجعلها تربية منحازة كالتربية التى تسود اليوم . وليس من خلق التحليل أن ينحاز إلى جانب أو إلى آخر . أنا لا أنظر الآن فى أن الناس سوف يرفضون استخدام التحليل فى التربية إطلاقا إذا هو أقر أهدافا تتنافى مع النظام الاجتماعى القائم . لكن التربية التى يوصى بها التحليل تكون قد أخذت على عاتقها تبعة ليست من شأنها إذا هى استهدفت أن تخلق من تلاميذها ثوارا متمردين . بل تكون قد أدت رسالتها إذا ما استطاعت أن تجعلهم أصحاء قادرين على العمل بقدر المستطاع . وحسبها أنها تحمل فى طياتها عوامل ثورية كافية كفيلة بأن لا تدع أحدا ممن صنعوا على أعينها أن يكون فى مستقبل حياته نصيرا للقمع والارتداد . بل سأذهب إلى حد القول بأن من أبغض الأمور أن يكون هناك ، بأى وجه من الوجوه ، أطفال متمردون .

سيداتى وسادتى : سيكون ختام حديثى اليوم بضع كلمات عن الناحية العلاجية من التحليل النفسى . لقد ناقشت الجانب النظرى لهذا الموضوع منذ خمسة عشر عاما ، ولا أستطيع أن أتناوله اليوم بأى تحوير . غير أنى سأخبركم بشىء عن الخبرة العملية التى ظفرنا بها عنه خلال هذه الفترة . تعرفون بطبيعة الحال أن التحليل النفسى نشأ كطريقة للعلاج ، ثم تجاوز هذا النطاق إلى نواح أبعد منه ، لكنه لم يتخل قط عن ميدانه الأصلى . فهو لا يزال يعتمد فى تطوره وتقدمه على العلاج العملى للمرضى . وبغير هذه الطريقة لا نستطيع أن نحصل على الخبرات الكثيرة التى ننتزع منها نظرياتنا . على أن ضروب

الفشل التي نمنى بها فى العلاج تضع بين أيدينا على الدوام مشكلات جديدة ، كما أن مطالب الحياة الواقعية حرز مكين يعصمنا من التمادى فى التأملات المحضة ، وهى خطر تتهددنا فى كل منعطف . لقد قدمت لكم فى محاضراتى السابقة بيانا عن الوسائل التى يستخدمها التحليل لمعونة المريض ، وعن الاتجاهات التى تسير فيها ، وسننظر اليوم فى مدى نجاح التحليل .

ربما تعرفون إننى لم أكن قط متحمسا للنتائج العلاجية ، فلا تخشوا إذن أن ينقلب حديثى هذا إلى الإشادة بالتحليل وتقريظه فى هذه الناحية . بل أوثر أن أحد من نتائجى بدل أن أضخمها . لقد اعتدت — يوم كنت الوحيد الذى يزاول التحليل — أن أسمع من فريق من الناس ممن كانوا يبدون لآرائى ودا ظاهريا : « هذا كله بارع وطريف ، لكن هل لك أن ترينا حالة واحدة شفيتها بالتحليل ؟ » . هذه صيغة من الصيغ الكثيرة التى كانت ترشق بها بدعة التحليل النفسى ، واحدة بعد الأخرى على مر الأيام لإحراجه وصرف النظر عنه . أما اليوم فقد فات أوانها هى وكثير غيرها ، وأصبح المحلل النفسى — كغيره من المعالجين — وبين يديه مجموعة من رسائل الشكر يبعثها إليه المرضى الذين نعموا بالشفاء . على أن القياس لا يقف عند هذا الحد : فالتحليل النفسى طريقة للعلاج كغيره من الطرق ، وله جولاته الناجحة والفاشلة ، وصعوباته وحدوده ، والحالات التى يوصى به فيها . ولقد أتى على الناس حين من الدهر كانوا يبهتون فيه العلاج التحليلى بأنه لا يمكن أن يعتبر علاجا جديا ، لأنه لا يجرؤ على نشر إحصاءات بالحالات التى أفلح فى شفائها . إذ ذاك نشر معهد التحليل النفسى ببرلين — الذى أسسه دكتور ماكس اتنجن (Max Eitengon) — تقريرا عن نتائج أعماله خلال السنوات العشر الأولى من تأسيسه ، ولم تكن نسبة حالات الشفاء مما يدعونا إلى الزهو أو إلى الخجل . لكن أمثال هذه الإحصاءات ليست ذات مغزى لأن المادة التى تتناولها غير متجانسة إلى حد بعيد ، ولا بد من عدد ضخم من الحالات إن أردنا أن ننتزع من الأرقام شيئا ذا دلالة . وخير للمرء أن يفحص ما لديه من حالات خبرها بنفسه . فمن هذه الناحية لا أظن أن نجاحنا يستطيع أن ينافس انتصارات مدينة لورد[1] (Lourdes) ، لأن الذين يؤمنون

---

(١) مدينة فى فرنسا يحج إليها الناس وأغلبهم من المرضى الذين يطلبون الاستشفاء الروحانى .
(المترجم)

بمعجزات العذراء المقدسة أكثر بكثير من الذين يعتقدون بوجود اللاشعور . غير أننا إن غضضنا النظر عن منافسة العلاجات الروحانية للتحليل ، فإنه من الواجب علينا أن نلتمس الموازنة بينه وبين وسائل أخرى للعلاج النفسي . ومن المتعذر فى الآونة الحاضرة أن يتصدى المرء لمثل هذه الموازنة فيما يختص بالوسائل العضوية المادية التى تستخدم فى علاج الأمراض النفسية . بيد أن التحليل ، من حيث هو طريقة للعلاج ، لا يناهض الطرق الأخرى التى يستخدمها الطب للعلاج النفسى ، فهو لا يحرمها ولا يغض منها . ولا يمكن أن يقوم اعتراض ، من الناحية النظرية ، على طبيب يصف نفسه بأنه معالج نفسى يستعمل التحليل إلى جنب طرق علاجية أخرى تبعا للطابع الخاص بالحالة وظروفها المواتية أو غير المواتية . أما من الناحية العملية ، فالضرورات « الفنية » تحتم على الطبيب أن يختص . ومن أمثال ذلك انفصال فن تقويم الاعوجاج الجسمى عن الجراحة . إن ممارسة التحليل النفسى أمر صعب شاق ، فلا يمكن تناوله كما لو كان منظارا يضعه المرء على عينيه حين يريد أن يقرأ ثم يذره متى أراد أن يسير فى الطريق . فالتحليل من شأنه إما أن يستحوذ على الطبيب بأجمعه أو لا ينال منه الطبيب شيئا على الإطلاق . أما هؤلاء المعالجون النفسيون الذين يستخدمون التحليل عرضا فلا يستندون — فيما أعرف — إلى أساس مكين من التحليل . ذلك أنهم لا يقبلون التحليل فى جملته ، بل يخففون من حدته ، وربما انتزعوا « شوكته » وأزالوا « حمته » فلا يمكن أن يكونوا فى عداد المحللين . وهذا شيء أرى أنه يدعو إلى الأسف : فلئن تعاون المعالج النفسى مع المحلل فى التطبيب ، وقصر المعالج عمله على طرق أخرى غير التحليل ، لكان فى تعاونهما الخير كل الخير .

إن التحليل النفسى إن قورن بغيره من طرق العلاج النفسى ، فلا شك فى أنه أقواها أثرا على الإطلاق . وهذا ما ينبغى أن يكون ، فهو أكثرها عناء وأطولها مدى ولا يجوز إجراؤه فى الحالات الخفيفة . أما فى الحالات التى تستدعيه ففى وسعه أن يزيل المتاعب النفسية وأن يحدث من التغييرات ما لم يكن قط معقد رجاء قبل ظهوره . غير أن له نطاقه وحدوده ، وهى حدود ظاهرة نلمسها فى وضوح . وقد دفع الطموح بكثير من أتباعى إلى أن يكدوا أنفسهم ليتجاوزوا هذه الحدود طمعا فى شفاء الاضطرابات العصابية جميعا بالتحليل ، فحاولوا أن يضغطوا إجراءاته حتى يقصر أمده ، وأن يذكروا ظاهرة « الطرح » حتى يتسنى له أن يقهر جميع المقاومات ، وأن يردفوا به

وسائل أخرى فعالة حتى يظفروا بشفاء المريض . ولا شك أنها جهود تستوجب الثناء ، لكنى أعتقد أن لا جدوى منها ، هذا إلى أنها تنطوى على خطر ، إذ من شأنها أن تجرف المحلل خارج نطاق التحليل ، وأن تقحمه وتزج به فى بحر من التجريب لا حدود له ولا قرار . أما القول بأن الأمراض النفسية جميعها قابلة للشفاء فأظن أنه وليد اعتقاد ذائع بين غير المختصين فحواه أن هذه الأمراض مظاهر سطحية كل السطحية وأنها دخيلة على النفس . الواقع أنها اضطرابات خطيرة تحتمها جبلة الفرد ، ويندر أن يقتصر أثرها على بضع نوبات تصيب المريض ، بل إنه ليشعر بإعناتها فى العادة أعواما طوالا ، إن لم يكن طول حياته بأسرها . وقد علمتنا خبرتنا بالتحليل أننا نستطيع أن نؤثر فى هذه الأمراض تأثيرا بعيد المدى متى تسنى لنا أن نكشف عن الأسباب التاريخية التى دفعتها إلى الظهور وعن العوامل الثانوية العارضة . وهذا ما دفعنا إلى إهمال العامل الجبلى فى إجراءاتنا العلاجية . والحق أن لا حيلة لنا فى هذا العامل ، لكنه يجب أن يكون ماثلا فى أذهاننا حين نعالج الموضوع من ناحية نظرية . ومهما يكن من أمر فإن استعصاء الأمراض العقلية على العلاج التحليلى استعصاء تاما من شأنه أن يطامن من نظرتنا المتفائلة إلى الأمراض النفسية ، وذلك لما بين هذه وتلك من صلة وثيقة . ثم إن هناك طائفة بأسرها من العوامل الهامة تحد من صلاحية العلاج بالتحليل ، وهى عوامل تصعب معالجتها إطلاقا . ففى حالة الأطفال ، وهم من نرجو أن نظفر من علاجهم بأكبر قسط من النجاح ، تقوم صعوبات خارجية ترجع إلى موقف الآباء ، ومع هذا فهى صعوبات لاصقة بالطفولة نفسها (أى يكون المريض طفلا) . أما فى حالة الكبار فثمة عاملان يسودان الموقف : أولهما درجة الجمود النفسى للمريض ، والثانى نوع المرض وما يختفى وراءه من مسببات بعيدة الغور . أما فيما يتصل بالعامل الأول فغالبا ما نغض من شأنه ، وهذا خطأ كبير . ولا بد أن نذكر أن الحياة النفسية مهما كانت مرونتها وطواعية حالاته القديمة للانبعاث ، فهذا لا يعنى أن كل قديم يمكن أن يبعث من جديد . من ذلك أن كثيرا من التغييرات تبدو نهائية فكأنها آثار لندوب خلفتها عمليات جراحية قديمة . وفى حالات أخرى يخيل إلينا أن هناك جمودا عاما يشمل النفس بكليتها ، فالعمليات التفنسية التى لا يشق علينا أن نحول مجراها إلى مسالك أخرى ، تبدو عاجزة عن ترك مجاريها القديمة — وربما كان هذا عين ما ذكرت منذ لحظة ، لكنى أنظر إليه من ناحية أخرى . وغالبا ما يبدو لنا أن عملية العلاج لا تعوزها إلا القوة

الحركة اللازمة التى تعينها على أحداث التغيير المطلوب . فى هذه الحال تكون هناك نزعة خاصة أو إحدى المكونات الغريزية على درجة من العنف بحيث تظهر على القوى المضادة التى نستطيع أن نعبئها ضدها . وهذا ما يحدث عادة فى الأمراض العقلية . فنحن نفهم هذه الأمراض فهما يمكننا من أن نعرف أين ينبغى لنا أن نضع « روافعنا » غير أن هذه الروافع لا تقوى على رفع « الثقل » . وأشير فى هذا السياق إلى أن لنا فى الهورمونات وفعلها — وأنتم تعرفونها حق المعرفة — أملا كبيرا يتراءى من آفاق المستقبل . فربما مكنتنا هذه المعرفة ذات يوم من أن ننتصر على العوامل الكمية للمرض نصرا مبينا . غير أن هذا اليوم لم يحن بعد . وأعلم أن مواطن الشك وعدم اليقين التى تغشى هذه الموضوعات من شأنها أن تحفز المحللين على الدأب فى إحكام خطة التحليل ، خاصة فيما يتصل بظاهرة « الطرح » . إن المحلل المبتدئ ، بوجه خاص ، سيكون فى حيرة من أمره حين يخفق : أيعزو إخفاقه إلى عدم حذقه فى تطبيق إجراءات العلاج أم إلى خصائص الحالة التى يعالجها ؟ غير أنى أعتقد ، كما قدمت لكم ، أنه يجب علينا ألا ننخدع بنتائج الجهود التى تبذل فى هذا الاتجاه .

أما العامل الثانى الذى يحد من نجاح التحليل ، فهو نوع المرض نفسه . ولعلكم تعرفون من قبل أن الميدان الذى يمكن أن يطبق فيه العلاج التحليلى هو ميدان «الأعصبة الطرحية »(١) والموجسات(٢) ، وضروب الهستريا ، والأعصبة الحوازية(٣) ، هذا إلى ألوان من الشذوذ الخلقى تنشأ بدل هذه الأمراض . أما غير تلك من أمثال الحالات النرجسية أو الأمراض العقلية فتستعصى على العلاج بقدر قليل أو كبير . وعلى هذا فنحن فى حل من أن نستبعد أمثال هذه الحالات حتى نكون بمنجاة من إخفاق محقق . ولو التزمنا هذا التحوط لزادت نسبة النجاح بالعلاج التحليلى زيادة كبيرة جدا . على أن الأمر ليس من السهولة ما يبدو . ذلك أن التشخيص السليم لا يمكن إبداؤه ، فى أغلب الأحوال ، إلا بعد أن يجرى التحليل . وفى هذا ما يذكرنا بقصة فيكتور هيجو عن الملك الاسكتلندى والاختبار الذى يجريه لكشف الساحرات . فقد كان هذا الملك يصرح بأن لديه طريقة لا تخطئ فى تعرف الساحرات : إذ كان يضع من يشتبه فيهن

---

(١) Transference-neuroses

(٢) Phobias

(٣) Obsessional neuroses

فى مرجل من ماء مغلى ، ثم يذوق المرق فيعرف من طعمه أيتهن الساحرة ! . وهذا بعينه ما يحدث فى حالتنا ، غير أننا نحن الذين نكتوى بالنار . فنحن لا نستطيع أن نصدر حكما على مريض يطلب العلاج ، أو على طالب يلتمس التدريب إلا بعد أن ندرسه دراسة تحليلية لبضعة أسابيع أو بضعة أشهر . أى أننا نشترى البضاعة دائما (بختك رزقك » كما يقولون . إذ يأتينا المريض مثلا بمتاعب عامة غير محددة لا تسمح لنا بأن نشخصها تشخيصا أكيدا ، فنأخذ فى دراسته فترة من الزمن ، قد يتضح بعدها أن حالته لا تناسب العلاج بالتحليل . فإن كان طالبا أخلينا سبيله ، وإن كان مريضا أبقيناه فترة أخرى عسى أن يتسنى لنا أن نستبصر فى حالته خيرا مما فعلنا . وجزاؤنا من المريض فى هذه الحال أنه يساهم بإضافة جديدة إلى قائمة إخفاقنا فى العلاج ، أما الطالب المرفوض فقد يأخذ فى تأليف كتب عن التحليل النفسى إن كان ذا شخصية شبه هجاسية[1] . من هذا ترون أن تحوطنا لا يغنينا كثيرا .

أخشى أن تكونوا مللتم هذه التفاصيل، ويحزننى أكثر من ذلك أن يذهب بكم الظن إلى انى أريد أن أغض من احترامكم للتحليل النفسى من حيث هو طريقة علاجية . فإن ظننتم هذا ، فذلك لأننى ربما لم أكن لبقا فى عرض هذه الناحية ، إذ كنت أقصد — على التحديد — أن أبرهن لكم على أن التحليل إن استعصت عليه حالات معينة ، فليس له من بد وليس عنه غنى فى حالات أخرى . ولهذا الغرض نفسه أريد أن أحدثكم عن لوم آخر يوجه إلى العلاج بالتحليل : إلا وهو طوله المسرف . والجواب على هذا أن التغييرات النفسية لا تحدث إلا على مهل فى بطء شديد ، فإذا هى حدثت سراعا أو على حين فجأة ، كان نذير سوء . نعم إن علاج مرض نفسى خطير قد يستغرق سنوات عدة ، لكنه إن كتب له الشفاء فعليكم أن تسائلوا أنفسكم عن طول بقائه إن لم يؤخذ بالعلاج : أكبر الظن أن السنة الواحدة من العلاج كانت تقابلها عشر سنوات من المرض ، أى أن المرض يظل ناشبا أظفاره فى المريض لا يفارقه على الإطلاق . وهذا ما نراه غالبا فى الحالات التى تترك دون علاج . بل هناك ما يحملنا ، فى أحوال كثيرة ، على أن نستأنف التحليل بعد سنوات عدة من وقفه ، حين تستثير الأحداث الجديدة فى نفس المريض استجابات مرضية أخرى ، مع أنه ظل أثناء هذه الفترة فى تمام صحته .

---

(١) Paramoid

ذلك أن التحليل الأول لم ينفذ بالفعل إلى جميع العوامل المرضية فيستدرجها إلى السطح ويلقى عليها الضوء ، وكان من الطبيعى أن يقف التحليل بمجرد نجاحه . يضاف إلى هؤلاء نفر يهد المرض كيانهم هدا ، فلا بد أن يظلوا فى رعاية التحليل طول حياتهم ، يستأنفون العلاج بين حين وآخر ، ومن دون هذه الرعاية لا يكون لهم قبل بالحياة إطلاقا . فلا شك أنها مأثرة للتحليل النفسى أن يحول بينهم وبين القعود التام بفضل العلاج الدورى المتكرر . ومما يستنفد علاجه وقتا طويلا أيضا ، تحليل اضطرابات الخلق ، لكنه يكلل غالبا بالنجاح . وأسائلكم هنا:أفى وسعكم أن تطالعونى بطريقة أخرى تستطيع أن تجد لهذه المشكلة حلا (أى مشكلة اضطراب الخلق) فضلا عن محاولة حلها ؟ إن طموحنا فيما يتصل بالعلاج قد لا يجعلنا نقنع بهذه النتائج ، غير أن لدينا فى السل ومرض الذئب مثالين نتعلم منهما أن العلاج لا يكلل بالنجاح إلا حين يكيف لطبيعة المرض .

لقد قدمت لكم أن التحليل النفسى كان فى بدايته طريقة من طرق العلاج ، لكنى لم أرد أن أستثير اهتمامكم به من أجل هذه الناحية وحدها ، بل ولما ينطوى عليه من حقائق ، وما يزودنا به من معلومات ذات خطر بالغ فيما يمس الإنسان ويتصل به اتصالا وثيقا : أعنى طبيعته الخاصة . هذا إلى جانب الصلات التى أماط عنها اللثام بين النواحى المختلفة للنشاط الإنسانى . أما من حيث هو طريقة للعلاج ، فهو طريقة بين طرق كثيرة ، لكنه بدون شك يحتل مركز الصدارة منها جميعا . ولو لم تكن له قيمة علاجية لما تسنى لنا استخلاصه من علاج المرضى ولما استطاع أن يمضى فى نموه وازدهاره أكثر من ثلاثين عاما .

المحاضرة الخامسة والثلاثون

النظرة إلى الكون

سيداتي وسادتي : لقد كنا نتكلم في المحاضرة السابقة على أمور صغيرة مما يشغلنا في تنظيم حياتنا الخاصة المتواضعة ، على أننا سنخطو هذه المرة خطوة جريئة فنغامر بالإجابة على سؤال كثيرا ما تردد في غير دوائر التحليل وهو : هل يسلم بنا التحليل إلى نظرة خاصة إلى الكون ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما تلك النظرة ؟

أعني « بالنظرة إلى الكون »[1] إنشاء ذهنيا يستطيع أن يزودنا بحل موحد لجميع مشكلات وجودنا عن طريق مبدأ عام شامل ، فهو إنشاء لا يترك مسألة إلا تناولها ، ولا يذر شيئا مما نهتم له إلا وشمله في ثناياه . ومن الجلي أن الوقوع على مثل هذه « النظرة » من الرغبات المثلى التي تصبو إليها الإنسانية . إذ متى آمن الإنسان بها ، شعر بالأمن والطمأنينة في حياته ، وعرف ما يجب عليه أن يسعى من أجله ، وكيف ينبغي له أن ينظم عواطفه وميوله ويوجهها إلى خير مقصد .

وإذا كان هذا ما يراد « بالنظرة إلى الكون » ، لم يشق على التحليل النفسي أن يجد جوابا للسؤال السابق . فالتحليل النفسي باعتباره علما متخصصا وفرعا من علم النفس — فهو علم نفس الأعماق أو علم نفس اللاشعور — ليس خليقا على الإطلاق أن يكون لنفسه نظرة إلى الكون خاصة به ، بل يتعين عليه أن يأخذ بالنظرة التي يقدمها له العلم . غير أن النظرة التي يرتئيها العلم تختلف عن التعريف الذي قدمناه اختلافا بينا . صحيح أن العلم يأخذ بمبدأ التفسير الموحد للكون ، لكن باعتباره برنامجا يرجأ تحقيقه للمستقبل . كذلك يتميز العلم بخصائص سلبية فهو يقتصر على ما يمكن معرفته في

---

[1] هذا الاصطلاح ترجمة للكلمة الألمانية « Weltanschauung » التي يقول المؤلف إنها فكرة ألمانية يصعب ترجمتها إلى أية لغة أخرى . وأن أي تحريف لها يبدو غير واف .

(المترجم)

وقت معين ، ويرفض بعض العناصر الغريبة عنه رفضا باتا . وهو يقرر أن معرفة الكون لا يمكن أن تصدر إلا عن المعالجة الفكرية لملاحظات تحقق فى عناية — وهذا ما يسمى بالبحث — وليس ثمة معرفة يمكن أن نظفر بها عن طريق المكاشفة(١) أو الحدس(٢) أو الإلهام(٣) . ويبدو أن هذه النظرة إلى الأمور كادت تحظى بقبول عام خلال القرن الماضى أو القرنين الماضيين ، وبقى على القرن الحاضر أن يعترض بأن مثل هذه النظرة إلى الكون جوفاء لا ترضى النفس ، وأنها تتغاضى عن جميع المطالب الروحية للإنسان وعن حاجات النفس البشرية بأسرها .

لا يسعنا أن نرد هذا الاعتراض بأعنف مما ينبغى ، لكنه اعتراض لا يمكن تأييده لحظة واحدة ، لأن الروح والنفس من الموضوعات التى يعالجها البحث العلمى كما يعالج الموضوعات الطبيعية الأخرى على حد سواء . وللتحليل النفسى حق خاص يخول له أن يتكلم فى هذا الصدد باسم النظرة العلمية إلى الكون ، لأنه لا يمكن أن يتهم بإهمال الجانب الذى تحتله النفس فى إطار الكون . بل إن ما أفضى به التحليل النفسى إلى العلم يتلخص على التحديد فى أنه بسط البحث العلمى حتى تناول مجال النفس . ولا شك أن العلم كان يكون أبتر ناقصا إلى حد بعيد لو خلا من مثل هذه الدراسة النفسية . على إننا إن أدرجنا فى إطار العلم دراسة الوظائف العقلية والوجدانية للإنسان (والحيوان) ، لم يتغير الوضع العام للعلم فى شىء ، ولم نقع على مصادر جديدة للمعرفة أو مناهج جديدة للبحث : ولو كان ثمة وجود فعلى للحدس والإلهام لكان فى وسعهما أن يزودانا بمثل هذه المصادر والمناهج ، لكنا نستطيع أن ندرجهما من غير حرج فى عداد الظواهر الخداعة والتحقيق الخيالى للرغبات . وفضلا عن هذا لا يشق علينا أن نرى أن الحاجة إلى اصطناع نظرة إلى الكون حاجة تقوم على أساس وجدانى محض . فالعلم يشهد أن النفس الإنسانية تخلق أمثال هذه المطالب ، وهو على استعداد لأن يردها إلى مصادرها ، لكنه لا يملك أو هى دليل يحمله على الظن بصوابها . بل هو على العكس يميز فى دقة وعناية بين المعرفة وبين جميع ما ينتج عن أمثال هذه المطالب الوجدانية وما هو وهم وخداع .

بيد أن هذا لا يعنى على الإطلاق إننا نريد أن نزدرى هذه الرغبات أو أن نغض من خطرها فى حياة الناس ، بل نحن على استعداد لأن نبين ما أفضت به إلى الإبداع الفنى ،

---

(١) Revelation (٢) Intuition (٣) Inspiration

وإلى نظم الفلسفة والدين . ومع هذا لا يسعنا أن نغفل عن أن إقحام هذه الرغبات فى ميدان المعرفة العلمية أمر خاطئ غير مشروع . ولو فعلنا ، فتحنا الباب الذى يسلم إلى مجال الأمراض العقلية — سواء كانت أمراضا فردية أم جمعية — وانتزعنا من هذه النزعات طاقة ذات قيمة تكون موجهة شطر عالم الواقع ، وتلتمس عن طريق الواقع إشباع رغبات وحاجات على قدر ما تستطيع .

إن وجهة نظر العلم تحتم علينا فى هذا الصدد أن نحشد ما لدينا من قوى للنقد ، وألا نتهيب من أن نرفض وأن ننكر وندحض . وليس من الجائز أن نقول إن العلم ليس إلا فرعا من فروع النشاط الذهنى للإنسان ، وإن الدين والفلسفة فرعان آخران لهما من القيمة ما للعلم على الأقل ، وليس من شأن العلم أن يتدخل فى شئونهما . فعلى هذا النحو يكون لكل من العلم والدين والفلسفة أنصبة متساوية فى ميراث الحقيقة ، ويستطيع كل فرد أن يختار معتقداته وأن يوجه إيمانه حرا من غير قيد . ولا شك أن مثل هذا الاتجاه يعتبر إلى حد كبير متسامحا واسع الأفق ، متحررا من كل تشيع ضيق ، لكنه للأسف اتجاه لا يمكن سنده والدفاع عنه ، فهو ينطوى على كل المساوئ التى تتسم بها نظرة غير علمية إلى الكون ، كما يكون نظيرها من الناحية العملية . الواقع أن الحقيقة لا يمكن أن تقبل التسامح ، ولا يجب أن تقبل القيود أو الحلول الوسطى ، وأن البحث العلمى يرى أن ميادين النشاط الإنسانى بأجمعها ملكه الخاص ، ومن ثم يتعين عليه أن يتخذ موقفا ناقدا لا يلين إزاء أية قوة أخرى تطمع فى أن تغتصب جانبا من مجاله .

والدين وحده هو الخصم الخطير من بين القوى الثلاث التى تتنازع مكانة العلم . فأما الفن فيكاد يكون على الدوام خيرا لا ضرر منه ، ولا يرجو أن يخرج عن نطاق الوهم والخداع . وهو لا يجرؤ البتة أن يطغى على عالم الواقع إلا عند نفر قليلين . ممن يستحوذ عليهم شيطان الفن ، إن جاز التعبير . وأما الفلسفة فلا تعارض بينها وبين العلم ، بل إنها تصرف شئونها كما لو كانت علما من العلوم ، كما إنها تستخدم مناهجه نفسها أحيانا . غير أنها تفترق عن العلم فى أنها تتوهم أن فى وسعها أن ترسم للكون صورة مكتملة ملتئمة ، وهى صورة لا بد أن تنهار وتنفك عند كل خطوة جديدة تتقدمها المعرفة ، ويتلخص خطؤها المنهجى فى أنها تغلو فى تقدير قيمة عملياتنا المنطقية من حيث هى أدوات للمعرفة ، وفى إنها تسلم إلى حد ما بصدق مصادر أخرى للمعرفة ، كالحدس مثلا . حتى إن المرء كثيرا ما يشعر بأن الشاعر (هنرى هينه) كان

على حق حين قال عن الفيلسوف :

« يرتق الثغرات فى بناء الكون
وهو فى قلنسوة النوم وفى أسمال بالية »

غير أن الفلسفة ليس لها تأثير مباشر فى العالبية العظمى من الناس ، ولا يحفل بها إلا نفر قليل من الطبقة الرقيقة العليا للمفكرين أنفسهم ، على حين يراها سائرهم بعيدة المنال . لكن الدين ، على نقيض الفلسفة ، قوة هائلة تتحكم فى أقوى الانفعالات عند الإنسان . ولعلنا نعرف إنه كان يحتضن فى الماضى كل شيء يقوم بدور فى الحياة النفسية للإنسان ، وأنه كان يحتل مكان العلم يوم لم يكن ثمة علم أو يكاد . هذا إلى أنه أقام نظرة إلى الكون على درجة لا نظير لها من التماسك والالتئام . وهى نظرة لا تزال باقية إلى يومنا هذا بالرغم مما أصابها من هزات عنيفة .

ولئن أراد المرء أن يكون لنفسه فكرة صحيحة عن عظمة الدين وسلطانه ، فعليه أن يتصور ما يتكفل للناس بعمله : فهو ينبؤهم عن أصل الكون وخلقه ، ويضمن لهم السعادة النهائية والحماية الإلـٰهية من صروف الحياة وتقلباتها ، كما أنه ينظم أفكارهم ويهديهم فى أعمالهم بتعاليم يساندها كل ما له من قوة ونفوذ . أى أنه يقوم بوظائف ثلاث . فهو أولا يرضى حاجة الإنسان إلى المعرفة والاستطلاع . وهنا يقوم بمثل ما يحاول أن يقوم به العلم عن طريق مناهجه الخاصة ، لذا فهو يصطدم بالعلم ويصطرع معه فى هذه الناحية . أما الوظيفة الثانية فيدين لها الدين من دون شك بأكبر قسط من سلطانه . فالعلم لا يستطيع أن يبارى الدين حين يقوم الدين فيعاهد الإنسان على تبديد مخاوفه من صروف الحياة وأخطارها ، وحين يضمن له خاتمة سعيدة ويعزيه فيما يحيق به من مصائب ومتاعب . صحيح أن العلم يعلم الإنسان كيف يتقى بعض الأخطار ، وكيف يظهر على كثير من آلامه ظهورا موفقا : ومن الخطأ البعيد أن ننكر أن العلم عون قوى للناس ، غير أنه يرى نفسه مضطرا فى كثير من الأحوال إلى أن يتركهم لآلامهم ، ولا يسعه إلا أن ينصح لهم بالتسليم للمحتوم الذى ليس منه بد . وتزداد الشقة بين الدين والعلم اتساعا حين يقوم الدين بوظيفته الثالثة أى حين يفرض على الناس تعاليمه وما إليها من قيود ومحظورات . ذلك أن العلم يقنع بالكشف عن الوقائع وتقريرها ، ومع إنه يستخلص وصايا وقواعد للسلوك تكون شبيهة أحيانا بما ينصح به الدين غير أن أسبابها والدوافع إليها تكون مختلفة فى هذه الحال .

لا يتضح لنا فى جلاء لم يجمع الدين بين هذه الوظائف الثلاث ، إذ ما الصلة بين قصة خلق الكون وبين وجوب الامتثال لبعض القواعد الأخلاقية ؟ الواقع أن تكفل الدين بسعادة الإنسان ، وحفظه من السوء أوثق صلة بهذه السنن والقواعد ، إذ هما جزاء من ينفذ هذه الأوامر : فمن أطاع نعم بهذه المزايا ، ومن خالف عنها حق عليه العقاب . على أن لهذه الحال بعض الشبه بما يحدث فى العلم ، فمن لم يحفل بنتائجه وقضاياه عرض نفسه للضرر والأذى .

ليس فى مقدورنا أن نفهم هذا الجمع الغريب بين تعليم الإنسان وتعزيته وفرض الفروض عليه إلا إذا عرضنا له بتحليل يتناوله من بدء نشأته . ولنبدأ بأغرب جانب من هذه الجوانب الثلاثة وهو تعريف الإنسان بأصل الكون ترى لم تشتمل النظم الدينية دائما على عنصر يتصل بخلق الكون وتكوينه ؟ . فلننظر أولا فيم يتلخص هذا المذهب : إن الكون من خلق كائن يشبه الإنسان ، لكنه أعظم منه من كل الوجوه ، فهو أقوى منه جانبا ، وأكثر حكمة ، وأشد بطشا ، وعلى الجملة فالكون من خلق إنسان مثالى أسمى . أما حين يكون خالق الكون حيوانا من الحيوانات ، فهذا ينم عن تأثير « الطوطمية » (Totemism) التى سأشير إليها فيما بعد . ومن الطريف أن نلاحظ أن خالق الكون يكون على الدوام إلـٰها واحدا حتى حين يعتقد القوم بعدة آلهة . يضاف إلى هذا أن الخالق يكاد يكون على الدوام ذكرا ، ولو أن الأدلة لا تعوزنا على وجود معبودات من النساء . وفى كثير من الأساطير أن خلق العالم بدأ بإلـٰه ذكر ، على التحديد ، ينتصر على إلـٰهة أنثى يسخطها ويمسخها مسخا . إنه موضوع يستثير مسائل ثانوية على أكبر جانب من الروعة ، لكنا يجب أن نمضى سراعا . أما سائر بحثنا هذا فييسره أن ذلك الإلـٰه الخالق يدعى صراحة « بالأب » . ولقد قال التحليل النفسى كلمته فيه إذ استخلص أنه الأب حقا ، يكسوه ذلك الجلال الذى يبدو به فى عين الطفل الصغير . أى أن الإنسان المتدين يتصور خلق الكون على غرار تصوره لخلقه هو .

فإذا كان الأمر كذلك ، لم يشق علينا أن نفهم كيف جمع الدين بين خلق الكون وبين الأوامر الأخلاقية الصارمة وتلك الوعود المطمئنة عن حماية الإنسان وحفظه من السوء . ذلك أن الشخص الذى يدين له الطفل بوجوده ، وهو الأب (أو بعبارة أدق ، الوظيفة الوالدية التى تؤلف من الأب والأم) هو بعينه من كان يتعهد الطفل الضعيف بالحماية ، ويسهر عليه ألا يتعرض لما يزخر به العالم الخارجى من مخاطر ،

ومن ثم كان الطفل يشعر فى كنفه بالأمن والطمأنينة . وحتى الراشد الكبير الذى يعرف أنه أشد بأسا من الطفل وأنه أبصر بمخاطر الحياة ، لا يزال يشعر فى قرارة نفسه أنه من العجز وقلة الحيلة ما كان فى طفولته ، وأنه فى صلته بالعالم الخارجى لا يزال طفلا . لذا فهو لا يستطيع حتى فى سنه الحاضرة أن يتخلى عن تلك الحماية التى كان ينعم بها وهو طفل صغير . غير أنه يدرك — منذ حين — أن أباه كائن محدود القوى وأنه ليس جماع الصفات المحمودة المرغوبة ، فإذا به يتلفت إلى ذكرى أبيه المعظم كما كان يراه فى طفولته ، فيرفعها إلى صف الآلهة ، ويستحضرها من الماضى والخيال إلى الحاضر والواقع . وأن ما تنطوى عليه تلك الذكرى من قوة وجدانية ، وحاجته الدائمة إلى الحماية هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما اعتقاده بالله .

أما ثالث الأركان الرئيسية فى برنامج الدين ، وهى التعاليم الأخلاقية ، فليس من العسير ربطها ، هى الأخرى ، بموقف الطفولة . لقد قال الفيلسوف كنط (Kant) فى عبارة مشهورة إن أقوى دليل على عظمة الله هى السماء ذات النجم التى تعلونا والقانون الخلقى الذى تنطوى عليه ضمائرنا . والحق أنها مقاربة غريبة : إذ ما صلة الأجرام السماوية بعاطفة شخص نحو آخر تحمله على حبه أو تدفعه إلى قتله ؟ . ومع هذا فعبارة كنط تمس حقيقة نفسية كبرى . ذلك أن الأب (أو الوظيفة الوالدية على الأصح) الذى ينجب الطفل ويحفظه من مخاطر الحياة ، هو كذلك من يعلمه ما يجب عمله وما ينبغى له تركه ، ومن يجعله يذعن لبعض القيود التى تحد من رغباته الغريزية ، ومن يخبره بما يجب عليه من احترام لوالديه وإخوته وأخواته إن كان يريد أن يعيش مقبولا محبوبا من أفراد أسرته ، ومن الجماعات الواسعة التى ستحيط به فيما بعد . والطفل ينشأ على معرفة واجباته الاجتماعية عن طريق ألوان من الثواب والعقاب ، ويتعلم أن أمنه فى الحياة مرهون بمحبة أبويه له (وبمحبة غيرهم فيما بعد) كما هو مرهون باعتقادهم فى محبته إياهم . فإذا ما كبر ونضج حمل هذه الأوضاع والشئون جميعها فى ثنايا دينه من دون أن يصيبها تغيير . فالمحظورات والالتزامات التى فرضها أبواه تبقى فى نفسه على صورة ضميره الخلقى . كذلك يهيمن الله على دنيا الناس بألوان من الثواب والعقاب هى عين ما يجازى به الطفل : فما يحظى به كل فرد من نعيم وحماية رهن بتنفيذه قوانين خلقية وأن محبته لله وإيمانه بحب الله إياه هما ما يزودانه بالقوة والشعور بالأمن فى كفاحه الأخطار التى تتهدده بها الطبيعة والناس . وأخيرا فله فى العبادة تأثير مباشر فى الإرادة

السماوية ، وله فيها ما يكفل له نصيبا من القدرة الإلٰهية .

أنا على ثقة أن طائفة بأسرها من الأسئلة كانت لا بد تزحم أذهانكم وأنتم تستمعون إلى ، لكنى لا أستطيع أن أرضى استطلاعكم فى هذه الساعة وفى هذا المكان . بيد أنى على يقين تام من أن أحدا من هذه الأسئلة لا يستطيع أن يزعزع اعتقادنا بأن نظرتنا الدينية إلى الكون متحتمة بموقفنا فى عهد الطفولة . ومما يبدو أشد غرابة من ذلك أن نكتشف أن هذا الموقف ، بالرغم من طابعه الطفلى ، كان يسبقه موقف آخر . فلا مراء فى أن الإنسان أتى عليه حين من الدهر لم تكن فيه أديان ولا آلهة ، وهذا ما يعرف بعصر الأحيائية[1] . فى هذا العصر كانت الدنيا تزخر بأرواح على هيئة أناس (هم من نسميهم الجان) . وكانت هذه الأرواح تسكن جميع الأشياء المبثوثة فى العالم الخارجى ، أو ربما كانت تتقمص هذه الأشياء . لكن الإنسان لم يكن يعتقد إذ ذاك بوجود خالق عام أو قوة مهيمنة يمكن الالتجاء إليها طلبا للعون والحماية . بل لقد كانت الجان فى عصر الأحيائية أعداء تناصب الإنسان عادة ، لكن يبدو أن الإنسان كان فى ذلك العصر أكثر وثوقا بنفسه منه فيما بعد . ولا شك أنه كان فى رعب دائم من هذه الأرواح الخبيثة ، لكنه كان يتقيها بأفعال معينة يعزو إليها القدرة على طرد هذه الأرواح . على أنه لم يكن يعتبر نفسه عاجزا كل العجز عطلا من كل قدرة ، فكان إذا أراد شيئا من الطبيعة — كالمطر مثلا — لم يتوسل بالصلاة إلى « إلٰه الجو » ، بل ينطق برقية يعتقد أنها تؤثر تأثيرا مباشرا فى الطبيعة ، وكان نفسه يعمل شيئا يحاكى المطر ، فكان السحر أول سلاح استخدمه فى نضاله قوى الطبيعة المحيطة به . لذا يمكن اعتبار السحر أول طليعة لفن الصنائع[2] الحديث . ونعتقد أن ذلك الإيمان بالسحر مشتق من غلوه فى تقدير فعل خواطره وتأثيرها ، من اعتقاده أن النيات قادرة على كل شيء — وهذه ظاهرة نلتقى بها اليوم عند المصابين بالوسواس . ولنا أن نتصور أن الإنسان فى ذلك العصر كان يعجب بقدرته على الكلام ، وهى قدرة لا شك فى أنها كانت تيسر له التفكير تيسيرا كبيرا . فكان يعزو إلى الكلمة المنطوقة قوة سحرية ، وتلك سمة ورثتها عنه الديانات فيما بعد . « قال الرب : ليكن هناك نور فكان النور » . على أن اصطناع الإنسان الأحيائى للأفعال السحرية يشير إلى أنه لم يكن يعتمد الاعتماد كله على قوة

---

(١) Animism   (٢) Technology

رغباته الخاصة ، بل كان على العكس يتوقع تحقيق رغباته بأن يقوم بأفعال تحمل الطبيعة على محاكاتها . فإن كان يريد الغيث ، سكب ماء بنفسه ، وإن كان يريد الخصب للأرض ، قام بالعملية الجنسية فى الحقول .

تعرفون أن الإنسان إن اتفق له ذات يوم أن يعبر عن شىء تعبيرا نفسيا ، نزع هذا الشىء إلى البقاء ولم يزل فى سهولة . فلا تعجبوا إذن إن عرفتم أن كثرة من مظاهر الأحيائية لا تزال باقية إلى اليوم بجانب الدين أو من وراء ستاره (خاصة فى صورة ما يسمى بالخرافات والأباطيل) بل هنالك ما هو أكثر من ذلك ، إذ يشق علينا ألا نرى أن فلسفتنا قد احتفظت بسمات جوهرية من الأساليب الأحيائية للتفكير : كالغلو فى تقدير سحر الألفاظ ، كالاعتقاد بأن أفكارنا توجه ظواهر العالم الخارجى وتهيمن عليها . ومن الجلى أن هذه إحيائية بغير إجراءات سحرية . ومن جهة أخرى ليس ثمة ما يمنعنا من الاعتقاد بوجود نظام خلقى معين وبعض القواعد التى تحدد الصلات المتبادلة بين الناس ، منذ عصر الإحيائية . لكن ليس هناك ما يدل على أن ذلك النظام وتلك القواعد كانت ترتبط ارتباطا وثيقا بالعقائد الإحيائية . وأكبر الظن أنها كانت نتيجة مباشرة لتوزيع القوى ولضرورات عملية .

حبذا لو تسنى لنا أن نعرف ماذا حمل الإنسان على أن ينتقل من الإحيائية إلى الديانة ، لكن هذه العصور البدائية من تاريخ النفس الإنسانية لا يزال يغشاها الغموض إلى حد كبير . ومن الثابت — فيما يبدو — أن أول صورة ظهر بها الدين كانت تلك الصورة العجيبة التى تسمى « بالطوطمية »[1] أى عبادة الحيوانات ، وفى أثرها ظهرت أولى الأوامر الأخلاقية التى تسمى « بالطابو »[2] . ولقد ذهبت فى كتابى المسمى « الطوطم والطابو » إلى أن ذلك التحول يرجع إلى انقلاب فى الصلات فى نطاق الأسرة الإنسانية . على أننا لو قارنا الدين بالأحيائية ، لكان أهم ما قام به الدين أنه اعتقل الخوف من الجان ودرأه عن نفس الإنسان . ومع هذا ما تزال الأرواح الخبيثة تحتل مكانا فى النظام الدينى كأثر من آثار العصر السابق .

حسبنا هذا القدر عن العهد السابق لتاريخ النظرة الدينية إلى الكون . فلنعد الآن

---

(١) Totemism

(٢) (Taboos) وتترجم أحيانا بالمحرمات أو باللامساس .

لنرى ما حدث منذ ذلك الحين وما يزال يجرى بأعيننا إلى اليوم — لقد أخذت الروح العلمية على مر الزمن — تساندها ملاحظة الظواهر الطبيعية — أخذت تعالج الدين كأنه مسألة إنسانية وتخضعه للتمحيص والنقد . فلم يستطع الدين أن يقاوم هذا الاختبار من عدة وجوه . أولها أن المعجزات أثارت شعورا بالدهش وعدم التصديق لأنها تنقض كل ما تعرفنا به الملاحظات الرشيدة الرزينة ، ولأنها تحمل طابع الخيال الإنسانى فى وضوح وجلاء . الوجه الثانى أن وصف الدين لخلق الكون كان لا بد من رفضه ، لأنه دل على قصور فى المعرفة يحمل طابع العصور الخوالى ، ولأن الاستبصار المطرد بقوانين الطبيعة جعل هذا الوصف يفقد نفوذه وتأثيره . فالفكرة التى تذهب إلى أن الكون ظهر إلى حيز الوجود عن طريق عملية تولد أو خلق شبيهة بالعملية التى تخرج كائنا بشريا ، لم تعد تبدو أكثر بداهة وبيانا بذاتها ، لأن التمييز بين الكائنات الحية الحساسة وبين الطبيعة غير الحية أصبح واضحا للعقل البشرى ، وحال دون الإبقاء على النظرية الأحيائية الأصلية . وفضلا عن هذا فقد كان للدراسة المقارنة للنظم الدينية المختلفة أثر يجب ألا نغفل عنه ، وهو أن هذه النظم توحى بالتعصب وبأن بعضها يتنافى مع بعض تنافيا متبادلا .

ولما اشتد أزر العلم بهذه الجهود التمهيدية ، استجمع شجاعته آخر الأمر ليمتحن أهم العناصر وأكثرها دلالة من الناحية الوجدانية ، فى النظرة الدينية إلى الكون ، وهى : إسعاد الإنسان وحفظه من السوء إذا هو امتثل لقوانين أخلاقية معينة . لقد كان من الممكن أن يشك فى صحة هذه الوعود فى أى عصر من العصور ، لكن أحدا لم يجرؤ على الجهر بذلك إلا بعد زمن طويل . فمما يجانب الواقع فيما يبدو ، أن فى الكون قوة تسهر على خير كل فرد ، وترعاه رعاية والديه ، وتهون عليه متاعبه وتهيئ له نهاية سعيدة . والأدنى إلى الصواب أن ما نراه فى حظوظ الناس يتنافى مع وجود مبدأ عام للخير أو مبدأ عام للعدل — وإن كان هذا المبدأ الأخير يتنافى إلى حد ما مع مبدأ الخير . فالزلازل والسيول والنيران لا تفرق بين الخير الورع التقى وبين الآثم الجاحد . وحتى إذا صرفنا النظر عما يحيق بالإنسان من الطبيعة غير الحية ، ورأينا إلى حظوظ الناس بقدر ما هى مرتهنة بصلاتهم مع غيرهم من الناس ، لم نر على الإطلاق أن القاعدة هى إثابة الفضيلة وعقاب الرذيلة ، بل نجد على الأغلب أن المحتالين والعتاة وأخساء المبادئ هم من يبتزون طيبات الأرض لأنفسهم ، على حين يذهب الأتقياء الصالحون فارغى

الوطاب . فالمتحكم فى حظوظ الناس قوى غامضة جافية لا تحس . أما شريعة العقاب والثواب التى يقول الدين إنها تهيمن على العالم ، فيبدو ألا وجود لها. وهذا سبب آخر يدعو إلى إطراح جانب من تلك الأحيائية التى وجدت لنفسها معتصما فى الدين .

وقد كان التحليل النفسى آخر من تصدى بالنقد للنظرة الدينية إلى الكون ، إذ رد أصل الدين إلى عجز الطفولة وقلة حيلتها ، كما رد مضمونه إلى بقاء رغبات الطفولة وحاجاتها حتى سن النضج . وهذا لا يتضمن على التحديد دحض الدين ، لكنه تهذيب ضرورى لمعلوماتنا عنه . على أننا لا نتناقض مع الدين إلا حين يدعى أنه ذو أصل إلٰهى . والحق أنه لا يكون ادعاء باطلا إذا قبل الناس تفسيرنا الألوهية .

ولنلخص الآن حكم العلم على النظرة الدينية إلى الكون : بينما تتنازع الأديان المختلفة ويدعى كل منها أن الحقيقة حكر له وحده ، نرى أنه يمكن التجاوز إطلاقا عن جانب الحقيقة الذى يحتويه الدين . فالدين محاولة للتحكم فى العالم المادى الذى نعيش فيه عن طريق عالم الرغبات الذى خلقناه فى أنفسنا نتيجة لضرورات بيولوجية ونفسية . غير أنه لا يفلح فى هذه المحاولة ، فتعاليمه مدموغة بطابع الأزمنة التى نشأت فيها : وهى عهود الطفولة البشرية وجهلها . كما أن ما يعد به من تعزية ومؤاساة غير خليق بالثقة . إذ تعلمنا الخبرة أن العالم ليس دار حضانة للأطفال . أما الأوامر الأخلاقية التى يحاول الدين أن ينفث فيها من روحه ففى حاجة إلى دعامة أخرى بدلا منه ، لأن المجتمع الإنسانى لا يستطيع أن يستغنى عنها ، ومن الخطر أن تربط إطاعتها بالعقيدة الدينية . إننا إن حاولنا أن نحدد للدين مكانه فى تاريخ تطور الإنسانية لم يبدُ أنه كسب خالد بقدر ما يبدو أنه نظير للمرض النفسى الذى لا بد أن يجتازه الإنسان المتحضر وهو يتطور من الطفولة إلى سن النضج .

لكم بطبيعة الحال مطلق الحرية فى أن تعرضوا بالنقد للبيان الذى قدمته لكم ، بل أستطيع نفسى أن أزودكم ببعض ما يمكن أن تحتجوا به . من ذلك أن ما قدمته عن الانقضاض التدريجى للنظرة الدينية إلى الكون كان من دون شك موجزا غير مكتمل للقصة بأسرها . كما أنى لم أكن دقيقا فى مراعاة الترتيب الزمنى للوقائع المختلفة ، هذا إلى أنى لم أدرس كيف تضافرت القوى المختلفة على إيقاظ الروح العلمية . كذلك لم أحدثكم عن التحويرات التى لحقت بالنظرة الدينية إلى الكون إبان الفترة التى كانت فيها ذات نفوذ لا ينازع ، وبعد ذلك حين أخذت تتأثر بروح النقد المستيقظ . وأخيرا لقد قصرت

ملاحظاتى فى الحق على طراز واحد من الدين . هو دين الشعوب الغربية . من أجل هذا قد تأخذون على أنى قدمت لكم الموضوع بصورة من شأنها أن تجعل استعراضه سريعا ومؤثرا بقدر المستطاع . وبصرف النظر عما إذا كانت معرفتى به من الكفاية ما يسمح لى بعرضه على وجه أفضل من هذا وأكمل ، فأنا أعرف أنكم تستطيعون أن تجدوا كل ما قلت مبسوطا على نحو أحسن فى غير هذا الكتاب ، كما أعرف أنى لم أطالعكم بأية فكرة جديدة . غير أنى مقتنع كل الاقتناع أن أدق دراسة للمادة التى ترتكز عليها مشكلات الدين لا تستطيع أن تزعزع النتائج التى وصلنا إليها .

تعرفون أن الصراع بين الروح العلمية والنظرة الدينية إلى الكون لم ينته بعد ، بل لا يزال مستعرا أمام أعيننا إلى اليوم . ومع أن التحليل النفسى لم يألف أن يصطنع أسلحة الجدل إلا فى القليل النادر ، فلن نحرم أنفسنا لذة المساهمة فى هذا الصراع . وربما كان من شأن هذا أن يزداد موقفنا من النظرة إلى الكون جلاء ووضوحا . سترون أن بعض الحجج التى يدلى بها أنصار الدين ليس من العسير تفنيدها ، ولو أن بعضها يفلح فى الإفلات من الدحض والتفنيد .

إن أول اعتراض يقرع الأذن هو أن من التوقح أن يتخذ العلم الدين موضوعا من موضوعات بحثه . فالدين شىء سام جليل ، يعلو على ما لدى الإنسان من قدرة على الفهم والإدراك ، شىء لا ينبغى له أن تتناوله مغالطات النقد . وبعبارة أخرى فالعلم ليس أهلا للحكم على الدين . وليس من شك فى أن العلم شىء نافع وذو قيمة كبرى ما ظل منحصرا فى نطاقه الخاص به ، لكن الدين لا يندرج فى هذا النطاق ، فليس للعلم شأن به — أما نحن فإن لم نلق إلى هذا النبذ الغليظ بالا ، وتساءلنا عن الأسس التى يقيم عليها الدين دعواه كى يحتل مكانة ممتازة من شئون الناس ، كان الجواب الذى نتلقاه — إن كان لنا الشرف أن نتلقى جوابا على الإطلاق — أن الدين لا يمكن أن يقاس بمعايير إنسانية ، لأنه ذو أصل إلٰهى ، كاشفتنا به « روح عليا » ليس فى وسع العقل البشرى أن يدركها . والحق أنها حجة ليس هناك أسهل من تفنيدها . فهى مغالطة واضحة تسمى فى عرف المناطقة « بالمصادرة على المطلوب » ذلك أن موضع التساؤل يتلخص فيما إذا كانت هناك روح إلٰهية ومكاشفة ، فهل من الرأى أن يجاب عن هذا بأنه تساؤل لا محل له لأن الألوهية لا يمكن أن تكون موضع تساؤل ؟ . وفى هذا ما يذكرنا بما يحدث أحيانا أثناء إجراءات التحليل حين ينكر أحد المرضى الأذكياء تأويلا من

التأويلات التى تدلى بها إليه ، ويبنى إنكاره على أسس سخيفة بوجه خاص . فهذا المنطق الأبتر يشهد بوجود دافع قوى بوجه خاص يحمله على الإنكار . وهو دافع لا يمكن أن يكون إلا من نوع وجدانى ، يقوم على انفعال معين .

وقد يكون الجواب من طراز آخر يعترف فيه صراحة بمثل هذا الدافع : فالدين لا ينبغى له أن يخضع للنقد لأنه أسمى شيء تمخضت عنه نفس الإنسان وأكثره قيمة ونبلا ، ولأنه يفصح عن أعمق المشاعر ، وهو بعد الشيء الوحيد الذى يجعل الدنيا محتملة ويجعل الحياة جديرة بالإنسانية . وهذا جواب لسنا فى حاجة إلى الرد عليه بأن نناقش تقديره للدين ، بل الأجدر أن نوجه اهتمامنا إلى ناحية أخرى من الموضوع : فلنذكر أن الروح العلمية لا تحاول على الإطلاق أن تبغى على حدود الدين ، بل إن الدين هو الذى يتجاوز حدوده ويقتحم نطاق التفكير العلمى . ومهما يكن للدين من شأن ووزن ، فليس له الحق فى أن يقيد الفكر ويرسم له حدودا البتة ، ومن ثم فليس له الحق فى أن يستثنى نفسه من أن تطبق عليه موازين الفكر .

إن التفكير العلمى لا يختلف فى جوهره عن التفكير العادى الذى نستخدمه جميعا فى شئوننا اليومية وحياتنا الجارية سواء كنا مؤمنين بالدين أم غير مؤمنين . وهو لا يتميز عن التفكير العادى إلا من بضعة وجوه : فهو يهتم بدراسة موضوعات ليست ذات فائدة مادية مباشرة ، ويجهد فى استبعاد العوامل الشخصية والمؤثرات الوجدانية ، كما أنه يفحص المدركات المحسة التى يبنى عليها نتائجه فحصا دقيقا ليستوثق من صدقها واستقامتها ، هذا إلى أنه يزود نفسه بمدركات جديدة لا يمكن الظفر بها بالوسائل العادية ، ويعزل العوامل التى تؤثر فى هذه الخبرات الجديدة بتجارب مختلفة يغيرها عن قصد . وهدفه من هذا كله أن يظفر بمطابقة الواقع أى بمطابقة ما يوجد فى العالم الخارجى مستقلا عن ذوات أنفسنا ، وهو كما علمتنا الخبرة ما يحسم فى تحقيق رغباتنا أو إحباطها . هذه المطابقة للعالم الخارجى هى ما تسمى « بالحقيقة » . وهى ما يهدف إليه كل جهد علمى حتى إن كان غفلا من الفائدة العملية . فإن ادعى الدين أن فى وسعه أن يحتل مكانة العلم ، وأنه يجب أن يكون حقا وصدقا لأنه ينطوى على الخير ويرفع من قدر الإنسان ، فهذه الدعوى هى ، فى الحق ، تجاوز من الدين يجب معارضته من أجل الصالح العام . ذلك أن الإنسان تعلم أن ينظم شئوه اليومية وفق قواعد زودته بها الخبرة ومع مراعاة الوقع . فمن الشطط أن يطلب إليه الدين أن يأتمن على أخص شئونه بالذات

سلطة تدعى أنها تمتاز على غيرها من السلطات بالتحرر من كل قواعد التفكير المعقول .
أما فيما يتصل بتلك الحماية التى يعد بها الدين من آمن به ، فيشق على أن أتصور أن أحدا منا يجرؤ على ولوج سيارة يزهو سائقها بأنه لا يكترث لعلامات المرور ، بل يقودها وفق نزوات يوحى إليه بها خيال مشتط .

الحق أن الحصار الذى فرضه الدين على التفكير ، حفاظا على نفسه ، لا يخلو على التحقيق من خطر يتهدد كلا من الفرد والمجتمع . وقد علمتنا خبرتنا بالتحليل أن ضروب التحريم الدينى ، التى تكون مقصورة فى الأصل على محظورات خاصة ، تنزع إلى أن تمتد وتنتشر ، ومن ثم تصبح مصدرا لألوان من الكف الصارمة فى حياة الناس . وهذا ما نلحظه لدى النساء اللاتى حرم عليهن أن يشغلن أنفسهن ، حتى فى الخيال ، بالجانب الجنسى من طبيعتهن . كما أن سير البارزين من الناس فى العصور الماضية تكاد ترينا جميعها ما ينجم عن تعطيل الدين للفكر من عواقب وخيمة فى حياتهم . ومن جهة أخرى فالعقل هو إحدى القوى التى يرجى منها أن توحد بين الناس — تلك الخلائق التى لا يمكن المواءمة بين بعضها وبعض إلا بشق الأنفس ، والتى يتعذر ضبطها وحكمها من أجل ذلك . تصوروا ما يمكن أن يكون عليه المجتمع الإنسانى لو أن كل واحد من الناس اصطنع جدولا للضرب خاصا به ، أو اتخذ لنفسه وحدات خاصة للأوزان والأطوال ! فحبذا لو تسنى للعقل — الروح العلمية — أن يصبح حاكما بأمره على النفس الإنسانية بعد حين ! هذا هو خير أمل نتطلع إليه فى المستقبل . ذلك أن طبيعة العقل ذاتها تكفل له النجاح فى أن يضع عواطف الإنسان وكل ما يتحتم عنها فى الموضع الذى يليق به . وسيرى الناس حين يمتثلون لسلطان العقل أنه أقوى رباط يربط بعضهم ببعض ، وأنه يمهد الطريق لضروب أخرى من التوفيق بينهم . وإن كل ما يعوق هذا التطور ويعرقله — كالحصار الذى يضربه الدين على الفكر — خطر على مستقبل الإنسانية .

وقد يكون لنا أن نتساءل الآن عما يحدو بالدين ألا ينهى هذه المعركة الخاسرة فيعترف فى صراحة : « صحيح أنى لا أستطيع أن أهبكم ما يسميه الناس فى العادة بالحقيقة . فالسبيل إلى ذلك هو العلم . بيد أن ما أستطيع أن أمنحكم إياه لا يمكن أن يقاس بشىء مما يقدر العلم أن يزودكم به وذلك من حيث ينطوى عليه من جمال وعزاء ورفعة بشأن الإنسان . ومن ثم أقول لكم إنه حق ، لكنه بمعنى آخر أسمى وأرفع » . أما الجواب عن هذا فليس بعسير : إن الدين لا يستطيع أن يدلى بهذا الاعتراف ، ولو فعل

لفقد كل نفوذ له على جمهرة الناس . فالرجل العادى لا يعرف إلا حقيقة واحدة — هى الحقيقة بالمعنى المألوف لهذه الكلمة . وليس فى وسعه أن يتصور ما يقصد بحقيقة أسمى أو بأسمى الحقائق . فالحقيقة فى نظره ، كالموت ، لا يمكن أن تكون على درجات ، كما أنه يعجز عن أن يثب الوثبة اللازمة التى تفصل ما هو جميل عما هو حق . ولعلكم تتفقون معى على أنه مصيب فى ذلك .

فالمعرفة إذن قائمة لم تنته بعد . أما أنصار النظرة الدينية إلى الكون فيأخذون بالحكمة القديمة التى تقول إن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، ويتساءلون : « وما هذا العلم الذى يغض من شأن الدين ! ألم يكن الدين خلاصا وجبرا لقلوب الملايين من الناس آلافا عدة من السنين ؟ وما الذى جاء به العلم من جانبه حتى اليوم ؟ وماذا يرجى منه أن يفعله ؟ ألا يعترف العلم نفسه أنه غير قادر على أن يكون عزاء للناس وسلوى ، غير قادر على أن يسمو بالإنسان ويزيده تشريفا ؟. فإن لم نلق إلى هذه الفوائد بالا — وهذا أمر ليس بيسير — فلنا أن نتساءل على الأقل عن مذاهب العلم وتعاليمه . أيستطيع أن يخبرنا عن خلق الكون ومصيره ، أو أن يرسم لنا صورة ملتئمة للكون ، أو أن يرينا فى أى إطار تندرج ظواهر الحياة التى لا نجد لها تعليلا ، أو أن يقول لنا كيف تستطيع القوى الروحية أن تؤثر فى المادة الخامدة ؟ . ولو استطاع لم ننكر عليه احترامنا إياه . لكنه لم يفعل شيئا من هذا ، ولم يحل لنا مشكلة واحدة من هذا النوع . فهو يزودنا بنتف مما يزعم أنه المعرفة ولا يستطيع أن يوائم بين بعضها وبعض . وهو يجمع من جملة الوقائع ما يلاحظه فيها من تجانس واطراد ، ثم يفخم هذه الملاحظات فيسميها قوانين ويعرض لنا بتأويلات رعناء . وما أقل حظ نتائجه من اليقين ! فكل ما يجىء به لا يعدو أن يكون حقا موقوتا ، وما يطريه اليوم ويقول إنه فى أعلى درجات الحكمة ينبذه فى الغد ويستعيض عنه بشىء آخر ، عن طريق التجريب أيضا . أى أن يكون حقا موقوتا ، وما يطريه اليوم ويقول إنه فى أعلى درجات الحكمة الحقيقة أن نضحى بالخير الأسمى ! » .

سيداتى وسادتى : لا أعتقد أن مثل هذه الحملة الانتقادية من شأنها أن تزلزل إيمانكم — أنتم أنصار النظرة العلمية إلى الكون — أو أن تهزها هزا عنيفا — وأود أن أذكركم فى هذا السياق بفكاهة كانت شائعة يوما ما فى النمسا الإمبراطورية . فقد حدث أن كان الإمبراطور يستقبل وفدا من حزب سياسى لا يحبه الإمبراطور ، فإذا به ينفجر فيهم

صائحا : « لم تعد هذه معارضة عادية بل هى معارضة متحاملة ! » . وأن ضروب اللوم التى توجه إلى العلم لأنه لم يحل ألغاز الكون لتذكرنا بهذه العبارة ، فهو لوم يغلو به الحقد وعدم الإنصاف . إن العلم لا يزال طفلا يحبو ، ووجه حديث من أوجه النشاط الإنسانى ، فلم يكن لديه من الوقت ما يتيح له القيام بمثل هذا العمل الجسيم . ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر أنه لم يمض على كشف « كيلر » لقوانين حركة الكواكب إلا حوالى ثلثمائة عام ، وأن « نيوتن » الذى حلل الضوء إلى ألوان الطيف وصاغ نظرية الجاذبية ، توفى فى عام ١٧٢٧ م ، أي منذ أكثر بقليل من مائتي عام ، كما أن « لافوازييه » كشف غاز الأكسيجين قبل الثورة الفرنسية بزمن وجيز . إن حياة الإنسان قصيرة جدا إذا هى قيست بديمومة التطور الإنسانى ، وقد أكون رجلا فانيا اليوم ، لكننى كنت على قيد الحياة يوم نشر « شارلز دارون » كتابه عن أصل الأنواع عام ١٨٥٩ . فى هذا العام نفسه ولدت « بيير كورى » مكتشفة الراديوم . ولو أنكم عدتم بأذهانكم إلى أوائل العلوم الطبيعية المضبوطة عند الإغريق ، حتى بلغتم « ارشميدس » أو « ارسطاركوس » الساموسى ، رائد « كوبرنكس » (حوالى عام ٢٥٠ ق . م) ، أو حتى شارفتم الجهود الأولى لعلم الفلك عند البابليين ، لما استغرقتم بهذا إلا فترة وجيزة جدا من الزمن الذى يقتضيه التاريخ الطبيعى لتطور الإنسان حتى يصل إلى حالته الحاضرة . فلاشك أن تطور الإنسان من يوم أن كان على هيئة القرد قد استغرق أكثر من مائة ألف عام . ولا يعزب عن البال أن القرن الأخير قد تمخض عن قدر كبير من الكشوف الجديدة ، وعن تقدم علمى توالت خطواته سراعا ، وهذا يجعلنا فى حل من أن ننظر إلى مستقبل العلم نظرة ملؤها الثقة .

على أنه يتعين علينا أن نسلم بصحة الاعتراضات الأخرى فى حدود معينة . نعم إن العلم يتقدم فى بطء وفى عناء يتلمس طريقه فى الظلام ، وهذا شيء لا يمكن إنكاره أو تغييره . فلا غرو أن ثار السخط فى نفوس السادة المعارضين : إنهم قوم يؤثرون القعود والعافية ، ولهم من « مكاشفاتهم » ما يكفيهم مؤونة الكد والعناء . ولنذكر أن التقدم فى العمل العلمى شبيه ، من كل الوجوه ، بما يحدث فى عملية التحليل النفسى : فما يتوقعه المحلل بادئ ذى بدء لا يلبث أن يخلف ظنه ، ثم تكشف له الملاحظة هنا وهناك عن شيء جديد ، لكنها كشوف لا يلتئم بعضها مع بعض فى أول الأمر ، فإذا به يصوغ فروضا مؤقتة يذرها إن لم تثبت وتتأكد له ، ولا معدى له عن أن يتذرع بالكثير من

الصبر ، وأن يكون مستعدا لجميع الاحتمالات ، كما يتعين عليه ألا يثب إلى النتائج وثبا خشية أن تؤدى به إلى إغفال عوامل جديدة وأخرى لم تكن فى حسبانه . على أن هذا المجهود كله لا يخطؤه الأجر فى النهاية ، وذلك حين يتخذ كل كشف من الكشوف المبعثرة مكانه المناسب ، وحين يوفق المحلل إلى فهم سلسلة بأسرها من الأحداث النفسية . غير أن عمل المحلل يختلف عن غيره فى ناحية واحدة : فهو مضطر إلى أن يستغنى عن المعونة التى يمكن أن يقدمها التجريب لبحوثه .

على أن هذا النقد للعلم ينطوى ، هو الآخر ، على قدر كبير من الغلو . فليس من الصحيح أن يقال إن العلم يخبط خبط عشواء من محاولة لأخرى ، وإنه يستبدل خطأ بآخر : ذلك أن موقف العالم شبيه فى العادة بموقف النحات الذى يشكل الصلصال ويهذب هيأته الغليظة الأولى دون انقطاع : فهو يزيد عليها وينقص منها ، حتى يصل بها إلى درجة مرضية من التشابه بالشىء الذى يراه أو يتخيله . يضاف إلى هذا أن العلوم القديمة التى قطعت شوطا من النضج تقوم اليوم على أساس ثابت يمكن أن يحور وأن يحكم ويتقن ، لكن لا سبيل إلى هدمه بعد . والواقع أن تباشير المستقبل فى دنيا العلم ليست من السوء ما تبدو به لبعض الناس .

وبعد فما الغرض من كل هذه المحاولات المشبوبة لوكس العلم والحط من قدره ؟ أليس من البديهى أننا لا نستطيع أن نستغنى عن العلم وأن نستبدل به غيره بالرغم مما هو عليه من نقص فى الوقت الحاضر ، وبالرغم من الصعوبات اللاصقة به ؟ إن العلم قابل للإتقان والتهذيب إلى حد لا يمكن تحديده ، أما النظرة الدينية إلى الكون فغير قابلة لذلك . فهذه النظرة مكتملة من حيث أصولها وأساسياتها ، ولو كانت خطأ فستبقى أبدا على ما هى عليه . إن أية محاولة للغض من شأن العلم لا تستطيع أن تنكر أن العلم يعمل دائما على أن يراعى اعتمادنا على العالم الخارجى الواقعى وارتباطنا به ، على حين أن الدين وهم يستمد قوته من مجاراته رغباتنا الغريزية .

* * *

يتعين على الآن أن أحدثكم عن نظرات أخرى إلى الكون .. تعارض النظرة العلمية . وسأقوم بهذا فى غير تحمس لأنى أعرف أنى لست أهلا للحكم على هذه الفلسفات . لذا أرجو ألا يغيب هذا الاعتراف عن أذهانكم وأنتم تستمعون إلى ما سأقول ، فإن ثار اهتمامكم بما تسمعون فلديكم مصادر أخرى أجدر بالثقة .

ويجدر بى هنا أن أذكر لكم أولا أسماء المذاهب الفلسفية المختلفة التى اجترأت أن ترسم صورة للعالم كما يتمثله مفكرون ينأون عن الواقع فى العادة نأيا بعيدا . لقد حاولت من قبل أن أصف الطابع العام للفلسفة ومناهجها ، وأعتقد أنى أكاد أكون آخر من يستطيع أن يزن هذه المذاهب كلا على حدة . لذا أطلب إليكم ، بدل هذا ، أن توجهوا اهتمامكم إلى ظاهرتين أخريين لا يمكن أن نتجاهلهما فى هذه الأيام على التخصيص .

أما النظرة إلى الكون التى سأشير إليها أولا فهى نو الفوضوية السياسية ونظيرتها ، إن صح التعبير ، وربما انبعثت ونشأت منها . لا شك أن العالم شهد من قبل أنصارا لمذهب العدمية الفكرية[1] ، لكن يبدو اليوم أن نظرية النسبية فى علم الفيزياء الحديث قد انسربت إلى أذهان هؤلاء . صحيح أنهم يبدؤون من العلم ، لكنهم يفلحون فى إكراهه على أن يزعزع مركزه بنفسه ، وفى قسره على الانتحار إن جاز التعبير ، وهم يجهزون عليه إذ يحملونه على أن يدحض مقدماته الخاصة به . وكثير ما يخيل للمرء أن هذه العدمية ليست إلا اتجاها مؤقتا لا يلبث أن يزول بانقضاء مهته . لكن العلم متى انقشع واستبعد ، فسرعان ما يحتل مكانه الشاغر نوع من الغيبية أو تلك النظرة الدينية القديمة إلى الكون . يرى هذا المذهب الفوضوى أن ليس هناك شىء اسمه الحقيقة ، وليست هناك معرفة يقينية بالعالم الخارجي . فما نحسب أنه حقيقة علمية ليس إلا نتاجا لرغباتنا الخاصة وحاجاتنا الخاصة كما تفصح عن نفسها فى ظروف خارجية متغيرة ، فما هي إذن إلا وهم وخداع . وعلى الجملة فنحن لا نجد إلا ما نحن فى حاجة إلى أن نجده ، ولا نرى إلا ما نريد أن نراه ، وليس فى مقدورنا غير هذا . ومتى اختفى معيار الحقيقة ، وهو مطابقتها العالم الخارجى ، فلا يعنينا على الإطلاق أى رأى نأخذ به . إذ كل الآراء صواب وكلها خطأ على حد سواء. وليس لأحد الحق فى أن يتهم آخر بالخطأ.

لا شك أن كل مهتم بفلسفة المعرفة يشوقه أن يعرف الحيل والمغالطات التى يفلح بها الفوضويون فى أن ينتزعوا من العلم أمثال هذه النتائج . ومن المؤكد أنه سيجد نفسه إزاء مواقف شبيهة بذلك الموقف المشهور الذى وقفه أحد سكان جزيرة كريت حين قال : إن كل سكان هذه الجزيرة كاذبون . غير أنى لا أريد ولا أستطيع أن أتعمق هذه الناحية . وحسبى أن أشير إلى أن النظرية الفوضوية لا تبدو أبهتها وعظمتها التى

---

(١) Intellectual Nihilism

تستوقف النظر إلا حين تتناول تأملات مجردة ، لكنها لا تلبث أن تنقض حين تمس الحياة العملية . ولنذكر أن الناس تسترشد فى سلوكها وتصرفاتها بما لديها من آراء ومعلومات ، وأن الروح العلمية التى تتفكر فى بناء الذرة أو أصل الإنسان هى بعينها الروح العلمية التى تشغل نفسها بتصميم جسر متين . فلو صح أن ليس لما نعتقده أهمية حقا ، وأن ليست هنا معرفة تتميز بمطابقتها الواقع ، إذن لجاز لنا أن نبنى الجسور من الورق المقوى كما نبنيها من الحجارة ، أو أن نحقن مريضا بعشر جرام من المورفين بدل أن نحقنه بجزء من مائة من الجرام ، ولكنا فى حل من أن نستخدم الغاز المسيل للدموع بدل الأثير فى التخدير . ولا شك فى أن أصحاب المذهب الفوضوى أنفسهم يرفضون أمثال هذه التطبيقات العملية لنظريتهم رفضا باتا .

* * *

أما النظرة الأخرى إلى الكون تلك التى تعارض النظرة العلمية إليه فتبدو لنا أكثر هولا وخطرا ، وكلما فكرت فيها أحزننى قصور معرفتى بها . بل ربما تعرفون عنها أكثر مما أعرف ، ولعلكم تشايعون « المذهب الماركسى » أو تجانبونه منذ عهد طويل . إن بحوث « كارل ماركس » فى البناء الاقتصادى للمجتمع ، وفى تأثير الأشكال المختلفة للتنظيم الاقتصادى فى كل أقطار الحياة الإنسانية ، قد أصبح لها اليوم نفوذ لا يمكن أن يجحد . ولست أعرف بطبيعة الحال مبلغ ما عليه هذه البحوث من صواب أو خطأ تفصيلا ، بيد أنى أعرف أنه يصعب القطع فى هذه المسألة حتى على من يحيطون بها أكثر منى . إن بعض القضايا فى نظرية ماركس تبدو غريبة فى نظرى : كالقول بأن تطور أشكال المجتمع يخضع لقوانين طبيعية ، أو أن التغييرات التى تتناول الطبقات الاجتماعية يصدر بعضها عن بعض نتيجة لعمليات جدلية منطقية . ولست على يقين قطعا بأنى أفهم هذه العبارات فهما صحيحا ، وهى عبارات لا تشتم منها رائحة « المذهب المادى » ، بل تبدو كأنها آثار من فلسفة « هجل » (Hegal) الغامضة التى تأثر بها ماركس حينا من الدهر . كما أنى لا أدرى كيف أستطيع أن أتخلص من رأى أشترك فيه مع غير المختصين بهذا الموضوع ممن يميلون إلى أن يرجعوا بناء الطبقات فى المجتمع إلى الصراع الذى يقوم ، منذ بدء التاريخ بين مختلف العشائر . فقد كانت تلك العشائر تختلف بعضها عن بعض اختلافا طفيفا ، والرأى عندى أن الفوارق الاجتماعية ترجع إلى هذه الفوارق الأصلية بين القبائل أو السلالات . أما ما كان يرجح كفة النصر فعوامل نفسية

كمبلغ العدوان المجبول فى النفوس أو درجة التماسك بين أفراد العشيرة ، وعوامل مادية كامتلاك أسلحة أمضى وأفضل . حتى إذا ما قدر للعشائر المختلفة أن تعيش معا فى صعيد واحد ، أصبح المنتصرون سادة والمنهزمون أرقاء . وليس فى هذا كله ما يشير إلى قوانين طبيعية أو إلى تطور الأفكار . ومن جهة أخرى لا يفوتنا أن نعترف بما لتحكم الإنسان المطرد فى قوى الطبيعة من تأثير فى الصلات الاجتماعية بين الناس ، ذلك أن الناس جبلوا على أن يضعوا كشوفهم العلمية الجديدة طوع ما لديهم من حاجة إلى العدوان ، فيستخدمها بعضهم ضد بعض ، فاكتشاف المعادن والبرونز والحديد قضى على بعض عصور الحضارة وما يصحبها من منظمات اجتماعية . كما أعتقد فى الواقع أن البارود والأسلحة النارية قلبت عهد الفروسية وطاحت بسيطرة الطبقة الأرستقراطية ، وأن الاستبداد الروسى كان مقضيا عليه حتى قبل أن يخسر الروس الحرب ، لأن أى قدر من التزاوج بين الأسر الحاكمة بأوروبا لم يكن يتسنى له أن ينجب سلالة من القياصرة تستطيع أن تثبت أمام القوة المتفجرة للديناميت .

بل ربما كانت الأزمة الاقتصادية الحاضرة التى أعقبت الحرب العظمى ضريبة ندفعها لقاء انتصارنا الأخير على « الطبيعة » : وهو غزو الجو بالطيران . هذه واقعة لا تبدو بديهية لأول وهلة ، لكن الحلقات الأولى ، على الأقل ، فى تسلسل هذه الحجة تبدو واضحة . لقد كانت سياسة انجلتره تقوم على الأمن الذى تكفله لها البحار المحيطة بها ، فلما عبر « بليريو » (Blériot) المضيق الإنجليزى بطائرته ، تبدد هذا الأمن وزال ، وفى الليلة التى قام فيها منطاد ألمانى برحلة تجريبية فى سماء لندن — وكان ذلك فى عهد السلم — لم يبق ثمة مجال للشك فى قيام حرب ضد ألمانيا[١] . ولا يعزب عن بالنا فى هذا الصدد ما كان لتهديد الغواصات من أثر أيضا .

يكاد يأخذنى الخجل إذ أعالج موضوعا بهذا القدر من الخطورة والتعقيد على هذا النحو الأبتر الموجوز . وأعرف كذلك أنى لم أقدم لكم شيئا جديدا عليكم . لكنى لم أرد إلا أن أسترعى انتباهكم إلى أن تحكم الإنسان فى قوى الطبيعة ، يظفر منها بأسلحة يستخدمها فى النضال مع غيره من الناس ، عامل لا بد أن يؤثر حتما فى نظمه الاجتماعية . ويبدو أننا ابتعدنا كثيرا عن مشكلات فلسفة الوجود ، لكنا سنعود إليها بعد لحظة .

---

(١) لقد أخبرنى بذلك أحد الثقات فى أول سنة من الحرب .

من الجلى أن قوة المذهب الماركسى لا تقوم على نظرته إلى التاريخ أو على التنبؤات المستقبلة التى يبنيها على هذه النظرة ، بل على إدراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم فى الإنتاج الفكرى والفنى والخلقى للإنسان . وهكذا أميط اللثام عن طائفة بأسرها من الصلات والتتابعات العلية التى كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد . غير أنه لا يمكن التسليم بأن الدوافع الاقتصادية هى الدوافع الوحيدة التى تحتم سلوك الناس فى المجتمع . فمما لا مراء فيه أن مختلف الأفراد والشعوب والسلالات لا يكون سلوكها واحدا فى نفس الظروف الاقتصادية . وهذه حقيقة تبرهن بذاتها على أن العامل الاقتصادى لا يمكن أن يكون العامل الحاسم الوحيد . بل المحال أن نفهم كيف يغض النظر عن العوامل النفسية حين يدق الأمر على سلوك كائنات بشرية حية ، لأن هذه العوامل لا تساهم فى إقامة الظروف الاقتصادية فحسب ، بل تحدد كذلك أفعال الناس ، فالإنسان لا يستطيع أن يعمل ، حتى وهو يمتثل لهذه الظروف ، إلا بدافع من نزعاته الغريزية : كغريزة المحافظة على النفس ، وحب العدوان ، والحاجة إلى الحب ، هذا إلى ما لديه من دافع إلى التماس اللذة وتفادى الألم . ولقد أكدنا فى محاضرة سابقة خطورة الدور الذى يقوم به الأنا الأعلى ، تلك السلطة التى تمثل تقاليد الماضى ومثله ، والتى تقاوم الضغط الذى تفرضه الظروف الاقتصادية الجديدة ، لمدة من الزمن . وأخيرا يجب ألا ننسى أن جمهرة الإنسانية تغشاها — وهى خاضعة للضرورات الاقتصادية — عملية تطور ثقافى يسميها البعض بالحضارة . وهى عملية تتأثر من دون شك بجميع العوامل الأخرى ، لكنها مستقلة على التحقيق عنها من حيث نشأتها . فهى شبيهة بعملية عضوية ، وتقدر بذاتها على التأثير فى العوامل الأخرى . فهى تبعد الغرائز عن أهدافها الأصلية ، وتحمل الناس على أن يثوروا على ما كانوا يبيحونه ويحتملونه من قبل ، ويبدو فوق هذا أن التوطد المطرد للروح العلمية إحدى نتائجها الأساسية . فمن أراد أن يجعل من المذهب الماركسى علما حقيقيا من العلوم الاجتماعية ، تعين عليه أن يجلو الدور الذى يقوم به كل واحد من هذه العوامل المختلفة تفصيلا : أى تعين عليه أن يدرس الاستعداد الجبلى العام للإنسان ، وتفاوته تبعا للسلالة ، وتحوره بفضل الثقافة ، وكيف يتأثر بالظروف الاجتماعية المتغيرة وأوجه النشاط المهنى وطرق كسب الرزق ، وكيف تتضافر هذه العوامل المختلفة بعضها مع بعض أو يتنافر بعضها مع بعض . ذلك أن علم الاجتماع وهو العلم الذى يدرس سلوك الإنسان فى المجتمع لا يمكن أن يكون شيئا

آخر غير علم النفس التطبيقي . والحق أنه لا يوجد فى الواقع غير علمين : علم النفس البحت أو التطبيقى والعلم الطبيعى .

وحينما بدأ الناس يفطنون ، آخر الأمر ، إلى الخطورة البعيدة المدى للظروف الاقتصادية ، ثار فى نفوسهم الميل إلى تغييرها عن طريق الثورة بدل أن يدعوا ذلك للتطور الطبيعى . إن الماركسية النظرية كما هى مطبقة فى البلشفية الروسية ، قد أصبح لها من القوة والشمول والتفرد ما جعلها بمثابة « نظرة إلى الكون » ، لكنها لبست فى الوقت عينه لبوسا غريبا يشابه بينها وبين ما تحاربه . فمع أنها تدين بأصلها وبتحقيقها إلى العلم ، ومع أنها بنيت على العلم ووفق سنته ، إلا أنها ضيقت الخناق على الفكر بصورة عنيدة متصلبة تذكرنا بما كان يفعله الدين من قبل . فقد حرم على الناس تناول النظرية الماركسية بأى نقد أو تمحيص ، أما من خامرته الشكوك فى صدقها فجزاؤه من العقاب والانتقام مثل ما كانت تجازى به الهرطقة والضلال الدينى فى ظل الكنيسة الكاثوليكية من قبل . وقد اتخذت كتب كارل ماركس ، باعتبارها مصدر الإلهام لهذه الحركة ، مكانة الكتب الدينية ، مع أنها لا تقل تناقضا وإبهاما عن هذه الكتب المقدسة القديمة .

ومع أن الماركسية العملية قد أحاطت بكل الأوهام والأنظمة المثالية فى غير هوادة أو لين ، إلا أنها نفسها خلقت أوهاما لا تقل عن سابقتها ريبة واستعصاء على البرهان . فهى تأمل أن تغير الطبيعة الإنسانية ، فى خلال بضعة أجيال ، بحيث يتسنى للناس أن يعيشوا معا فى نظام جديد للمجتمع يكاد يخلو من الاحتكاك ، وأن يقوموا بأعمالهم طوعا دون إكراه . ولكى تكبح الغرائز — وهذا أمر لا غنى عنه فى كل مجتمع منظم — فهى تبدل موضوعاتها إذ توجه النزعات العدوانية إلى الخارج ، تلك النزعات التى تتهدد كل مجتمع إنسانى ، تساندها فى ذلك عداوة الفقراء وعداوة الضعفاء لمن بيدهم النفوذ والسلطان . غير أن تحوير الطبيعة البشرية على هذا النحو بعيد الاحتمال إلى حد كبير . وإن الحماسة التى تنقاد بها الدهماء فى الوقت الحاضر للقيادة البلشفية ، أى فى الوقت الذى لم يكتمل فيه النظام الجديد بعد ويحيق به الخطر من خارج ، لا تسمح لنا أن نتنبأ باليوم الذى يتوطد فيه هذا النظام ويستقر ويصبح فى مأمن من الخطر . على أن البلشفية — شأنها فى ذلك شأن الدين تحديدا — ترى نفسها مضطرة إلى أن تعوض المؤمنين بها عما يكابدونه من آلام وحرمان فى الوقت الحاضر بأن تعدهم بحياة أفضل فى

المستقبل ، بحياة تقضى فيها كل الحاجات وتشبع فيها كل الرغبات . صحيح أن هذا الفردوس سيكون مستقره فى هذه الحياة الدنيا ، وستفتح أبوابه بعد زمن لا يستحيل حسابه ، لكن لا يعزب عن بالنا أن اليهود ، وهم أهل دين لا يعرف حياة أخرى بعد الموت ، كانوا ينتظرون ، هم الآخرون ، ظهور المسيح على هذه الأرض التى نعيش عليها ، وأن المسيحية فى القرون الوسطى كانت تعتقد أبدا أن ملكوت الله قريب .

أما الرد الذى ستجيب به البلشفية على هذه الأوجه من النقد فنعرفه دون ريب . ذلك أنها ستقول : « لا مناص من أن تستخدم اليوم الوسائل النافذة ذات الأثر فى الناس حتى يجىء الوقت الذى تكون طبائعهم قد تغيرت فيه . فلا مندوحة عن استعمال القسر فى تربيتهم وعن تضييق الخناق على تفكيرهم ، أو عن اصطناع القوة معهم وإن اقتضى الأمر سفك الدماء ، على أننا إن لم نستثر فى نفوسهم تلك الأوهام التى تتحدث عنها ، لم يتسن لنا أن نحملهم على الإذعان إلى هذا القسر » . وبعد هذا قد تطلب إلينا فى تأدب أن نشير عليها بذريعة أخرى غير تلك . وهنا لا يسعنا إلا أن يسقط فى أيدينا . فأية نصيحة نستطيع أن نقدمها حقا ؟ وينبغى لى أن أعترف بأن ظروف هذه التجربة من شأنها أن تمنعنى من القيام بها ، أنا ومن على شاكلتى من الناس . لكننا لسنا وحدنا من يهمهم الأمر . فهناك رجال الأعمال ، وهم قوم لا يتزعزعون عما يؤمنون به ، ولا يتطرق إلى نفوسهم الشك ، ولا يحسون بآلام من يقف بينهم وبين تحقيق أغراضهم . وأمثال هؤلاء هم الذين يقومون فى الوقت الحاضر بتأسيس هذا النظام الجديد للمجتمع وتنفيذه بالفعل فى روسيا . ففى الوقت الذى تعلن فيه الشعوب الكبرى أنها لن تجد خلاصها إلا فى التمسك المكين بأهداب المسيحية ، يلوح للناس أن هذا الانقلاب فى روسيا بشير بمستقبل أفضل بالرغم مما يغشاه من صروف أليمة . ومما يؤسف له أن ليس فى تشككنا أو فى تعصب غيرنا ما يسمح لنا بأن نتنبأ بمصير هذه المحاولة . فهذا ما سيخبرنا به المستقبل . فربما ظهر أن المحاولة كانت مبتسرة ، وأن التغيير الأساسى للنظام الاجتماعى لن يظفر بقسط كبير من النجاح إلا حين تظهر كشوف جديدة تزيد من تحكمنا فى قوى الطبيعة فتيسر لنا إرضاء حاجاتنا . وعندئذ فقط قد يتسنى إصلاح النظام الاجتماعى إصلاحا لا يذهب بالعوز المادى لسواد الناس فحسب ، بل ويحترم المتطلبات الثقافية لآحاد الناس أيضا . لكن الطبيعة البشرية لا ترضخ لكل نوع من أنواع الاتفاق الاجتماعى إلا فى صعوبة وعناء ، ومن ثم يبدو أن

النضال لا بد أن يدوم فترة من الزمن لا يمكن التنبؤ بطولها .

سيداتى وسادتى : اسمحوا لى فى النهاية أن ألخص لكم ما لزم أن أقوله عن الصلة بين التحليل النفسى ومسألة النظرة إلى الكون : الرأى عندى أن التحليل النفسى لا يستطيع أن يخلق لنفسه نظرة إلى الكون خاصة به . فهو ليس فى حاجة إلى ذلك ، لأنه فرع من فروع العلم ، وبذا يستطيع أن يشترك فى فلسفة الوجود العلمية . على أن هذه النظرة غير جديرة بذلك الاسم الصائت الرنان ، لأنها لا تنتظم كل شيء فى سلكها ، فهى غير مكتملة ولا تدعى أنها عامة شاملة أو أنها تؤلف نظاما (System) بمعنى الكلمة . ذلك أن التفكير العلمى لا يزال فى طفولته ، ولا يزال عاجزا عن حل عدد ضخم من المشكلات الكبرى . إن النظرة العلمية إلى الكون لا تقنع بتوكيدها شهادة العالم الخارجى الواقعى ، بل إن لها فوق ذلك خصائص سلبية فى جوهرها فهى تستمسك بالحقيقة وترفض الأوهام . فإذا كان بين معاصرينا من لا يرضى بهذا الوضع وأراد شيئا أكثر منه يتخذه ذريعة موقوتة إلى راحة باله ، فليبحث عنه حيث يتسنى له أن يجده . أما نحن فلا نلومه على ذلك ، لكننا لا نستطيع أن نقدم له العون أو أن نغير طريقة تفكيرنا من أجله .

انتهى الكتاب

فهرس الكتاب

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه